الفوائد الجلية

شرح

مسائل الجاهلية

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

زيد بن محمد بن هادي المدخلي

أشرف على طبعه وإخراجه

فواز بن علي المدخلي

الميراث النبوي

للنشر والتوزيع

الفوائد الجلية
شرح
مسائل الجاهلية

حقوق الطبع محفوظة

للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

طبع بإذن المؤلف

العلم ميراث النبي كذا أتى ... في النص والعلماء هم وراثه

ما خلّف المختار غير حديثه ... فينا فذاك متاعه وأثاثه

رقم الإيداع القانوني: 2728-2012

ردمك: 978-9947-987-82-7

الميراث النبوي للنشر والتوزيع

الدار البيضاء - الجزائر العاصمة

الإدارة: 554250098 (00213) المبيعات : 661409999 (00213)

الفاكس : 21966847 (00213)

البريد الإلكتروني: Dar.mirath@gmail.com

التوزيع في مصر : دار المستقبل

50- شارع منشية التحرير- جسر السويس - عين شمس- الشرقية

ت : 00201118328377

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا إله إلا هو، خالق كلِّ شيء، وهو علىٰ كل شيء وكيل.

وأشهد أن لا إله إلا الله، الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، له الأسماء الحسنىٰ، والصفات العلا، المنزَّه عن التشبيه والتعطيل، والتحريف والتأويل والتمثيل.

وأشهد أن نبيَّنا محمدًا الداعي إلىٰ كلِّ قول حسن، وفعل جميل، أرسله الله ﷻ بشيرًا ونذيرًا، بالحكمة البالغة، والمواعظ والإرشادات النافعة، فأخرج برسالته من شاء من خلقه، من الظلمات إلىٰ النور وسواء السبيل، صلىٰ الله عليه، وعلىٰ آله وصحبه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا مباركًا، أرجو ثوابه في دار الدنيا، ودار البرزخ، وفي اليوم الثقيل.

أما بعد:

فهذه تعليقاتٌ مختصرةٌ علىٰ مسائل الجاهلية، إحدىٰ رسائل المجدد الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله، ورفع درجته عاليةً مع أولياء الله- كنت قد أمليتها علىٰ طلاب العلم في إحدىٰ الدورات العلمية الشرعية؛ المسماة بدورة الشيخ عبد الله بن محمد القرعاوي رحمه الله، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ورفع درجته عاليةً مع المنعَم عليهم، الذين أرضوا ربهم بصالح العمل، فرضي عنهم وأرضاهم في دار الجزاء علىٰ العمل.

وأسألُ اللهَ سبحانه أن يجعلني وإياكم -أيها المؤمنون والمؤمناتُ-، ممن رضي عنهم ربُّهم وأرضاهم.

وقد جرت العادة المتبعة في الدورات العلمية الشرعية، بتسجيل المتون التي تُلقىٰ علىٰ طلاب الدورة، وما عليها من شروح وتعليقات، ثم تفرغ بعد ذلك الدروس الصوتية وتُجمع، فينظرُ فيها القائم بالشرح والتعليق، فيُصلحُ ما يحتاجُ إلىٰ إصلاح، ويُضيفُ من الكلام ما تحسنُ إضافتُه، ويحذفُ ما يمكنُ الاستغناءُ عنه، فيصبحُ المتنُ والشرحُ كتابًا نافعًا مفيدًا لمن وقع في يده.

وهذا ما حصل عندي في هذه الرسالة، فقد قام بالإشراف علىٰ تسجيلها وتفريغها، أحدُ القائمين علىٰ الدوراتِ المقامةِ في محافظةِ صامطة، بجميعِ أنواعها، وأحد الدعاة إلىٰ الله الشيخُ فوازُ بن علي المدخلي، المدرسُ في ثانوية الجرادية، والقائمُ بمتابعة أنشطة الدعوة، التي يقوم بها المكتب التعاوني بالمحافظة، وقد لبثت هذه المادةُ متنًا وشرحًا، تُنقل من درج إلىٰ درج مدَّة طويلة جدًّا، حتىٰ سنحت لي الفرصةُ للنظر فيها، وعملِ اللازمِ الذي لابدَّ منه، وإعادتها إلىٰ المشرف علىٰ تسجيلها وتفريغها وحفظها، فأعدَّها لتبرز إلىٰ حيز الوجود، ومصافحة القرَّاء، وهي تتألَّم من ذلكم التأخير، الذي سبق الإخراج قائلةً بلسان الحال -وقلتُ عنها بلسان المقال-:

لبثتُ في كوخٍ سنين من الزمن ... فناديتُ من كوخي رحيمًا مواسيا
فلبَّىٰ ندائي عبقريٌّ وذو تُقىٰ ... يُجزىٰ بخيرٍ قاعدًا ثم ماشيا
فأخرجني إلىٰ حيز الوجود كما ترىٰ ... حسنُ بهائي من إلهي أتىٰ ليا
فأصبحتُ في ركب الفنون مليحةً ... ونوري مبينٌ للبريَّة هاديا
تُقلِّبني أيدي الكرام كأنني ... عقدٌ نضيدٌ مع جمال سما بيا
سبحان ربي إذ كسانيَ حُلَّةً ... شرحًا بديعًا ظاهرًا ليس خافيا

وأشكرُه شكرًا أروم ثوابَه ... وأحمده حمدًا كثيرًا وباقيا
علىٰ نعمٍ سيقت إليَّ وبهجةٍ ... فأمست أصولي كالشموس لها ضيا
أأبا عليٍّ[1] كم قضيتَ ليالِيا ... وبذلتَ جهدًا رائحًا ثمَّ غاديا
وأحييتَ ميتًا يا بنيَّ حقيقة ... وكسبتَ أجرًا من إلهك وافيا
ونشرتَ سفرًا بالبَنان نقشته ... تهنأ جناه وافيًا ثمَّ كافيا
فشكرًا جزيلًا كلَّ حينٍ ولحظة ... يُهدىٰ إليك إذ نهضت مواسيا
ومن بعد شكرٍ للإله وخشية ... سبحان ربي منعِمًا ثُمَّ شافيا

ومما هو جدير بالتنويه به أنَّ أبا علي فواز بن علي المدخلي له مشاركة في العناية بكثير من كتبي التي قد تمَّ إخراجُها كـ «طريق الوصول إلىٰ إيضاح ثلاثة الأصول»، و«التعليقات المباركات علىٰ كشف الشبهات»، و«أبرز الفوائد من الأربع القواعد»، و«سلَّم الوصول إلىٰ بيان الستة الأصول»، و«الفوائد الجلية من مسائل الجاهلية»، و«العقد المنضد الجديد في الإجابة عن مسائل في الفقه والمناهج والتوحيد»، و«مجموعة رسائل الجزء الثاني»، و«قبس من الشروق علىٰ الفروق»، و«نصيحة غالية وكنز ثمين»، وغيرها، كتب الله له الأجر، وزاده من العلم النافع والعمل الصالح.

قاله وأملاه

زيد بن محمد بن هادي المدخلي

٢٠/ ١٠/ ١٤٣٢هـ

---

(١) هو الشيخ فواز بن علي أبو علي المدخلي.

ترجمة مختصرة للإمام المجدد
محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ

هو الشيخ الإمامُ المجدِّدُ، شيخُ الإسلام، محمدُ بنُ عبد الوهاب بنِ سليمان بنِ علي بنِ مُشَرِّف التميمي النَّجدي، ولد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بلدة العيينة، وهي قرية في شمال الرياض، وكانت محل أسرته.

نشأ في بيت علم؛ فأبوه كان قاضي البلد، وجدُّه الشيخ سليمان كان هو المفتي والمرجع للعلماء، وأعمامه كلهم علماء.

ودَرَس علىٰ يد أبيه عبد الوهاب، وعلىٰ أعمامه منذ صغره، فحفظ القرآن الكريم علىٰ أبيه، قبل أن يبلغ سن العاشرة، وقرأ كتب التفسير والحديث حتىٰ برع في العلم وهو صغير، وأُعجب أبوه والعلماء من حوله بذكائه ونبوغه، وكان يناقش في المسائل العلمية، حتىٰ أنهم استفادوا من مناقشته، فاعترفوا له بالفضل، ثم إنه لم يكتفِ بهذا القدر من العلم -وإن كان فيه الخير-، إلَّا أنَّ العلمَ لا يُشبعُ منه، فرحل لطلب العلم، وترك أهله ووطنه، وسافر إلىٰ الحج، وبعد الحج ذهب إلىٰ المدينة، والتقىٰ بعلمائها في المسجد النَّبوي، خصوصًا الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف[1].

---

(١) هو الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف من آل سيف، رؤساء بلده (المجمعة)، وهو من =

وكان إمامًا في الفقه وأصوله، وهو من أهل نجد، من أهل المجمعة في سدير، وكذلك ابنه إبراهيم بن عبد الله[١]، مؤلف كتاب: «العذب الفائض شرح ألفية الفرائض»[٢]، والتقىٰ كذلك بالمحدث الشيخ محمد حياة السندي[٣]، وأخذ

=

أفاضل الفقهاء، قرأ علىٰ علماء المدينة ثم ارتحل إلىٰ الشام فقرأ علىٰ شيخ الحنابلة هناك العلامة أبي المواهب، ثم عاد إلىٰ المدينة فسكن بها حتىٰ توفي سنة ١١٤٠، أربعين ومائة وألف من الهجرة النبوية.

انظر ترجمته في: «السحب الوابلة علىٰ ضرائح الحنابلة» لابن حميد (٢/ ٤٤)، و«علماء نجد خلال ثمانية قرون» للبسام (٤/ ٦-١٠).

(١) هو إبراهيم بن عبد الله بن سيف النجدي ثم المدني، ولد بالمدينة سنة (١١١٩ هـ)، وبها توفي سنة (١١٨٩هـ).

انظر: «السحب الوابلة» لابن حميد (٢/ ٤٠-٤٤)، و«الأعلام» للزركلي (١/ ٥٠)، و«علماء نجد خلال ثمانية قرون» للبسام (١/ ٣٧٢-٣٧٤).

(٢) وهو شرح لألفية الفرائض المسماة: «عمدة كل فارض في علم الوصايا والفرائض» لناظمها الشيخ صالح بن حسن البهوتي الأزهري المتوفىٰ سنة ١١٢١ هـ.

«معجم المؤلفين» لعمر بن رضا كحالة (١/ ٥٠)، و«إيضاح المكنون» لإسماعيل البغدادي (٤/ ١٤٣)، و«الأعلام» للزركلي (٣/ ١٩٠).

(٣) هو محمد حياة بن إبراهيم السندي الأصل والمولد، المدني، الحنفي، العلامة المحدث، لازم الشيخ أبا الحسن بن عبد الهادي السندي وجلس مجلسه بعد وفاته أربعًا وعشرين سنة، وأجاز له الشيخ عبد الله بن سالم البصري والشيخ محمد أبو الطاهر بن إبراهيم الكوراني وغيرهما.

له شرح علىٰ «الترغيب والترهيب» للمنذري في مجلدين، وشرح علىٰ «الأربعين النووية»، وغيرهما.

=

منه إجازة في مروياته من كتب الحديث، ثم رجع إلىٰ بلاده.

ولم يكتفِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا؛ بل سار إلىٰ بلاد الأحساء شرق بلاد نجد، وفيها العلماء، من حنابلة وشافعية ومالكية وحنفية، فأخذ عنهم خصوصًا عن الحنابلة، كأبي محمد عبد الله بن فيروز[١]، أخذ عنه الفقه، وعبد الله بن عبد اللطيف الأحسائي[٢].

ثم رحل بعدها إلىٰ العراق، إلىٰ البصرة خاصة، وكانت آنذاك آهلةً بالعلماء في الحديث والفقه، فأخذ عن علمائها خصوصًا الشيخ محمد المجموعي[٣] وغيره.

=

وكانت وفاته سنة ثلاث وستين أو سنة خمس وستين ومائة وألف (١١٦٣ هـ أو ١١٦٥ هـ)، ودفن بالبقيع -رحمه الله تعالىٰ-.

انظر ترجمته في: «عنوان المجد في تاريخ نجد» لعثمان بن بشر (١/ ٦٤)، و«سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» لأبي الفضل الحسيني (٤/ ٣٤)، و«الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» لعبد الحي الطالبي (٦/ ٨١٥-٨١٦).

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد الله بن محمد بن فيروز النجدي التميمي ابن عمة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولد سنة (١١٠٥هـ)، مهر في الفقه وأصوله وأصول الدين وغيرها، وكان عنده من كتب الإمامين ابن تيمية وابن القيم ما سر به الشيخ محمد بن الوهاب وأثنىٰ عليه بمعرفته عقيدة الإمام أحمد. توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة (١١٧٥هـ).

«السحب الوابلة» (٢/ ٦٥٢-٦٥٣)، و«المقامات» للعلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (٦-٧)، و«علماء نجد خلال ثمانية قرون» (٤/ ٤٨٧-٤٨٩).

(٢) انظر: «المقامات» (ص٧)، و«مشاهير علماء نجد» لعبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ (ص١٨).

(٣) انظر: «عنوان المجد» (١/ ٣٦).

وكان الشيخ في كل تنقلاته، إذا ظفر بكتاب من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية أو تلميذه ابن القيم، نسخه بقلمه، ونسخ كثيرًا من الكتب في الأحساء وفي البصرة، فتجمعت لديه مجموعة عظيمة من الكتب.

ثم إنه همَّ بالسفر إلىٰ بلاد الشام؛ لما فيها من أهل العلم، خصوصًا من الحنابلة وأهل الحديث، ولكنه بعدما سار إليها، شقَّ عليه الطريق، وحصل له جوع وعطش، وكاد أن يهلك في الطريق، -وأنتم تعلمون الإمكانات في ذلك الوقت وبُعد المسافة- فرجع إلىٰ البصرة، وعدل عن السفر إلىٰ الشام.

ثم رجع إلىٰ نجد بعدما تسلَّح بالعلم، وبعدما حصل علىٰ مجموعة كبيرة من الكتب، إضافة إلىٰ الكتب التي كانت عند أهله، وعند أهل بلده، ثم اتجه إلىٰ الدعوة والإصلاح، ونشر العلم النَّافع، ولم يرضَ بأن يسكت ويترك الناس علىٰ ما هم عليه؛ بل أراد أن ينشر علمه، وأن يدعو إلىٰ الله، فنظر في مجتمعه فوجد فيه من الشر والشرك الكثيرَ، فأخذته الغَيرةُ علىٰ دين الله والرحمةُ للمسلمين، ورأىٰ أنه لا يسعه السكوت علىٰ هذا الوضع.

وكان علماء نجد يُعنَون بالفقه، وهم في العقيدة علىٰ عقيدة المتكلمين من أشاعرة وغيرهم، ليس لهم عناية بعقيدة السَّلف، كما هو الحال في الشام والبصرة وغيرها من الأقطار، فكانت العقيدة المنتشرةُ في نجد هي عقيدة الأشاعرة، مع ما عند كثير منهم من الإخلال بتوحيد الألوهية.

وأما عقيدة السَّلف فقلَّ من يُعنىٰ بها، وطغت علىٰ الكثير منهم الخرافات والبدع، والشرك في العبادة المتمثل بعبادة القبور، هذا من النَّاحية العلمية.

وأما من النَّاحية السياسية، فكانوا متفرقين، ليس لهم دولة تجمعهم، بل كل قرية لها أمير مستقل بها، فالعيينة فيها حاكم، والدرعية فيها حاكم، والرياض فيها

حاكم، وكل قرية صغيرة فيها حاكم، وكانت بينهم حروب وسلب ونهب، فيما بينهم وبين القرىٰ والبادية.

فكانت البلاد في قلق وتفرق وتناحر وضياع، حتىٰ أن أهل البلد الواحد يقاتل بعضهم بعضًا.

وكان في بلاد نجد عبادةُ القبور، والاستغاثةُ بالأموات، فقد كانت عندهم قبورٌ للصَّحابة، كقبر زيد بن الخطاب ﷺ الذي استشهد مع جماعة من الصحابة في حرب مسيلمة الكذَّاب، وكان أهل نجد يستنجدون بها، ويستغيثون بها، وكان علىٰ قبر زيد قبة، وكانوا يأتون إلىٰ قبره من بُعدٍ، وهي مشهورة عندهم.

وكان عندهم أشجار ونخيل يعتقدون فيها، ويتبرَّكون بها، بل كانت عندهم النِّحل الباطلة، مثل الصوفية وغيرها.

هكذا كانت حالتهم الدينية، والعلماء ساكتون عن هذا الوضع، بل إن بعضهم يشجع هذه الخرافات ويؤيدها، فلما رأىٰ الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حال المسلمين تصدَّر للدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فقام يدعو إلىٰ الله، ويدرِّس التوحيد، وينكر هذه الشركيات والخرافات، ويقرر منهجَ السلفِ الصالحِ؛ فأصبح عنده تلاميذ من الدرعية والعيينة، ممن أراد الله له الخير.

ثم إن الشيخ محمدًا اتصل بأمير العيينة، وعرض عليه الدعوة، فقبل منه الأمير ووعده بالمناصرة في أول الأمر، وهدم قبَّة زيد بن الخطاب، بعد طلب الشيخ منه ذلك؛ لأنه لا يمكن أن يهدمها إلا من له سلطة، أما الفرد فلا يستطيع ذلك؛ فاستجاب له الأمير، وجاءت إلىٰ الشيخ امرأة اعترفت بالزنا، وطلبت منه أن يقيم عليها الحد، فردها حتىٰ كررت عليه الطلب مثلما فعلت الغامدية رضي الله عنها

في عهد النبيِّ ﷺ[1]، فأقام عليها حد الرجم.

فلما بلغ أميرَ الأحساء هدمُ القبة ورجمُ المرأة، أرسل إلىٰ أمير العيينة يقول: إما أن تطرد هذا المطوع، وإلَّا قطعت عنك المساعدة التي أرسلها إليك، فجاء الأمير إلىٰ الشيخ وعرض عليه الأمر وقال: أَنَا لا أقدر أن أقاوم هؤلاء، فهدَّأه الشيخ، ووعده بالخير، وأرشده أن يتوكل علىٰ الله، وذكَّره أن الرزق بيد الله، وأن

---

(١) روىٰ مسلم في صحيحه (١٦٩٥) عن بريدة رضي الله عنه أَنَّ مَاعِزَ بنَ مَالِكٍ الأَسلَمِيَّ، أَتَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَد ظَلَمتُ نَفسِي، وَزَنَيتُ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَن تُطَهِّرَنِي، فَرَدَّهُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ أَتَاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَد زَنَيتُ، فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ، فَأَرسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ قَومِهِ، فَقَالَ: **أَتَعلَمُونَ بِعَقلِهِ بَأسًا، تُنكِرُونَ مِنهُ شَيئًا؟**

فَقَالُوا: مَا نَعلَمُهُ إِلَّا وَفِيَّ العَقلِ مِن صَالِحِينَا فِيمَا نَرَىٰ، فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ، فَأَرسَلَ إِلَيهِم أَيضًا فَسَأَلَ عَنهُ، فَأَخبَرُوهُ أَنَّهُ لَا بَأسَ بِهِ، وَلَا بِعَقلِهِ، فَلَمَّا كَانَ الرَّابِعَةَ حَفَرَ لَهُ حُفرَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ.

قَالَ: فَجَاءَتِ الغَامِدِيَّةُ، فَقَالَت: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَد زَنَيتُ فَطَهِّرنِي، وَإِنَّهُ رَدَّهَا، فَلَمَّا كَانَ الغَدُ، قَالَت: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ تَرُدُّنِي؟ لَعَلَّكَ أَن تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدتَ مَاعِزًا، فَوَاللهِ إِنِّي لَحُبلَىٰ، قَالَ: **إِمَّا لَا فَاذهَبِي حَتَّىٰ تَلِدِي.**

فَلَمَّا وَلَدَت أَتَتهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرقَةٍ، قَالَت: هَذَا قَد وَلَدتُهُ.

قَالَ: **اذهَبِي فَأَرضِعِيهِ حَتَّىٰ تَفطِمِيهِ.**

فَلَمَّا فَطَمَتهُ أَتَتهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسرَةُ خُبزٍ، فَقَالَت: هَذَا يَا نَبِيَّ اللهِ قَد فَطَمتُهُ، وَقَد أَكَلَ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنَ المُسلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَىٰ صَدرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا، فَيُقبِلُ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ بِحَجَرٍ، فَرَمَىٰ رَأسَهَا فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَىٰ وَجهِ خَالِدٍ فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ سَبَّهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ: **مَهلًا يَا خَالِدُ، فَوَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَقَد تَابَت تَوبَةً لَو تَابَهَا صَاحِبُ مَكسٍ لَغُفِرَ لَهُ.** ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّىٰ عَلَيهَا، وَدُفِنَت.

هذه عقيدة التوحيد، من قام بها فإن الله يعينه وينصره، لكن الأمير أصرَّ علىٰ خروج الشيخ من بلده، فخرج الشيخ من العيينة وقت القيلولة، وذهب إلىٰ الدرعية.

وكان له فيها تلميذ من خيار التلاميذ يقال له: ابن سويلم، فذهب الشيخ من العيينة إلىٰ الدرعية، ليس معه إلَّا المروحة اليدوية، يُهَوِّي بها علىٰ وجهه، وهو يمشي ويقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

فلما وصل إلىٰ تلميذه في الدرعية، أصاب التلميذ خوف وقلق من مجيء الشيخ؛ لأنه خشي علىٰ نفسه، وعلىٰ الشيخ من أهل البلد؛ لأنهم متحاذرون من هذا الشيخ، فهدأه الشيخ وقال: لا يخطر في بالك شيء أبدًا، توكل علىٰ الله -جل وعلا-؛ فهو ينصر من نصره.

وفيما هم كذلك، علمت زوجة أمير الدرعية، وكانت امرأة صالحة، فعرضت علىٰ زوجها الأمير محمدِ بنِ سعودٍ أن يناصرَ هذا الشيخ الذي جاء، وأخبرته أنه نعمة من الله ساقها إليه فالبدارَ باغتنامه، فأدخلت عليه الطمأنينة، وحب الدعوة، وحب هذا العالم، فقال الأمير: يأتيني.

فقالت زوجته: بل اذهب أنت إليه؛ لأنك إذا أرسلت إليه وقلت يأتيني ربما يقول الناس طلبه من أجل أن يبطش به، لكنك إذا ذهبت إليه يكون هذا عزًّا له ولك، فذهب إليه الأمير في بيت التلميذ وسلَّم عليه وسأله عن قدومه فشرح له الشيخ، وبين له أنه ليس عنده إلَّا دعوة الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم-، هي الدعوة إلىٰ كلمة التوحيد، وهي لا إله إلا الله، وشرح معناها، وبين له أنها عقيدة الرسل جميعًا.

فقال الأمير: أبشر بالنصر والتأييد.

وقال له الشيخ: وأبشر بالعز والتمكين لأن هذه الكلمة «لا إله إلَّا الله»، من قام بها فإن الله يمكِّن له في الأرض.

فقال له الأمير: لكني أشترط عليك شرطًا!

قال: ما هو؟

قال: أن تتركني وما آخذ من الناس.

قال الشيخ: لعل الله يغنيك عن هذا، ويفتح لك باب رزق من عنده، فتفرقا علىٰ هذا، وقام الشيخ بالدعوة، وقام الأمير بالمناصرة، ثم توافد الطلاب علىٰ الدرعية وصار للشيخ مكانة فيها، فكان هو الإمام في الصَّلاة والمفتي والقاضي، فتكونت إمارة للتوحيد في بلاد الدرعية من ذلك الوقت، وأرسل الشيخ رسائل إلىٰ أهل البلدان والقرىٰ، يدعوهم إلىٰ الله، والدخول في عقيدة التوحيد، وترك البدع والخرافات، فمنهم من استجاب وانضم إلىٰ الدعوة، بدون جهاد ولا قتال، ومنهم من مانعه وعانده، فقاتلهم جنودُ التوحيد بقيادة الأمير محمد بن سعود وريادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وامتدت الدعوة في بلاد نجد، وسلَّمت له البلاد ومن حولها، حتىٰ أمير العيينة -الذي كان له ذاك الموقف مع الشيخ- دخل في ولاية محمد ين سعود، وكذلك دخلت الرياض بعد قتال شديد، وامتدت الولاية خارج الرياض حتىٰ عمت من حدود الشام شمالًا، إلىٰ حدود اليمن جنوبًا، ومن البحر الأحمر غربًا إلىٰ الخليج العربي شرقًا، كلُّها صارت تحت ولاية الدرعية بادية وحاضرة.

وأفاء الله علىٰ الناس في الدرعية، الخير والرزق والغنىٰ والثروة، وقامت بها أسواق تجارية، واستنارت بالعلم والقوة، ببركة هذه الدعوة السَّلفية، التي هي دعوة الرسل عليهم السلام.

مؤلفاته:

أَلَّف الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله مؤلفات كثيرة في العقيدة، والدعوة،

والعبادات والمعاملات، والسلوك، والسيرة النبوية الكريمة، وهي مطبوعة ومشروحة ومتداولة في المعمورة.

ووجد ويجد طلاب العلم فيها بغيتهم -والحمد لله-، وأخصُّ بالذكر هنا من رسائله؛ رسالة مسائل الجاهلية التي نحن بصدد شرحها -إن شاء الله تعالىٰ-.

والمراد بمسائل الجاهلية: ما كانوا عليه من المخالفات الشركية، والبدعية التي خالفهم فيها رسول الله ﷺ، وكان قد انتشر داء الجاهلية من عهد بعيد، أي: بعد القرون المفضَّلة.

وبعد المائة الرابعة من الهجرة، قيَّض الله لهذه الأمة علماء يبينون للناس مراد الله منهم، ومراد رسوله محمد -عليه الصلاة والسلام-.

ومن أبرزهم: شيخُ الإسلام أحمدُ بن عبد الحليم المعروفُ بابن تيمية[1]، الذي قام بدحض الشركيات والمخالفات المحدثات، ثم تلاه تلاميذُه، وعلىٰ رأسهم: ابنُ قيِّم الجوزية[2]، .....

---

(١) هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله ابن تيمية الحراني.

ولد رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ٦٦١هـ بحرَّان. انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، والزهد والورع، والشجاعة والكرم، والتواضع والحلم والإنابة، والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر أنواع الجهاد مع الصدق والعفة والصيانة، وحسن القصد والإخلاص، وسائر أنواع الخير.

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ ليلة الإثنين لعشرين من ذي القعدة من سنة (٧٢٨هـ).

انظر لترجمته: «الانتصار في ذكر أحوال قامع المبتدعين وآخر المجتهدين»، للحافظ ابن عبد الهادي المقدسي، و«الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية»، للحافظ المؤرخ علم الدين البرزالي.

(٢) هو الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أَبِي بَكرِ بنِ أَيُّوبَ الزُّرَعِيُّ، إِمَامُ الجَوزِيَّةِ،

وابنُ كثير[1]، .....

=

وَابنُ قَيِّمِهَا، وُلِدَ فِي سِنَةِ إِحدَىٰ وَتِسعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ (٦٩١هـ)، وَسَمِعَ الحَدِيثَ وَاشتَغَلَ بالعلم، وبرع في العلوم المتعددة، لَاسِيَّمَا عِلمُ التَّفسِيرِ وَالحَدِيثِ وَالأَصلَينِ، وَلَمَّا عاد الشيخ تقي الدين بن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عَشرَةَ وَسَبعِمِائَةٍ لَازَمَهُ إِلَىٰ أَن مَاتَ الشَّيخُ فَأَخَذَ عَنهُ عِلمًا جَمًّا، مَعَ مَا سَلَفَ لَهُ مِنَ الِاشتِغَالِ، فَصَارَ فَرِيدًا فِي بَابِهِ فِي فُنُونٍ كَثِيرَةٍ، مَعَ كَثرَةِ الطَّلَبِ لَيلًا ونهارًا، وكثرة الابتهال.

لَهُ مِنَ التصانيف الكبار والصغار شيء كَثِيرٌ، وَاقتَنَىٰ مِنَ الكُتُبِ مَا لَا يَتَهَيَّأُ لِغَيرِهِ تَحصِيلُ عُشرِهِ مِن كُتُبِ السَّلَفِ وَالخَلَفِ، توفي لَيلَةِ الخَمِيسِ ثَالِثَ عَشَرَ رَجَبٍ وقت أذان العشاء سنة إحدىٰ وخمسين وسبعمائة (٧٥١هـ)، وَكَانَت جِنَازَتُهُ حَافِلَةً رَحِمَهُ اللَّهُ، شَهِدَهَا القُضَاةُ وَالأَعيَانُ وَالصَّالِحُونَ مِنَ الخَاصَّةِ وَالعَامَّةِ، وَكَمَلَ لَهُ مِنَ العُمرِ سِتُّونَ سَنَةً رَحِمَهُ اللَّهُ.

انظر ترجمته في: «المعجم المختص للذهبي» (ص٢٦٩)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٢٧٠-إحياء التراث)، و«أعيان العصر وأعوان النصر» للصفدي (٤/ ٣٦٦-٣٧٠)، و«ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٥/ ١٧٠-١٧٩).

(١) هو الشيخ الإمام العالم الحافظ المفيد البارع عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ابن ضوء بن كثير بن ذرع البصروي الأصل الدمشقي الشافعي، ولد في سنة إحدىٰ وسبعمائة (٧٠١هـ)، وتفقه بالشيخ برهان الدين الفزاري وغيره وسمع ابن السويدي والقاسم بن عساكر وخلقًا، وصاهر الحافظ المزي فأكثر عنه، وَأخذ عَن ابن تَيمِية وامتحن لسببه، وأفتىٰ ودرس وناظر وبرع في الفقه والتفسير والنحو، وأمعن النظر في الرجال والعلل، وله تصانيف مفيدة، منها كتاب «التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل»، وكتاب «البداية والنهاية» في أربعة وخمسين جزءًا، وكتاب «الهدي والسنن في أحاديث المسانيد والسنن» جمع بين «مسند الإمام أحمد»، و«البزار»، و«أبي يعلىٰ»، و«ابن أبي شيبة» إلىٰ الكتب الستة وله غير ذلك. توفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة (٧٧٤هـ).

«المعجم المختص» للذهبي (٧٤-٧٥)، و«ذيل تذكرة الحفاظ» للحسيني (٣٨-٣٩)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (١/ ٤٤٥-٤٤٦).

والذهبيُّ[١]، والمزِّيُّ[٢].

وجاء بعدهم ابنُ رجب الحنبلي[٣]، إلىٰ أن وصل الأمر إلىٰ الشيخ الإمام

---

(١) هو الحافظ الناقد المقرئ محَمَّدُ بنُ أَحمَدَ بنِ عُثمَانَ بنِ قَايمَازَ ابنِ الشَّيخِ عَبدِ اللهِ التُّركُمَانِيُّ الفَارِقِيُّ ثُمَّ الدِّمَشقِيُّ الشَّافِعِيُّ، وُلِدَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسَبعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ (٦٧٣هـ).
اشتغل بالقرآن أول أمره وتقدم في علم القراءات، ثم انصرف إلىٰ الحديث وعلومه واهتم به اهتمامًا خاصًّا، وأخذ عن شيوخ بلده، وعن غيرهم، حتىٰ رسخ في علم الجرح والتعديل وصار واحد زمانه والمشار إليه فيه.
من تصانيفه: «ميزان الاعتدال في نقد الرجال، والمغني في الضعفاء، وديوان الضعفاء والمتروكين، وتذهيب التهذيب، وتلخيص مستدرك الحاكم، واختصار السنن الكبرىٰ للبيهقي، وتاريخ الإسلام وسير أعلام النبلاء، والمنتقىٰ من منهاج السنة النبوية». وغيرها كثير.
توفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ثمان وأربعين وسبعمائة (٧٤٨هـ). انظر لترجمته: «المعجم المختص» (ص٩٧)، «فوات الوفيات» لابن شاكر (٣/ ٣١٥-٣١٧)، و«أعيان العصر» (٤/ ٢٨٨-٢٩٦) و«ذيل تذكرة الحفاظ» (٢٢-٢٣)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٩/ ١٠٠-١٢٣).

(٢) جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الملك بن يوسف القضاعي ثم الكلبي الحلبي، ثم الدمشقي المزي الشافعي، ولد سنة أربع وخمسين وستمائة (٦٥٤هـ)، كان مع تبحره في علم الحديث رأسًا في اللغة العربية والتصريف، وله مشاركة جيدة في الفقه وغيره، ذا حظ من زهد وتعفف، ويقنع باليسير، وقد شهد له بالإمامة جميع الطوائف، وأثنىٰ عليه الموافق والمخالف.
من تصانيفه: «تهذيب الكمال في أسماء الرجال، وتحفة الأشراف بمعرفة الأطراف» وغيرهما.
توفي سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة (٧٤٢هـ).
انظر لترجمته: «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٤/ ١٩٣-١٩٤)، و«أعيان العصر» (٥/ ٦٤٤-٦٥٧)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (١٠/ ٣٩٥-٤٣٠).

(٣) هو الإمام الحافظ الحجة والفقيه العمدة، أحد العلماء الزهاد والأئمة العباد، أبو الفرج

المجدد محمدِ بنِ عبد الوهاب، فتلقىٰ هذه العقيدة بقوة، وقام بالدعوة إليها، والجهاد في سبيلها، حتىٰ استنارت بها هذه البلاد -ولله الحمد-، وامتدت إلىٰ البلاد المجاورة: مصر والشام والعراق حتىٰ بلاد فارس عند أهل السنة منهم، كما امتدت إلىٰ الهند والمغرب -ولله الحمد-، ومن أراد الله له الخير؛ فإنه تأثر بهذه الدعوة المباركة، وعرف أنها دعوة حق، فاستجاب لها وأيَّدها، وقامت الحجة علىٰ المعاندين -ولله الحمد والمنة-، وزالت عن البلاد معالم الشرك والوثنية، وعوائد الجاهلية[1].

* * *

=

عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن عبد الرحمن بن الحسن بن محمد بن أبي البركات مسعود البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، ولد سنة ست وثلاثين وسبعمائة (٧٣٦هـ)، له المؤلفات السديدة والمصنفات المفيدة، منها شرح علىٰ «صحيح البخاري» لم يكمل وصل فيه إلىٰ كتاب الجنائز، وعلىٰ الجامع للحافظ أبي عيسىٰ الترمذي، وذيل علىٰ كتاب «طبقات الفقهاء الحنابلة» للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلىٰ الفراء، وشرح «الأربعين النووية».

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة خمس وتسعين وسبعمائة (٧٩٥هـ).

انظر لترجمته: «إنباء الغمر» لابن حجر (١/ ٤٦٠-٤٦١)، و«شذرات الذهب في أخبار من ذهب» لابن العماد الحنبلي (٨/ ٥٧٨-٥٨٠)، و«المنهل الصافي» لابن تغري بردي (٧/ ١٦٣-١٦٤)، و«المقصد الأرشد» لابن مفلح (٢/ ٨١-٨٢)، و«لحظ الألحاظ» لابن فهد المكي (١١٨-١١٩).

(١) انظر: «روضة الأفكار والأفهام» لحسين بن غنام، تقريب ناصر الدين الأسد (٨١-٩١) ومات بعدها، و«عنوان المجد في تاريخ نجد» لعثمان بن بشر (١/ ٣٣-١٩٩).

مقدمة المؤلف

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ- في مقدمة رسالته «مسائل الجاهلية»: «هَذِهِ أُمُورٌ خَالَفَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا عَلَيهِ أَهلُ الجَاهِلِيَّةِ الكِتَابِيِّينَ وَالأُمِّيِّينَ، مِمَّا لَا غِنَىٰ لِلمُسلِمِ عَن مَعرِفَتِهَا.

فَالضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضِّدُّ وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشيَاءُ

فَأَهَمُّ مَا فِيهَا وَأَشَدُّهَا خَطَرًا: عَدَمُ إِيمَانِ القَلبِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَإِنِ انضَافَ إِلَىٰ ذَلِكَ استِحسَانُ مَا عَلَيهِ أَهلُ الجَاهِلِيَّةِ تَمَّتِ الخَسَارَةُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت:٥٢].

الشرح:

إن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما يذكرُ هذه المسائلَ المخالفةَ لنهج الإسلام وأحكامه، من حلال وحرام، لا يعنىٰ أن يقيدَها بزمن دون زمن؛ فكل من خالف الرسلَ والأنبياءَ في أي زمان، وحكَّم العاداتِ والقوانينَ والأوضاعَ والتوجهاتِ المخالفةَ لشريعة الإسلام: فقد اختار الجاهليةَ علىٰ الإسلام، لذا تجد أن هذه المسائلَ:

منها: ما هو من أعمال اليهود والنصارىٰ.

ومنها: ما هو من أعمال الوثنيين.

ومنها: ما هو من أعمال الأمم المشركة.

ومنها: ما هو من أعمال تابعيهم في الشرك والشر والبدع، كما ستراه في المسائل المسماةِ بمسائل الجاهلية -إن شاء الله-.

* * *

المَسألَةُ الأُولَىٰ: أَنَّهُم يَتَعَبَّدُونَ بِإِشرَاكِ الصَّالِحِينَ فِي دُعَاءِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ، يُرِيدُونَ شَفَاعَتَهُم عِندَ اللهِ؛ لِظَنِّهِم أَنَّ اللهَ يُحِبُّ ذَلِكَ، وَأَنَّ الصَّالِحِينَ يُحِبُّونَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

وَهَذِهِ أَعظَمُ مَسأَلَةٍ خَالَفَهُم فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَتَىٰ بِالإِخلَاصِ، وَأَخبَرَ أَنَّهُ دِينُ اللهِ الَّذِي أَرسَلَ بِهِ جَمِيعَ الرُّسُلِ، وَأَنَّهُ لَا يَقبَلُ مِنَ الأَعمَالِ إِلَّا الخَالِصَ، وَأَخبَرَ أَنَّ مَن فَعَلَ مَا استَحسَنُوا فَقَد حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الجَنَّةَ وَمَأوَاهُ النَّارُ.

وَهَذِهِ هِيَ المَسأَلَةُ الَّتِي تَفَرَّقَ النَّاسُ لأَجلِهَا بَينَ مُسلِمٍ وَكَافِرٍ، وَعِندَهَا وَقَعَتِ العَدَاوَةُ؛ وَلأَجلِهَا شُرِعَ الجِهَادُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

الشرح:

المسألة الأولىٰ: أن الجاهليين كانوا يتعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته، يريدون شفاعتهم عند الله؛ لظنهم أن الله يحب ذلك، وأن الصالحين يحبونه، وهذا هو الشرك الأكبر، حيث أشركوا مع الله من زعموا أنهم يقربونهم إليه زلفىٰ؛ فساء حالهم، وفسد ظنهم، وكذبوا في ذلك وضلوا سواء السبيل، فالله ﷻ الذي لا شريك له في ملكه، هو الذي لا شريك له في عبادته، وهو المستحق لأن يعبد وحده دون سواه، ومن أشرك معه غيره في عبادة من العبادات؛ فهو مشرك كافر إن مات علىٰ ذلك، بأن مات علىٰ الكفر الأكبر والشرك الأكبر، أو

النفاق الاعتقادي.

وحجة أولئك المشركين في عهد النبوة في غلوِّهم في الصالحين وعبادتهم لأصنامهم وأوثانهم، حجتهم في ذلك أنهم يقولون: ليكونوا لنا شفعاء ويقربونا إلىٰ الله زلفىٰ، فخالفهم نبيُّنا ﷺ كما أوحىٰ اللهُ إليه بوجوب الإخلاص في العمل والصواب فيه، ففعلُ الجاهليين هذا -وهو الغلو في الصالحين- ليس بصواب؛ بل هو شركٌ يسببُ الخسرانَ والتبابَ؛ لأنه مخالفٌ لأمر الله وأمر رسوله، وليس فيه شيءٌ من الإخلاص؛ لأنهم جعلوا مع الله شركاءَ لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا جلب مصلحة أو دفع ضر، فأخبر اللهُ عنهم بقوله الحق: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

أي: قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلىٰ الله قربةً ودرجاتٍ، فأكذبهم اللهُ ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾؛ لأن دعواهم هذه دعوىٰ كاذبة، ولأن فعلهم وعملهم كفر أكبر يخرج من ملة الإسلام، وأمرَ الله بالإخلاص ردًّا عليهم فقال ﷻ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾.

وقال -تبارك وتعالىٰ-: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:١١].

وقال -عز شأنه-: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر:١٤].

وقال سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

فدين الله الذي أرسل به جميع الرسل، وأخبر بأنه لا يقبل دينًا سواه، ولا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا، وهو الذي يجب اتباعه والالتزام به التزامًا دائمًا، حتىٰ يأتي العبدَ اليقينُ من رب العالمين، ويجب الاعتصام به اعتصامًا ظاهرًا وباطنًا؛ لنيل الرضا من أحسن الخالقين.

وهذه المسألة توارثها المشركون في كل زمان ومكان، فعُبَّاد الصالحين في هذا العصر -أعني: عصر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، وما قبله، وما بعده في العالم الإسلامي-: هم كلُّ من غلا في الصالحين، وطاف بأضرحتهم، واستغاث بهم، وطلب منهم جلب مصلحة أو دفع مضرة؛ فلا فرق إذن بينهم وبين أهل الجاهلية الأولىٰ، الذين واجههم نبينا محمد ﷺ بالدعوة المباركة دعوة التوحيد، فأبوا إلا أن يكونوا كما كان عليه آباؤهم وأسلافهم الأوائل، من الإشراك بالله والكفر به، إلا من استجاب لدعوة الهدىٰ، فاهتدىٰ وهدىٰ؛ طاعةً لله ومتابعةً لرسول الله الذي جاءنا بالبينات والهدىٰ من عند الله.

والحقيقة: أن من انقاد لتوحيد الله ودينه الخالص فهو المؤمن، وموعده الجنة كما وعد الله بذلك أهل الإيمان في نصوص القرآن، وأما من أشرك مع الله بغلوه في الصالحين، أو غير ذلك من ضروب الشرك، فمأواه النار، وبئس المصير والقرار.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه المسألة التي تَفَرَّق الناس من أجلها بين مؤمن وكافر، وعندها وقعت العداوة، ولأجلها شُرع الجهاد».

قلت: وهذا حق دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، فالمخلص لله ﷻ مسلم مؤمن، فمن حقق التوحيد وتجنب الشرك بجميع صوره فهو المسلم، وأهل الغلو في الصالحين الذين عبدوا غير الله، وطلبوا من معبوداتهم جلبَ المصالح ودفعَ الضر، وعلقوا قلوبهم بهم؛ هؤلاء هم الكفار حقًّا، ومن مات علىٰ ذلك فمأواه النار وبئس القرار.

ولا شك أن العداوة حصلت بين النبي ﷺ وجميع أتباعه، وبين المشركينَ أتباع ومتبوعينَ، فأما عداء المؤمنين لأولئك الكافرين؛ فهو عداء شرعي أوجبه

الله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١] الآيات.

فحرَّم اللهُ علينا مودتهم ومحبتهم ومجاملتهم، التي لا يقرها الشرع المطهر، وأوجب اللهُ علينا أن نظهرَ لهم العداوةَ، وأن نبغضَهُم في الله، ومن أجل الله؛ لأنهم أعداءُ الله، وأعداءُ رسوله ﷺ، وأعداء المؤمنين، وبعد مُضي سنوات معلومة بعد البعثة النبوية، شُرِع الجهادُ في المدينة النبوية، لما قويت شوكة دولة الإسلام الكريمة، وكان الحرب سِجالًا بين أولياء الله -وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ، ومعه المهاجرون والأنصار، الذين باعوا أنفسهم لله -تبارك وتعالىٰ-، فربح البيع؛ فالمقتول منهم شهيد موعده الجنة، والسالم منهم ظافر بإحدىٰ الحسنيين؛ بالغنيمة والظفر، وشفاء الصدور من أولئك الأعداء، حتىٰ علت كلمة الحق ورفرفت راية الإسلام علىٰ جُلِّ المعمورة، كل ذلك بفضل الله وإعانته، ثم بجهود النبي الكريم -عليه الصلاة والسلام-، ومن معه من الصحابة الكرام، رضوان الله عليهم أجمعين.

ونشهد الله علىٰ محبتهم، والاعتراف لهم بالفضل في جهادهم العظيم، والفضل في نقلهم إلينا علوم الوحيين الكريمين، كتاب الله الكريم وسنة أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، محمد بن عبد الله، الصادق المصدوق الأمين، عليه من ربه أزكىٰ صلاة وأتم تسليم.

* * *

الثَّانيةُ: أَنَّهُم مُتَفرِّقُونَ فِي دِينِهِم، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم:٣٢].

وَكَذَلِكَ فِي دُنيَاهُم، وَيَرَونَ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الصَّوَابُ، فَأَتَىٰ بِالاجتِمَاعِ فِي الدِّينِ بِقَولِهِ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وَنَهَانَا عَن مُشَابَهَتِهِم بِقَولِهِ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [آل عمران:١٠٥].

وَنَهَانَا عَنِ التَّفَرُّقِ فِي الدُّنيَا بِقَولِهِ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

الشرح:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المسألة الثانية: أنهم متفرقون في دينهم»، نعم الكفار متفرقون في دينهم، يعبدون معبودات شتىٰ، ويجتمعون في الإشراك بالله والكفر به، وعند تفرقهم في معبوداتهم لأصنامهم: كلٌّ يرىٰ بأنه محق وغيره المبطل، كما قال الله: ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٣].

والحق أن الشرع هو ما شرعه الله، والدين هو الذي أنزله الله، وكلف به عالمَ الإنس والجن كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾، وهو توحيد الله وترك عبادة ما سواه.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ أي: إلىٰ محمدﷺ، والذي أوحاه الله إليه هو دين الإسلام، وفي مقدمة ذلك: الإخلاص لله وحده دون سواه، ونبذ ما كان يُعبد في الجاهلية من دون الله.

﴿وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾؛ وهؤلاء هم صفوة الرسل والأنبياء، وهم أولو العزم -عليهم الصلاة والسلام-، وأفضلهم محمدﷺ، أوصاهم جميعًا بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، فأما الرسل وأتباعهم؛ فإنهم أقاموا الدين ولم يتفرقوا فيه، وأما الكفار من أتباع ومتبوعين؛ فإنهم فرقوا دينهم وكانوا شيعًا.

وأخبر الله -تبارك وتعالىٰ- أنهم ليسوا من المسلمين، وليسوا من أتباع رسول اللهﷺ، وليسوا من الدين في شيء كما في قوله: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِى شَىۡءٍ﴾، وحذَّر الله المؤمنين من التشبه بهم في الغلو في الصالحين وتقديسهم، ورفعهم فوق منازلهم، فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [آل عمران:١٠٥].

وأمر الله الأمة بالاعتصام بحبله وعدم التفرق في قوله الحق: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران:١٠٣]؛ أي: تمسكوا بدين الإسلام، فهو حبل الله المتين، والتزموا به، واعملوا بمقتضاه؛ فذلك طريق السعادة وسبيل النجاة، وما عداه مما عليه أهل الجاهلية في عهد النبوة، وما كان قبلها، أو فيما بعدها، مما هو علىٰ نهجها، فهو طريق الشقاء، وطريق الهلاك، في الدنيا والبرزخ والآخرة.

والحمد لله الذي أنار لنا المحجة، ووفقنا للاعتصام بها عقيدة وشريعة، وأقام الحجة بالمحجة علىٰ كل عدو لله ولرسله والمؤمنين.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مُخَالَفَةَ وَلِيِّ الأَمرِ وَعَدَمَ الانقِيَادِ لَهُ فَضِيلَةٌ، وَالسَّمعُ وَالطَّاعَةُ لَهُ ذُلٌّ وَمَهَانَةٌ، فَخَالَفَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَ بِالصَّبرِ عَلَىٰ جَورِ الوُلَاةِ، وَأَمَرَ بِالسَّمعِ وَالطَّاعَةِ لَهُم وَالنَّصِيحَةِ، وَغَلَّظَ فِي ذَلِكَ وَأَبدَىٰ فِيهِ وَأَعَادَ.

وَهَذِهِ الثَّلَاثُ هِيَ الَّتِي جَمَعَ بَينَهَا فِيمَا صَحَّ عَنهُ فِي الصَّحِيحَين أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرضَىٰ لَكُم ثَلاثًا: أَن تَعبُدُوهُ وَلَا تُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَأَن تَعتَصِمُوا بِحَبلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَن تُنَاصِحُوا مَن وَلَّاهُ اللهُ أَمرَكُم»، وَلَم يَقَع خَلَلٌ فِي دِينِ النَّاسِ وَدُنيَاهُم إِلَّا بِسَبَبِ الإِخلَالِ بِهَذِهِ الثَّلَاثِ أَو بَعضِهَا.

الشرح:

المسألة الثالثة: ومن مسائلهم؛ أي: الجاهلية: مخالفة ولي الأمر في الجاهلية والإسلام، ولا يستغرب منهم ذلك؛ فقد خالفوا النبي ﷺ أفضل العالمين، وإمام المرسلين، وخير خلق الله أجمعين، خالفته الجاهلية الأولىٰ؛ لأنه جاء يدعوهم إلىٰ الله، ويدعوهم إلىٰ الجنة، وهم يدعون أنفسهم وأتباعهم إلىٰ النار؛ فيرون أن طاعة ولي الأمر، فيها إذلال لهم وإهانة، وهم أهل الكبرياء، وأهل الحمية الجاهلية، التي ذمهم الله بها، بخلاف أهل الإيمان، فإنهم أهل طاعة وانقياد لله ﷻ، ولرسوله -عليه الصلاة والسلام-، ولولي الأمر من المسلمين في المعروف.

فيعتبرون السلطان في الأرض رحمة؛ لأن الله ﷻ يُؤَمِّن به البلاد والعباد، ويقيم به الحدود، وتقام به الشعائر من صلوات جمعة وجماعة والأعياد، والحج وغير ذلك من شعائر الله، التي أوجبها علىٰ عباده، كل ذلك يكون بفضل الله، ثم بوجود السلطان، سواء علىٰ دولة الإسلام كلها، أو سلطان في إقليم من الأقاليم.

فقد أوجب الله ﷻ طاعته، وجعل بيعته بيعة حق علىٰ كتاب الله وسنة رسول الله

-عليه الصلاة والسلام-، في حدود القدرة والاستطاعة، فتُجلبُ به المصالحُ ويدفعُ به الضرر.

وكم من آية كريمة جاءت في كتاب الله، تأمر بطاعة الوالي المسلم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء:٥٩].

وأمر النبيﷺ بطاعة ولي الأمر المسلم علىٰ أي حال ما لم يكن في معصية الله، قالﷺ: «**اسمع وأطع وإن ضُرب ظهرك وأُخذ مالك**»(١).

(وهذه المسائل الثلاث) كما قال المصنف: (هي التي جمع بينها)ﷺ فيما صح عنه في الصحيح أنه قال: «**إن الله يرضىٰ لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا**». وذلك حقيقة التوحيد وترك الشرك؛ فلا يتحقق التوحيد إلا بنبذ الشرك والمشركين.

«**وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا**».

والاعتصام بحبل الله، هو التمسك به والاجتماع علىٰ الحق المبين، والحذر من التفرق تشبهًا بالكافرين والمبتدعين والكافرين.

«**وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم**»(٢)؛ نصيحة شرعية فيها ستر علىٰ السلطان المسلم، وفيها حكمة ولها غاية، ومن ورائها غرض شريف، فمن أتىٰ بهذه الثلاث علىٰ وجهها فقد سلك طريق الرسل والأنبياء والتابعين لهم بإحسان، ومن أخل بها فقد جانب الصواب وعدل عن طريق المنعم عليهم إلىٰ طرائق المنحرفين، ولا يستقيم للعباد أمر دينهم ودنياهم إلا بالقيام بها دون خلل.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٧) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٣٨٨)، وأبو عوانة في مسنده (٦٣٨٥-٦٣٨٧)، ومالك في موطئه (٢/ ١٧٩٦)، وأحمد في مسنده (٨٧٩٩-الرسالة).

الرَّابِعَةُ: أَنَّ دِينَهُم مَبنِيٌّ عَلَىٰ أُصُولٍ أَعظَمُهَا: التَّقلِيدُ، فَهُوَ القَاعِدَةُ الكُبرَىٰ لِجَمِيعِ الكُفَّارِ أَوَّلِهِم وَآخِرِهِم، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان:٢١].

فَأَتَاهُم بِقَولِهِ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ الآيَة [سبأ:٤٦].

وَقَولِهِ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣].

الشرح:

المسألة الرابعة: هذه المسألة فيها بيان أن أهل الجاهلية أهل تقليد، وأنهم لم يعرفوا شيئًا مما أنزل الله ﷻ علىٰ رسله من الوحي، ولا يحبون أن يعرفوا شيئًا من ذلك بسبب إعراضهم، كما قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٠-٢٣].

فحالة الكفار وشأنهم: الإعراض عما جاء به المرسلون، والإعراض عما جاء به ورثة المرسلين، أعني: العلماء الربانيين.

وكأن الشيخ يشكو أهل زمانه، بسبب عدم استجابتهم لدعوته، التي هي دعوة الرسول -عليه الصلاة والسلام-، بدون زيادة ولا نقصان.

وكان من مسائل الجاهلية التي خالفهم فيها ذلكم الإمام وكل موحد، أن دينهم مبني علىٰ التقليد؛ لأنه من قواعدهم الكبرىٰ، التي خالفوا بها وورثها اللاحق عن السابق، فسجل الله -تبارك وتعالىٰ- جهلهم كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ [الزخرف:٢٣]؛ أي: المنعمون فيها والسادة.

﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾؛ يعني: علىٰ ملة وطريقة، وهي ملة الكفر وطريقته.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ أي: مقلدون آباءهم في الكفر والضلال والبدع، التي ما أنزل الله بها من سلطان، وأعظمُها شرًّا وشؤمًا بدعةُ الشرك الأكبر، وهكذا الشرك الأصغر، والبدع المحدثة، والرذائل وكبائر الذنوب، وغيرها من أمور الجاهلية اللاحق منهم والسابق، فقصَّ الله خبرهم تنفيرًا من أعمالهم الفاسدة، التي من أهمها وأعظمها: تقليدُ الآباء والأجداد فيما سبق ذكره، وكان الواجب عليهم أن ينقادوا لدعوة المرسلين، وكل من دعا بدعوة المرسلين، من علماء هذه الملة المحمدية.

ولقد بيَّن الله هذا الأصل الفاسد بيانًا شافيًا في القرآن الكريم؛ ردًّا عليهم وبيانًا لجهلهم وإظهارًا لأخطائهم فقال ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾؛ أي: للكفار، ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [البقرة:١٧٠]؛ أي: كفروا بما أنزل الله، وأعرضوا عنه، وعمن جاء به، وقلَّدوا آباءهم في كفرهم الأكبر وشركهم الأعظم، قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان:٢١].

وحقًّا إن دعوة الشيطان في كل زمان ومكان، تصد الناس عن سبيل الله، وتدعوهم إلىٰ عذاب السعير، وتزحزحهم عن أمر الله الذي يترتب عليه رضاه

وثوابه، وقال الله ﷻ: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ [سبأ:٤٦].

أمرهم بالاستجابة لله، والعبادة له، واتباع ما أنزله، والاقتداء بما جاء به المرسلون، وأرشدهم أن يتفكروا؛ لأن الله أعطاهم العقول، فيتفكروا ويتأملوا فيما جاءهم به النبي محمدﷺ، ذلكم النبي الكريم، والناصح الأمين، الذي أرسله الله ليخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور، فاتهمه أولئك الكفار بالجنون وغيره.

فقد اتهموه تارة بالسحر، وتارة بالكهانة، وتارة بالكذب، وفضحهم الله ﷻ، ورد كيدهم في نحورهم، قال ﷻ: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ:٤٦].

وأمرهم جميعًا أن يؤمنوا به، ويتبعوا ما أنزل الله إليهم من كتاب وسنة، ونهاهم أن يتبعوا شيئًا من دون الله ﷻ حيث قال: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الأعراف:٣]؛ أي: تصرفون لهم شيئًا من العبادات.

﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾؛ أي: تذكركم قليل؛ لأنهم لا عقول لهم تميز بين الضار والنافع؛ وإنما لهم عقول تقوم بها حجة الله عليهم.

* * *

الخَامِسَةُ: أَنَّ مِن أَكبَرِ قَوَاعِدِهِم الاغتِرَارُ بِالأَكثَرِ، وَيَحتَجُّونَ بِهِ عَلَىٰ صِحَّةِ الشَّيءِ، وَيَستَدِلُّونَ عَلَىٰ بُطلَانِ الشَّيءِ بِغُربَتِهِ وَقِلَّةِ أَهلِهِ، فَأَتَاهُم بِضِدِّ ذَلِكَ وَأَوضَحَهُ فِي غَيرِ مَوضِعٍ مِنَ القُرآنِ.

الشرح:

المسألة الخامسة: أن من أكبر قواعد الجاهليين، علىٰ اختلاف نحلهم ومعبوداتهم، الاغترار بالأكثر؛ أي: يحتجون بالكثرة لصحة ما يريدون ويعتقدون، وبالمقابل يستدلون علىٰ بطلان الشيء بقلة أهله، والله ﷻ بين بطلان ذلك بقوله الحق: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]. وبقوله: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام:١١٦].

فبيَّن سبحانه أن الكثرة هم أهل الباطل، والقلة هم الذين اتبعوا المرسلين هم أهل الحق.

وإذ كان الأمر كذلك، فلا يجوز لأحدٍ أن يغتر بكثرة الهالكين وقلة السالكين، فيما يتعلق بشأن الحق والباطل؛ بل عليه أن يتبع الحق، وإن قلَّ أهله وقلَّ دعاته في كل زمان ومكان، وأن يجتنب الباطل مهما كثر أهله ومروِّجوه، فإن الحق أحق أن يتبع، والباطل أحق أن يجتنب، بخلاف ميزان أهل الجاهلية المأخوذ عن آبائهم وأجدادهم، الذين اجتالتهم الشياطينُ عن فطرة الله التي فطر الناس عليها.

ومن غير شك: أن شفاء أمراض القلوب والعقول في الوحي الذي جاء به المرسلون، الذين خُتِموا بنبينا محمد ﷺ، الذي أنزل الله عليه الفرقان تبيانًا لكل شيء وهدىٰ وبشرىٰ للمسلمين، فيه شفاء لما في الصدور لمن آمن به واتبع أحكامه، ولم يبدل تبديلًا، أما من أعرض عنه فإن الله يوليه ما تولىٰ، وسيصليه جهنم، وساءت مصيرًا.

والخلاصة: أنه يجب أن يعلم المكلف أنه لا عبرة بالكثرة في إصابة الحق، كما هو منهج الجاهلية الفاسد، وإنما العبرة بأدلة الحق وإن قلَّ العاملون بها، قال ﷻ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف:٢٩].

وقال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣].

* * *

السَّادِسَةُ: الاحتِجَاجُ بِالمُتَقَدِّمِينَ كَقَولِهِ: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١].
﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤].

الشرح:

المسألة السادسة: احتجاج أهل الجاهلية في كل زمان ومكان بمن سبقهم علىٰ الغي والضلال والإشراك بالكبير المتعالي، وهذا واضح في احتجاج فرعون علىٰ موسىٰ عليه السلام، حينما دعاه إلىٰ اتباع الحق وترك الباطل، فكان الجواب من فرعون عليه، ما قصه الله علينا: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢].

ونظير قول فرعون لموسىٰ عليه السلام: قول كفار قريش لمحمد ﷺ، حينما دعاهم إلىٰ التوحيد، وأتاهم بأدلته، ونهاهم عن الشرك كذلك، فقالوا ما قصه الله علينا بقوله: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤].

فاحتجوا بما كان عليه آباؤهم من الشرك والضلال، وردوا دعوة الحق التي فيها إخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، فساء حالهم ومآلهم.

* * *

السَّابِعَةُ: الاستِدلَالُ بِقَومٍ أُعطُوا قُوًى فِي الأَفهَامِ وَالأَعمَالِ وَفِي المُلكِ وَالمَالِ وَالجَاهِ، فَرَدَّ اللهُ ذَلِكَ بِقَولِهِ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ الآيَةَ [الأحقاف:٢٦].

وَقَولِهِ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩].

وَقَولِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ الآيَةَ [البقرة:١٤٦].

الشرح:

المسألة السابعة: أي من مسائل الجاهلية: استدلال الكفار بقوم أُعطوا قوىً في الأفهام والأعمال وفي الملك والمال، استدلال باطل؛ فقد رد الله -تبارك وتعالىٰ- عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾؛ أي: فيما ما مكناكم فيه.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦]؛ أي: مهما كان القوم أهل أفهام وأعمال وجاه وقوىً، وهم لم يستجيبوا لرسل الله الكرام وأنبيائه العظام، فلا قيمة لهم، ولا وزن لقواهم وجاههم وكثرتهم، مع إعراضهم عن دعوة المرسلين وكفرهم بالله العظيم.

وقد بين الله -تبارك وتعالىٰ- موقف اليهود في المدينة مع خصومهم الأوس والخزرج أيام جاهليتهم، فقد كانوا يقولون: إنه سيبعث نبي فإذا بعث قاتلناكم معه، ولما بعث النبي محمد ﷺ كفروا به لأنه من العرب[1]، فذمهم الله ﷻ، وبين

---

(١) انظر: «مسند أحمد» (١٥٨٤١-الرسالة)، و«سيرة ابن إسحاق» طه عبد الرءوف (١/ ١٩٥) و(٢/ ١٤٠-١٤١)، و«تفسير الطبري» (٢/ ٣٣٣-٣٣٦).

معتقدهم الفاسد بقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩]؛ أي: أبعدهم وطردهم من رحمته لكفرهم وكذبهم، وهكذا بقية أصناف الكفار، رغم كثرتهم وقوتهم فقد رد الله حججهم؛ لأنها حجج باطلة داحضة، لا تغني عنهم شيئًا.

والخلاصة: ليست الكثرة دليلًا علىٰ أن الحق معهم وهم علىٰ الباطل، كما هو معتقد أهل الجاهلية؛ بل الدليل علىٰ الحق هو البراهين من الكتاب والسنة، وهي موجودة في القرآن الكريم، كقصة قوم هود وقوم صالح، وغيرهم من الأمم الكثيرة الكافرة، التي ما أغنت عنها قوتها وكثرتها عندما كفروا بربهم، وعصوا رسله؛ بل أخذهم الله بأليم عذابه جزاءً وفاقًا.

* * *

الثَّامِنَةُ: الاستِدلَالُ عَلَىٰ بُطلَانِ الشَّيءِ بِأَنَّهُ لَم يَتَّبِعهُ إِلَّا الضُّعَفَاءُ؛ كَقَولِهِ: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١].

وَقَولِهِ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ فَرَدَّه اللهُ بِقَولِهِ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣].

الشرح:

المسألة الثامنة: أي من مسائل الجاهلية الذميمة، هي استدلالهم علىٰ بطلان الشيء وضعفه، بأنه لم يتبعه إلا الضعفاء لا الأقوياء، كما قال الله ﷻ عن قوم نوح في محاجتهم له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ الآيات، ولما قالت قريش: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ رد الله بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣].

فاعتبروا الدليل علىٰ الحق اتِّبَاع الأقوياء له لا الضعفاء، والعكس بالعكس، وذلك كما يرىٰ العقلاءُ ميزانَ الحمقىٰ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

* * *

التَّاسِعَةُ: الاقتِدَاءُ بِفَسَقَةِ العُلَمَاءِ وَالعُبَّادِ فَأَتَىٰ بِقَولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٤].

وَبِقَولِهِ: ﴿لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧].

الشرح:

المسألة التاسعة: اقتداء الجهال بفسقة علماء السوء وجُهَّال العباد، وقد بيَّن الله -تبارك وتعالىٰ- هذه المسألة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ﴾ [التوبة:٣٤]؛ يعني: العلماء، وغالبًا يطلق علىٰ علماء اليهود.

﴿وَٱلرُّهْبَانِ﴾؛ يعني: العباد وهذا في الغالب يطلق علىٰ عباد النصارىٰ.

﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جمعوا بين شَرَّيْن: شر يتعلق بحق الله، وشر يتعلق بحق الناس.

وقد حذرهم الله ﷻ من الغلو في الأحبار والرهبان، وغيرهم من الصالحين، والذين يدَّعون بأنهم صالحون، وحذرهم من فسقة العلماء والعباد بقوله: ﴿لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧].

أمرهم أن يستقيموا علىٰ الحق ولا يتجاوزونه؛ لأن الغلو هو: مجاوزة الحد.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: ضلوا هم في أنفسهم.

﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾؛ أي: أضلوا غيرهم بتركهم الحق إلىٰ الباطل، وضلوا هم عن سواء السبيل وعن الصراط المستقيم.

العَاشِرَةُ: الاستِدلَالُ عَلَىٰ بُطلَانِ الدِّينِ بِقِلَّةِ أَفهَامِ أَهلِهِ وَعَدَمِ حِفظِهِم كَقَولِهِم: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود:٢٧].

الشرح:

المسألة العاشرة: أن أولئك الجاهليين يستدلون علىٰ بطلان الدين، بقلة أفهام بعض أهله وعدم حفظهم، كقولهم لنوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾؛ أي: الذين ليس عندهم فهم، فيعيِّرون أتباع الرسل بأنهم ليس عندهم فهم للأمور ولا بعد نظر؛ لينفروا الناس عن دعوتهم المنيرة ذات العاقبة الحميدة، وهذا كلام باطل؛ لأن أهل النفاق هم الذين لا يفهمون، ولو فهموا وصدقوا ظاهرًا وباطنًا، لاتبعوا الأنبياء والرسل، ومن سار علىٰ طريقتهم من أولي النهىٰ.

وهكذا تكررت تلك المقالة من قوم هود لهود عليه السلام حيث قالوا له: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾.

والخلاصة: أن اتهام أتباع الرسل الكرام والأنبياء العظام بالضعف في الرأي: اتهامٌ للدين وتنقصٌ له، ومن سلك هذا الطريق، الذي سلكه أولئك -من عدم احترام الرسل وما جاءوا به، وأتباعهم الأبرار-: فقد تشبه باليهود والكفار وأهل الجهل الفجار، فليحذر المسلم العاقل عن مشابهتهم؛ إذ إن من تشبه بقوم فهو منهم[1].

* * *

(١) ورد ذلك في حديث أخرجه أحمد (٢/ ٥٠-الميمنية)، وأبو داود (٤٠٣١). وجود إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٦٩-العقل).

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: الاستِدلَالُ بِالقِيَاسِ الفَاسِدِ كَقَولِهِم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم:١٠].

الثَّانِيَةَ عَشرَةَ: إِنكَارُ القِيَاسِ الصَّحِيحِ، وَالجَامِعُ لِهَذَا وَمَا قَبلَهُ عَدَمُ فَهمِ الجَامِعِ وَالفَارِقِ.

الشرح:

المسألة الحادية عشرة والثانية عشرة: الاستدلال بالقياس الفاسد، فكل أقيسة الكفار فاسدة، وأنهم اتبعوا فيها إبليس الذي قاس قياسًا فاسدًا؛ حيث قال لما أمره الله بالسجود لآدم: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص:٧٦].

فقد زعم أن النار خير من الطين، فيكون هو خيرًا من آدم، وهذا قياس فاسد؛ لأن النار محرقة متلفة للأشياء، بخلاف الطين فهو ينبت الزرع والشجر، فيكون آدم خيرًا من إبليس، والكفار شابهوا إبليس في قياسه الفاسد حيث قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

فقد استدلوا علىٰ فساد رسالة الأنبياء ببشريتهم، وأن رسالتهم لا تصح لأنهم بشر مثلنا، وهذا قياس فاسد وباطل؛ لأن الله أعلم بما تقتضيه المصلحة؛ إذ لو كان الرسل جنسًا غير جنسهم، لما استطاعوا أن يأخذوا عنهم ما أوحاه الله إليهم ليبلغوه الناس، ولذلك اختارهم الله من البشر، وفضلهم علىٰ غيرهم، واصطفاهم، وأنزل عليهم وحيه، وكلَّفهم بتبليغ رسالته، فأعداء الرسل: هم أهل القياس الفاسد، وأهل الإنكار للحق، والمحاربة للقياس الصحيح.

* * *

الثَّالِثَةَ عَشرَةَ: الغُلُوُّ فِي العُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ؛ كَقَولِهِ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء:١٧١].

الشرح:

هذه هي المسألة الثالثة عشرة من مسائل الجاهلية، التي خالف فيها الرسل وأتباعهم، في كل زمان ومكان أهل الجاهلية؛ لأنها من أعمالهم ومواصفاتهم؛ التي هي ضد الحق؛ ألا وهي الغلو في العلماء والصالحين.

وقد ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب التوحيد الذي هو حق الله علىٰ العبيد[1] أن سبب كفر بني آدم، هو الغلو في الصالحين.

والغلو هو: مجاوزة الحد في الملائكة أو الأنبياء أو الصالحين أو غيرهم، حتىٰ يرفعوهم إلىٰ مرتبة الربوبية أو الألوهية، ومن ثَمَّ يتوجهون إلىٰ من غلوا فيه، بطلب جلب المصالح ودفع المضار، التي لا يقدر عليها إلا الله الواحد القهار، فأتىٰ دين الإسلام وحرم الغلو في الصالحين، من ملائكة مقربين، ومن أنبياء ومرسلين، ومن علماء ربانيين، وغيرهم، وأمر الله بأن يُنزلَ كلُّ مخلوق منزلته، التي أنزله الله -تبارك وتعالىٰ- فيها، فقد ذمهم الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء:١٧١].

ونهاهم وحذرهم من الغلو في الدين ذامًّا لهم بذلك إذ قال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾؛ فإنَّ كلَّ باطلٍ فهو تَقوُّل علىٰ الله -تبارك وتعالىٰ-، وهو قول عليه بلا علم، وقد نهىٰ الله عن ذلك: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]. في سياق ما نهىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- عنه؛ بل ذلك أكبر المحرمات.

(١) الباب الثامن عشر.

فتبًّا لأهل الجاهلية الذين فسدت قلوبهم وعقولهم، ففسدت أقوالهم وأفعالهم وضلوا عن سواء السبيل، والحمد لله الذي عافىٰ المسلمين من أمراض شبهاتهم وشهواتهم.

* * *

الرَّابِعَةَ عَشرَةَ: أَنَّ كُلَّ مَا تَقَدَّمَ مَبنِيٌّ عَلَىٰ قَاعِدَةٍ، وَهِيَ: النَّفيُ وَالإِثبَاتُ، فَيَتَّبِعُونَ الهَوَىٰ وَالظَّنَّ، وَيُعرِضُونَ عَمَّا جَاءَت بِهِ الرُّسُلُ.

الشرح:

والمسألة الرابعة عشرة: أن كل ما تقدم مبني علىٰ قاعدة وهي النفي والإثبات، فهم يثبتون ما نفاه الله عن نفسه، أو نفاه عنه رسولهﷺ، وينفون ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسولهﷺ من صفات الكمال ذاتًا وأسماءً وصفات وأفعالًا، ولذلك وقعوا في الضلال المبين، وصاروا من حزب إبليس اللعين.

ومن قواعدهم الفاسدة: أنهم يتبعون الهوىٰ والظن، ويعرضون عما جاءت به الرسل، الذي كله صلاح وفلاح، وعزٌّ في الدنيا، وسعادة في الآخرة.

والمراد بـ (ما تقدم) هي: المسائل التي سبق ذكرها، من المسألة الأولىٰ إلىٰ المسألة الرابعة عشرة، مما أملاه المجدد، جهادًا للأمة، وبراءةً للذمة، وجهادًا بالبرهان؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة.

وقاعدتهم التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: النفي والإثبات، فهم ينفون ما جاءت به الرسل، ويعرضون عنه ويعتبرونه باطلًا، ويثبتون لأنفسهم ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم، وما كان عليه السابقون من أهل الجاهلية، وذلك في كل زمان وفي كل مكان؛ لأن ملة الشرك والكفر واحدة، ونهج الجاهلية واحد.

فالمسائل هذه التي يتحدث عنها الإمام هي صادرة عن عموم المشركين عبر تاريخ الزمان والمكان، فاتباع الهوىٰ والظن السيئ: هما فعل أهل الجاهلية، واتباع الهدىٰ واليقين الذي جاءت به الرسل فعلُ المؤمنين، الذين صدقوا بما جاء به المرسلون ظاهرًا وباطنًا، فطاب حالهم ومآلهم؛ لأنهم أرضوا ربهم الرحمن الرحيم فورثوا العزَّ في الدنيا، والثواب العظيم في دار النعيم المقيم.

الخَامِسَةَ عَشرَةَ: اعتِذَارُهُم عَنِ اتِّبَاعِ مَا آتَاهُمُ اللهُ بِعَدَمِ الفَهمِ كَقَولِهِم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨].

﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود:٩١].

فَأَكذَبَهُمُ اللهُ، وَبَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ بِسَبَبِ الطَّبعِ عَلَىٰ قُلُوبِهِم، وَأَنَّ الطَّبعَ بِسَبَبِ كُفرِهِم.

الشرح:

الخامسة عشرة من مسائل الجاهلية: اعتذارهم عن اتباع ما آتاهم الله بعدم الفهم، وهذا كذب وافتراء منهم، فهو يدل علىٰ تحقيق ما بعث الله به رسله وأنبياءه من الحق المبين، وترك ما لا يحبه الله ولا يرضاه، وفي مقدمة ذلك الإشراك بالله ﷻ، كقول اليهود لمَّا دعاهم رسول الله ﷺ للإسلام، قالوا: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٨].

وكقول قوم شعيب: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود:٩١]. إنما هو كذب واعتذار بما لا يعذرهم الله به؛ لذلك أكذبهم الله -تبارك وتعالىٰ-، وبين أن السبب في إعراضهم عن دعوة الأنبياء والرسل، ومن دعا بدعوتهم في كل زمان ومكان، هو أنهم قوم لا خير فيهم، ولا يريدون الصلاح لأنفسهم ولا لغيرهم؛ بل زاغوا عن الحق مختارين، وكل ذلك بمشيئة الله وقدره، وفعلهم باختيارهم؛ بل إن الله ﷻ هو صاحب الرحمة بعباده، لا يُزيغ قلوب قوم أرادوا نهج الله ونهج رسله، وإنما يُزيغ قلوب قوم، ويطبع عليها، ويختم عليها، بسبب زيغهم وضلالهم ومحاربتهم للحق، وتعصبهم لجاهليتهم، بحسب الزمان والمكان.

لذلك قال الله ﷻ في سورة البقرة بعد أن ذكر صفات المؤمنين، ذكر صفات الكافرين، وأنه ﷻ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٧].

وبَيَّنَ الله ﷻ أنه يجازي أهل الانحراف بسبب انحرافهم، وبقدر جرائمهم، كما في قوله الحق: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

فمن لم يقبل الحق ابتلاه الله بالباطل، أما من طلب الهداية من الله صادقًا؛ فإن الله يوفقه لها ويعطيه ما سأل، كما قال وقوله الحق: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧].

❋ ❋ ❋

السَّادِسَةَ عَشرَةَ: اعتِيَاضُهُم عَمَّا أَتَاهُم مِنَ اللهِ بِكُتُبِ السِّحرِ؛ كَمَا ذَكَرَ اللهُ ذَلِكَ فِي قَولِهِ: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة:١٠١-١٠٢].

الشرح:

المسألة السادسة عشرة من مسائل الجاهلية، التي يجب علىٰ كل مسلم ومسلمة أن يعلن مخالفته لهم فيها، أنهم اعتاظوا[1] بها عما آتاهم الله من وحيه المطهر وشرعه الشريف، وما جاء علىٰ ألسنة رسله المرسلة، ومن دعا بدعوتهم، وبلَّغ ما جاءوا به، غير أن أهل الجاهلية تركوا ذلك، واعتاضوا عنه بكتب السحر، التي لا ينتج عنها إلا الخزي الدنيوي والأخروي؛ لذا بيَّن الله -تبارك وتعالىٰ- ما كانوا عليه بقوله الحق: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة:١٠١-١٠٢][2] الآيات.

ومخالفة المسلمين لأهل الجاهلية أنهم لما جاءهم رسول مصدقٌ لما

(١) أي: استبدلوا.

(٢) أخرج النسائي في تفسيره (١٠٩٢٧-الكبرىٰ)، وابن أبي حاتم (١/ ١٨٥/ ٩٨٢) عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: كَانَ آصِفُ كَاتِبَ سُلَيمَانَ بنِ دَاوُدَ عليهما السلام، وَكَانَ يَعلَمُ الِاسمَ الأَعظَمَ، كَانَ يَكتُبُ كُلَّ شَيءٍ يَأمُرُهُ بِهِ سُلَيمَانُ عليه السلام وَيَدفُنُهُ تَحتَ كُرسِيِّهِ، فَلَمَّا مَاتَ سُلَيمَانُ أَخرَجَتهُ الشَّيَاطِينُ، فَكَتَبُوا بَينَ كُلِّ سَطرٍ مِن سِحرٍ وَكَذِبٍ وَكُفرٍ.
فَقَالُوا: هَذَا الَّذِي كَانَ يَعمَلُ سُلَيمَانُ بِهَا، فَأَكفَرَهُ جُهَّالُ النَّاسِ وَسُفَهَاؤُهُم وَسَبُّوهُ، وَوَقَفَ عُلَمَاؤُهُم، فَلَم يَزَل جُهَّالُهُم يَسُبُّونَهُ حَتَّىٰ أَنزَلَ اللهُ -جَلَّ وَعَزَّ-: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة:١٠٢].

معهم، اتبعوا ما جاء به عن الله، ونادت به رسل الله، ونادىٰ به كل من دعا بدعوتهم؛ بخلاف ما عليه أهل الجاهلية، الذين نبذوا كل ما جاءت به الرسل من عند الله، واعتاضوا -وبئس ما اعتاضوا عنه- بكتب السحر والشعوذة والأساطير، إلىٰ غير ذلك مما قصه الله عنهم في القرآن العظيم؛ ليحذر العقلاء من بني آدم من صنيع الجاهليين وسوء معتقداتهم، وشر سلوكهم أينما كانوا، وبالمقابل يقبلوا علىٰ الميراث الثمين، الذي جاء به الرسل الكرام، والأنبياء العظام، واغتبطت به أمة الإسلام في كل عصر وبادية ومصر.

فهنيئًا للمرسلين وأتباعهم، العز في الدنيا والسعادة يوم الدين، وتبًّا للجاهليين، الذين اختاروا لأنفسهم وأتباعهم طرق العذاب المهين مع إمامهم إبليس وحزبه الخاسرين.

* * *

السَّابِعَةَ عَشرَةَ: نِسبَةُ بَاطِلِهِم إِلَىٰ الأَنبِيَاءِ كَقَولِهِ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾.
وَقَولِهِ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران:٦٧].

الشرح:

المسألة السابعة عشرة، نسبة باطلهم إلىٰ الأنبياء كقول الله ﷻ ردًّا عليهم: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ فالكفر هو أبطل الباطل، وأعظم المآثم، وأكبر الذنوب الكبائر، فلما نسبوا ذلك إلىٰ سليمان النبي الأمين الشاكر لنعماء الله علىٰ النبوة والملك أكذبهم الله، وبرَّأ نبيه سليمان بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

وسليمان نبي الله، أعطاه الله من الملك ما لم يعطِ أحدًا من بعده؛ فقد أجاب الله طلبه في قوله: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص:٣٥]. فأعطاه الله ﷻ من الملك الواسع، وتسخير الشياطين، وفهمِ منطق الطير، وتسخير الريح لحمله وحمل الجيوش، وذلك لنشر الحق وإقامته في الأرض، وما قصة ملكة سبأ في عصره والحوار الذي جرىٰ ونتج عن ذلك إسلامها عن الأذهان ببعيد، فأهل الجهل الشنيع نسبوا إلىٰ سليمان الكفر؛ فبرأه الله مما قالوا في قوله الحق: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ كما سبق ذلك قريبًا(١).

أما انتسابهم إلىٰ إبراهيم عليه السلام فهي نسبة باطلة؛ ودعوىٰ ذات عَوَرٍ وزور؛ حيث ادعوا أن إبراهيم منهم، وادعت النصارىٰ كذلك، فأكذب الله طوائف الكفر كلها، من يهود ونصارىٰ ووثنيين، وأبطل انتسابهم إليه ودعواهم أنه منهم في قوله

(١) في المسألة السادسة عشرة من هذا الشرح المبارك.

الحق: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧]؛ لأنه ما جاءت الديانة اليهودية، والديانة النصرانية، إلا من بعد إبراهيم بقرون!! فبطلت دعوة المبطلين، وحق ما قيل: «**إن للباطل صولة ثم يضمحل ويزول**»(١).

وإنَّ إبراهيم كان حنيفًا مسلمًا، مائلًا عن الشرك مقبلًا علىٰ التوحيد، ومائلًا عن المعصية مقبلًا علىٰ الطاعة، مسلمًا منقادًا لأمر الله رب العالمين فهو خليل الله كما قال المولىٰ الكريم: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء:١٢٥]. وكما قال النبي الكريم محمدﷺ: «**وإن الله قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا**»(٢).

* * *

(١) **قال ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل»** (١/ ٣٤٢): «سمعت أبا زرعة يقول: كتب إليَّ إسحاق بن راهويه: «**لا يهولنك الباطل، فإن للباطل جولة ثم يتلاشىٰ**»، وأورده في (١/ ٣٢٩) من كتاب إسحاق لأبي زرعة بلفظ: «**إن للباطل جولة ثم يضمحل**».

(٢) رواه مسلم (٥٣٢).

الثَّامِنَةَ عَشرَةَ: تَنَاقُضُهُم فِي الانتِسَابِ، يَنتَسِبُونَ إِلَىٰ إِبرَاهِيمَ مَعَ إِظهَارِهِم تَركَ اتِّبَاعِهِ.

الشرح:

والمسألة الثامنة عشرة: تناقضهم في الانتساب إلىٰ إبراهيم مع إظهارهم ترك اتباعه كما مضىٰ في المسألة السابعة عشرة؛ فهم ينتسبون إلىٰ إبراهيم وهو بريء منهم؛ لأنهم لم يتبعوه في الملة الحنيفية، التي بعثه الله ﷻ بها، وأرشد الله نبينا، -وأمته تبع له في ذلك- إلىٰ اتباعها بقوله الحق: ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٨].

وقبل هذه الآية أثنىٰ الله ﷻ علىٰ الخليل أبي الأنبياء إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- بقوله: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [النحل:١٢٠-١٢١].

قال ابن كثير في تفسير هاتين الآيتين: «فأما الأمة: فهو الإمام الذي يقتدىٰ به؛ والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قصدًا عن الشرك إلىٰ التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

﴿ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ﴾؛ أي: قائمًا بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾؛ أي: قام بجميع ما أمره الله تعالىٰ به.

وقوله: ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾؛ أي: اختاره واصطفاه؛ كقوله: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٥١].

ثم قال: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له علىٰ

شرع مرضي»[1].

قلت: هذا شأن إبراهيم عليه السلام عند ربه، وعند كل من يقدر الرسل الكرام والأنبياء العظام حق قدرهم، لا أهل الجاهلية، الذين عصوا الله وكذبوا المرسلين.

* * *

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٩١).

التَّاسِعَةَ عَشرَةَ: قَدحُهُم فِي بَعضِ الصَّالِحِينَ بِفعِلِ بَعضِ المُنتَسِبِينَ إِلَيهِم؛ كَقَدحِ اليَهُودِ فِي عِيسَىٰ، وَقَدحِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ.

الشرح:

هذه المسألة التاسعة عشرة، في بيان قدحهم في بعض الصالحين، بفعل بعض المنتسبين إليهم؛ كقدح اليهود في عيسىٰ عليه السلام، إذ قالوا بأنه ابن زنا -والعياذ بالله-، وقدح اليهود والنصارىٰ في محمد -عليه الصلاة والسلام-، وذلك أمر لا يستغرب صدوره من أعداء الله، وعلىٰ العموم أن الكفار كلهم أعداء للرسل هم وأتباعهم؛ ولا غرابة أن يكون اليهود أعداء عيسىٰ عليه السلام؛ لأنه أتاهم بالتوحيد وأبىٰ أهل التثليث منهم إلا أن يعبدوا ثلاثة ، فأعلن الله كفرهم في القرآن العظيم، حيث قال عنهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠].

وقال ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ﴾ [المائدة:٧٣].

وهذا يعم الطائفتين اليهودية والنصرانية، وأثبت الله لنفسه بأنه إله واحد فقال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾، واجتمعت الطوائف -طوائف الشرك اليهود والنصارىٰ والوثنيين- علىٰ القدح في محمد ﷺ خير الرسل وأكرم الأنبياء، الذي أعطاه الله ﷻ شريعة سمحة ميسرة ختمت بها الشرائع، وختمت بأمته الأمم، وآتاه الله ما لم يؤتِ غيره، وتفضل علىٰ أمته بما لم يسبق له نظير في الأمم الماضية، من رفع الآصار والأغلال، وتيسير الدين وتسهيله عليهم، ومع ذلك فقد طعن في هذا الدين الإسلامي، الذي أتىٰ به محمد ﷺ كل من اليهود والنصارىٰ والوثنيين، كما قص الله أخبارهم في القرآن الكريم.

والخلاصة: أنه إذا وقع انحراف أو خطأ أو قصور من الأتباع في أي أمة من الأمم؛ فإنه لا يجوز أن يعاب الأنبياء، أو تعاب دعوتهم؛ بل ينسب الانحراف والخطأ والقصور لمن صدر منهم، وأما دعوة الأنبياء والرسل؛ فإنها كاملة لا يعتريها خلل أو عوج أو خطأ؛ لأنها من عند الله العزيز الحميد.

العِشرُونَ: اعتِقَادُهُم فِي مَخَارِيقِ السَّحَرَةِ وَأَمثَالِهِم أَنَّهَا مِن كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ، وَنِسبَتِهِ إِلَىٰ الأَنبِيَاءِ كَمَا نَسَبُوهُ لِسُلَيمَانَ عليه السلام.

الشرح:

هذه المسألة العشرون في بيان اعتقادهم في مخاريق السحرة والكهان والمشعوذين وأمثالهم أنها من كرامات الصالحين، وكذبوا أشنع الكذب، فمخاريق السحرة هذه لا تدل علىٰ صلاح الساحر أو الكاهن والمشعوذ، وإنما ما يجري علىٰ أيديهم بأنه خارق للعادة، إنما هو ابتلاء لهم، وابتلاء لمن يغتر بهم، من أهل الجهل والضلال فيتابعونهم.

نعم قد تكون علىٰ أيديهم مخاريق، تأتي خارقة للعادة كمسك الثعابين، أو المشي علىٰ الماء، أو الطيران في الهواء، أو معرفة بعض الأمور نتيجة السحر والشعوذة والكهانة، فقد يأتي شيء مما هو خارق للعادة علىٰ أيديهم، وليس لهم كرامة وإنما هو ابتلاء لهم، ويرون أنفسهم بأنهم فوق البشر، وابتلاء أيضًا لضعفاء العقول ومن قلَّ إيمانهم ولم يقدروا الله حق قدره؛ بل تابعوهم علىٰ دجلهم وكذبهم.

وأما ما يجري علىٰ أيدي الصالحين، ممن عُرفوا بالتوحيد والصلاح في الدين، فهذه تعتبر من الكرامات، يجريها الله علىٰ يد من شاء من عباده الصالحين، الذين جمعوا بين الإيمان والتقوىٰ.

وأما المعجزات: فهي لا تجري إلا علىٰ أيدي الرسل الكرام، والأنبياء العظام -عليهم الصلاة والسلام-، وما نسبوه إلىٰ النبي الكريم سليمان بن داود -عليهما من الله أزكىٰ الصلاة وأتم التسليم- فهو من ضروب كذبهم، وعداوتهم للرسل والأنبياء وأتباعهم.

وإذ كان الأمر كذلك، فليحذر المسلمون من التماس الأعذار للجاهليين، الذين جاءتهم رسلهم وأنبياؤهم بالرسالات من عند الله، وأوضحوا لهم ما يجب عليهم وما يحرم، فأبوا إلا من شرح الله صدره للإسلام، فكان من أتباع المرسلين.

* * *

الحَادِيَةُ وَالعِشرُونَ: تَعَبُّدُهُم بِالمُكَاءِ وَالتَّصدِيَةِ.

الشرح:

المسألة الحادية والعشرون في بيان تعبدهم بالمكاء والتصدية عند الطواف بالبيت، وقد ذمهم الله ﷻ علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥]؛ أي: صفيرًا وتصفيقًا، وهذا كان من فعل الجاهلية في عهد النبي ﷺ، ولذا لا يجوز التشبه بهم في أقوالهم أو أفعالهم، وخاصة ما كان علىٰ وجه التعبد لله ﷻ.

ولقد جاءت شريعة الإسلام، الشريعة المحمدية، وفيها البيان للناس كيف يطوفون بالبيت، وما يشرع لهم أن يقولوه، من كلمات التوحيد للخالق العظيم، المستحق للعبادة، وحده لا شريك له، وكيف يلبسون اللباس الشرعي، لمن كان محرمًا بحج أو عمرة من الرجال والنساء، فحمدًا لله علىٰ تكريمه لهذه الأمة، بشريعة الإسلام السمحة، النقية، البريئة من خرافات الجاهلية، وشركياتها، ومحدثاتها الموروثة عن أكابرهم، وقد نبذها الإسلام بأحكامه، غير أن أهل الجاهلية المقيتة معتصمون بها، ومفضلون لها علىٰ ما جاء به خير رسول أُرسل، وأكرم نبي بُعِث، ألا وهو محمد رسول الله ﷺ.

* * *

الثَّانِيَةُ وَالعِشرُونَ: أَنَّهُمُ اتَّخَذُوا دِينَهُم لَهوًا وَلَعِبًا.

الشرح:

المسألة الثانية والعشرون، في بيان أنهم اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا؛ بينما المؤمنون أتباع الرسل اتخذوا دينهم عقيدة ومنهجًا وطريقًا يوصلهم إلىٰ الله، وإلىٰ باب كرامته، فشتان ما بين الفريقين، ويا بُعد ما بين الفريقين.

وقد حذَّر الله ﷻ المؤمنين أن يتبعوا من اتخذوا دينهم هزوًا ولعبًا في قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:٥٧].

هذه وصية الله لأتباع الرسل، أن يجتنبوا مسلك الكفار وأهل البدع، من صوفية[(١)]، وإخوانية[(٢)]، وغيرهم ممن اتخذوا الغناء والرقص والأناشيد -التي

(١) **الصوفية**: هذه النسبة اختلفوا فيها:

فمنهم من قال: منسوبة إلىٰ لبس الصوف.

ومنهم من قال: من الصفاء.

ومنهم من قال: من بني صوفة؛ وهم جماعة من العرب كانوا يتزهدون ويتقللون من الدنيا فنسبت هذه الطائفة إليهم.

ومصادر التلقي الرئيسية عند فرق الصوفية عمومًا ثلاثة مصادر وهي: الكشف، والذوق، والوجد، وتحت كل قسم منها أقسام ودرجات، وهذا لا ينفي وجود مصادر أخرىٰ غير هذه الثلاثة.

انظر: «التعرف لمذهب أهل التصوف» للكلاباذي (ص٢١)، و«الأنساب» للسمعاني (٨ / ٣٤٦)، و«مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية» (١٠/ ٣٦٧-٣٦٩)، وكتاب «المصادر العامة للتلقي عند الصوفية» (ص٣١) و (ص١٨٣).

(٢) هي جماعة «الإخوان المسلمون»، والتي قام بتأسيسها حسن بن أحمد البنا، ولد عام

تسمىٰ إسلامية- عبادة، فاتخذوا بذلك دين الله الحق هزوًا ولعبًا، وافتروا علىٰ الله الكذب فيما يصنعون، وفضلوا ما هم عليه من اللهو واللعب، علىٰ ما جاء به المرسلون من عند الله، مستبدلين الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير، فنعوذ بالله من الضلال، وقبيح الأقوال، وسيئ الأفعال.

* * *

=

١٣٢٤هـ في مصر وتوفي عام ١٣٦٨هـ، والذي تربىٰ علىٰ الطريقة الصوفية الحصافية، وأخذ بيعتها علىٰ يد بسيوني العبد، ثم علىٰ يد عبد الوهاب الحصافي، نائب رئيس الطريقة وواظب علىٰ حضرتها، وكان من طريقته جذب جميع المسلمين في مصر علىٰ اختلاف مناهجهم بين السلفية والصوفية، فعرفت نفسها بأنها «دعوة سلفية»، و«طريقة سنية»، و«حقيقة صوفية»، وأرادت أن تجمع في عضويتها بين طالب الدين والدنيا فأضافت أنها «هيئة سياسية»، و«جماعة رياضية»، و«رابطة علمية ثقافية»، و«شركة اقتصادية»، و«فكرة اجتماعية».

انظر: كتاب حقيقة الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ (ص٨٦) و(ص٨٨)، و«المورد العذب الزلال فيما انتقد علىٰ بعض المناهج الدعوية من العقائد والأعمال»، للعلامة المحدث أحمد ابن يحيىٰ النجمي رَحِمَهُ اللَّهُ، الباب التاسع منه.

الثَّالِثَةُ وَالعِشرُونَ: أَنَّ الحَيَاةَ الدُّنيَا غَرَّتهُم؛ فَظَنُّوا أَنَّ عَطَاءَ اللهِ مِنهَا يَدُلُّ عَلَىٰ رِضَاهُ؛ كَقَولِهِم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ:٣٥].

الشرح:

هذه المسألة الثالثة والعشرون، فيها إيضاح أن الحياة الدنيا غرت أولئك الجاهلين، الصادين عن سبيل الله، وظنوا أن عطاء الله منها يدل علىٰ رضاه، والحق أن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، لحقارتها عند الله ﷻ.

وفي الحديث الثابت عن رسول الله -صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ومن بهديه اقتدىٰ-، أنه قال: «**لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقىٰ منها كافرًا شربة ماء**»(١).

فأعطىٰ الله أولئك الكفار عبر تاريخ الزمان والمكان أموالًا وأولادًا وصحة وقوىٰ، فلم يشكروا نعمة الله عليهم؛ بل غرهم بالله الغرور، فظنوا أنهم ما أعطوا هذا الخير الدنيوي، إلا لرضا الله ﷻ عنهم، وظنوا بأن ما أعطوا في الدنيا، سيكون لهم مثله في الآخرة، فأبطل الله -تبارك وتعالىٰ- هذه الدعوىٰ الكاذبة بقوله الحق: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥].

ولقوله ﷻ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨].

والجواب: لا يستوون؛ لأنهم لم يستووا في دنيا العمل، فلم يستووا في دار الجزاء علىٰ العمل، والله ﷻ حكم عدل، يجازي كل عامل من جنس عمله، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر جزاءً وفاقًا.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠)، وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب».

فكونوا يا أمة الإسلام من أبناء الآخرة وعُمَّار دارها؛ بفعل الطاعات وترك السيئات، وكونوا علىٰ سبيل الدوام لله من الشاكرين، وله من الذاكرين، محبة وإجلالًا ورغبًا ورهبًا وخوفًا ورجاءً، حتىٰ تلقوا ربكم وهو عنكم راضٍ.

* * *

الرَّابِعَةُ وَالعِشرُونَ: تَركُ الدُّخُول فِي الحَقِّ إِذَا سَبَقَهُم إِلَيهِ الضُّعَفَاء تَكَبُّرًا وَأَنَفَةً، فَأَنزَل الله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام:٥٢] الآيَات.

الشرح:

هذه المسألة الرابعة والعشرون: فيها بيان ما كان عليه أهل الجاهلية في كل زمان ومكان من ترك الدخول في الحق إذا سبقهم إليه الضعفاء تكبرًا وأنفة، وهذه من خصال الجاهلية، التي ذكرها الله ﷻ في القرآن الكريم، كما في قصة قوم نوح عليه السلام، وكمال نصحه في دعوته، وما ردوا به عليه: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود:٢٧].

ولقد وصىٰ الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢].

وبقوله سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف:٢٨]؛ لأن النبي ﷺ كان إذا أتاه صناديد كفار قريش، كان يطمع في إسلامهم واستجابتهم لدعوته، فيشتغل بهم ويدع غيرهم ممن يريدون الحق، ويريدون وجه الله والدار الآخرة، فنبَّه الله نَبيَّهُ علىٰ ذلك، كما في قصة ابن أم مكتوم، وما نزل فيه من القرآن، فقد عاتب الله نبيه محمدًا ﷺ عتابًا جليًّا؛ إذ قال سبحانه -وقوله الحق-: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس:١-١٠][1].

---

(١) روىٰ الترمذي (٣٣٣١)، وقال: «غريب». وابن حبان (٥٣٥)، والطبري في «التفسير» (٢٤/ ٢١٧): عَن عَائِشَةَ قَالَت: «أُنزِلَ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ فِي ابنِ أُمِّ مَكتُومٍ الأَعمَىٰ، أَتَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ =

وهذا عتاب عظيم؛ لأن النبي ﷺ لما أتاه جماعة من الكفار، طمع وحرص علىٰ إسلامهم؛ ليعز الله ﷻ بهم الإسلام والمسلمين؛ غير أن الله ﷻ هو صاحب هداية التوفيق ومالكها، إذ إنه مَن مَنَّ عليه بهداية التوفيق، فقد هدي إلىٰ الصراط المستقيم، ومن حرم هداية التوفيق؛ لأنه ليس أهلًا لها، ولا أتىٰ بأسبابها، وليس محلًا للصلاح، فهو المحروم من خيري الدنيا والآخرة.

ومما يجب التنبيه عليه: أن كل من لم يقبل الحق بسبب التكبر والأنفة، فإن له نصيبًا من مشابهة أهل الجاهلية في ذلك، وهذا يدل علىٰ أن ترك قبول الحق لأجل سبق الضعفاء إليه، أو لأجل تقدمهم إليه، فإن هذا من الكبائر -والعياذ بالله-؛ بل قد يكون مخرجًا من الملة، إذا كان فيه عدم قبول أصل الدين، مثل ما يحصل من كبار عظماء المشركين، في هذه الأزمان المتأخرة.

فكن -يا أخي المسلم-، من أهل الحرص علىٰ معرفة الحق، والعمل به، والدعوة إليه، حتىٰ يأتيك اليقين، ولا تكن خرَّاجًا ولا ولَّاجًا في فرق الضلال، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا؛ بل ترسَّم خطا أهل السنة والجماعة، الطائفة الناجية المنصورة، تكن فردًا من أفرادها، فتظفر بحياة العز في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة، وهذا المغنم لا يحصل لأحد، إلا إذا تفقه في دين الله للعلم به، والعمل بمقتضاه، ونشره علىٰ طريقة الرسل والأنبياء وأتباعهم، وأرجو الله لي ولك أيها المسلم، أن يجعلنا من أهل الآذان الصاغية، والقلوب الواعية، والأعمال الصالحة المقبولة.

=

فَجَعَلَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرشِدنِي، وَعِندَ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ مِن عُظَمَاءِ المُشرِكِينَ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعرِضُ عَنهُ وَيُقبِلُ عَلَىٰ الآخَرِ، وَيَقُولُ: أَتَرَىٰ بِمَا أَقُولُ بَأسًا؟ فَيَقُولُ: لَا، فَفِي هَذَا أُنزِلَ». وجاء نحوه عن أنس وغيره كما في «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢١٨-٢٢٠).

الخَامِسَةُ وَالعِشرُونَ: الاستِدلَالُ عَلَىٰ بُطلَانِهِ بِسَبقِ الضُّعَفَاءِ؛ كَقَولِهِ: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف:١١].

الشرح:

هذه المسألة الخامسة والعشرون: فيها بيان فساد الاستدلال علىٰ بطلان الدين بسبق الضعفاء إليه؛ أي: إن الكفار الجاهليين -كانوا ولا يزالون-، يستدلون علىٰ بطلان ما جاءت به الرسل الكرام، والأنبياء العظام، بسبق الضعفاء إلىٰ الاهتداء بهذا الهدىٰ، الذي جاءت به الرسل، ولهذا جاء في كلام هرقل في مسألته أبا سفيان: أيتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، قال: هكذا الرسل يتبعهم الضعفاء[1].

وإذ كان الأمر كذلك، فيكون استدلال الكافرين علىٰ بطلان الدين بسبق الضعفاء إليه باطلًا شرعًا وعقلًا، وقد قال قوم نوح -كما أخبر الله عنهم- لنوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ ومرادهم بالأراذل: السفهاء والسِّفلة.

فصد جميع الكفرة أنفسَهم عن سبيل الحق، وصدوا غيرَهم كذلك، فأخبر الله عن كفار قريش ومن والاهم أنهم قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، قال تعالىٰ بيانًا لحالهم: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف:١١].

وكذبوا؛ فإن هذه الدعوىٰ دعوىٰ باطلة، أبطلها الله -تبارك وتعالىٰ- في محكم كتابه، بتزكيته لما جاءت به رسله جملة وتفصيلًا.

واسمع إلىٰ قوله -جل وعلا- في وصف ما جاء به خاتم الرسل والأنبياء

(١) أخرج القصة البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

-محمد رسول الله النبي الهاشمي- وتزكيته: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:١-٥].

* * *

السَّادِسَةُ وَالعِشرُونَ: تَحرِيفُ كِتَابِ اللهِ مِن بَعدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُم يَعلَمُونَ.

الشرح:

هذه المسألة السادسة والعشرون، في إيضاح أن من شأن اليهود والنصارىٰ تحريف التوراة والإنجيل، من بَعدِ مَا عقلوها وهم يعلمون، وهذا كما قصَّ الله ﷻ عنهم في كثير من المواضع في القرآن، بأنهم يحرِّفون الكَلِم عن مواضعه، من أجل أن يوافق أهواءهم ورغباتهم.

إذن؛ من حرَّف وبدَّل في كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ، فقد تشبه بخصلة من خصال اليهود والنصارىٰ، وعُوقب بما يستحق علىٰ جريمته، فالحذرَ الحذرَ من مشابهتهم، أو تقليدهم في أي أمر من الأمور، سواء كان ذلك فيما يتعلق بشأن العقيدة، أو بشأن بقية أمور الشريعة، كالحلال والحرام، وكل ما أوحاه الله إلىٰ نبي الرحمة، ورسول الإسلام.

وأنت أيها المسلم؛ يجب أن تكون علىٰ علم أن اليهود مغضوب عليهم، بسبب عدم عملهم بما عندهم من العلم، وأن النصارىٰ ضالون؛ بسبب جهلهم الشنيع، وتركهم هدي الأنبياء، واختيارهم الجهل والضلال، وذلك سبب طردهم من رحمة الله، وغَضَبِ الله عليهم، وقد حذر الله أمة محمد ﷺ من مشابهة الطائفتين.

كما يجب أن تكون علىٰ علم، أن الله قسم الناس في أعظم سورة من الفرقان -ألا وهي فاتحة الكتاب- إلىٰ ثلاثة أقسام: منعم عليهم، ومغضوب عليهم، وضالون.

فالمغضوب عليهم والضالون هالكون أشقياء؛ بما اختاروا لأنفسهم من مخالفة الرسل والكتب المنزلة لهداية البشر، والمنعم عليهم وهم أربعة أصناف: النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون، وكلهم ناجون وفائزون.

السَّابِعَةُ وَالعِشرُونَ: تَصنِيفُ الكُتُبِ البَاطِلَةِ وَنِسبَتُهَا إِلَىٰ اللهِ؛ كَقَولِهِ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٧٩] الآيَة.

الشرح:

المسألة السابعة والعشرون، فيها ذكر الجاهليين من اليهود بتصنيف الكتب الباطلة ونسبتها إلىٰ الله ﷻ، وهو ما قصَّه الله عن اليهود، وتوعدهم عليه بويل، حيث قال ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

إذ يعملون هذه الأعمال، من باب التلبيس علىٰ الناس، وخلط الحق بالباطل، هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ أنهم يصنفون الكتب الباطلة؛ لِتَدُرَّ عليهم دخلًا ماديًّا بسبب رضا الناس عنهم، ولا يرضىٰ عنهم إلا الموافقون لهم في المعتقد الفاسد، والمكر والكيد.

ولا شك أن عملهم هذا من ضروب فسادهم في الأرض؛ لأنه تحريف للكلم عن مواضعه، وافتراء علىٰ الله ﷻ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل:١١٦] الآية.

وسوف يسألهم الله عن جرأتهم علىٰ التحريف، الذي انحرف أتباعهم بسببه عن الحق الذي جاءت به الرسل، إلىٰ الباطل الذي زينه شياطين الإنس والجن لأتباعهم، قاتلهم الله أنَّىٰ يؤفكون.

فيا أيها المسلمون؛ إذا علمتم ما عليه أهل الجاهلية، علىٰ اختلاف أجناسهم ونِحَلهم، فاحذروهم، وتمسكوا بحبل الله؛ لتنالوا الرضا من الله، وتفوزوا بجنة عرضها كعرض السماء والأرض أُعدت للذين آمنوا بالله ورسله،

واسمعوا إلىٰ قول الشاعر السلفي[1]:

تَمسَّك بحَبلِ اللهِ واتَّبِع الهُدَىٰ ... ولا تَكُ بِدعِيًّا لَعلَّكَ تُفلِحُ

وَدِن بِكِتَابِ اللهِ والسُّنَنِ التِي ... أَتَت عَن رَسُولِ اللهِ تَنجُ وَتَربَحُ

* * *

(١) هو أبو بكر عبد الله بن سليمان أبي داود السجستاني الأزدي (٢٣٠-٣١٦هـ) الإِمَامُ العَلَّامَةُ، الحَافِظُ، شَيخُ بَغدَادَ، صَاحِبُ التَّصَانِيفِ، كَانَ مِن بُحُورِ العِلمِ، بِحَيثُ إِنَّ بَعضَهُم فَضَّلَهُ عَلَىٰ أَبِيهِ.

وصَنَّفَ (السُّنَنَ) وَ(المَصَاحِفَ) وَ(شَرِيعَةَ المقَارِئ) وَ(النَّاسِخَ وَالمَنسُوخ)، وَ(البَعثَ) وَأَشيَاء. «سير أعلام النبلاء» باختصار (١٣/ ٢٢١-٢٣١)، وانظر: «تاريخ بغداد» (٩/ ٤٧١-٤٧٥).

والبيتان من قصيدته «الحائية» المشهورة في السنة التي رواها أبو بكر الآجري في «الشريعة» (٥/ ٢٥٦٢)، وأبو حفص بن شاهين في «شرح مذاهب أهل السنة» (٢٥٤-٢٥٧)، وابن أبي يعلىٰ في «طبقات الحنابلة» (٢/ ٥٣-٥٤)، والذهبي في «العلو للعلي الغفار» (٢٠٩-٢١١).

الثَّامِنَةُ وَالعِشرُونَ: أَنَّهُم لَا يَقبَلُونَ مِنَ الحَقِّ إِلَّا الَّذِي مَعَ طَائِفَتِهِم؛ كَقَولِهِ: ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ الآيَةَ. [البقرة:٩١].

الشرح:

المسألة الثامنة والعشرون: فيها بيان أن أهل الجاهلية لا يقبلون من الحق، إلا الذي مع طائفتهم؛ أي: الذي صدر من طائفتهم، وإذا كان الحق مع غير طائفتهم رفضوه وردوه، وما كان مع طائفتهم سواءً كان حقًّا أو باطلًا فهو المقبول علىٰ الرأس والعين، والقلب والجوارح، كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١].

والشيء بالشيء يذكر، فإن من أصيبوا بداء الحزبيات والتعصب، فإنك تراهم يوافقون رؤساءهم وقادتهم علىٰ الحق والباطل، وهذا من الإثم الكبير، ومن الخطأ الفاحش، أن يوافق الإنسان جماعة أو فردًا علىٰ حقٍّ وباطلٍ علىٰ حد سواء؛ بل الواجب أن الحق هو الذي يُتَّبع ويُتَابع أهلُهُ، وما كان من باطل فيجب أن يبغض ويرد، ويجاهد أهله، كي يقبلوا الحق ويعملوا به، ويردوا الباطل ويبغضوا أهله في كل زمان ومكان.

وهذا الداء ابتُلِيَ به الفرقة المسماة بالإخوان المسلمين، وقد حذرتُ من هذه الفرقة التاركة لكثير من منهج السلف في دعوتهم وجهادهم وسلوكهم، ومن جملة ما قلت في التحذير منهم[1]:

يا ويح مَن يُدعىٰ لتنظيم عُرف ... بِمنهج الإخوان أجلىٰ ما عرف

(١) في كتاب «الشروق علىٰ الفروق بين الكفر والشرك والنفاق والظلم والفسوق» (١٦-١٧).

بالمنهج السري حقًّا يعلم ... فاحذره تغنم وانتبه يا مسلم
كم حدث غر قد أضحىٰ مفلسا ... في خندق الإخوان يمسي في أسىٰ
وبيعة وإمرة ومرتبه ... وكلها وهم كذاك المنقبه
له دعاة يعملون في الخفا ... في مهبط الوحي وأرض الحنفا
يؤسفنا حقًّا عظيم الأسف ... صنيعهم هذا بأسلوب خفي
ومن تصدىٰ لبيان أمرهم ... قالوا عميل لولي أمرهم
وغير هذا من هجومهم علىٰ ... خير الدعاة والهداة النبلا
وقولهم عنهم ضعاف سذج ... فاحذرهم يا صاح هذا المنهج
وكل أمر محدث له سبب ... زيَّنه الشيطان جالب العطب
وسبب التنظيم هذا الوافد ... وكونه سرًّا خفي المرصد
هو الغرور والأماني الخائبه ... لتنشر الفوضىٰ وتُخزَىٰ العاقبه
وقلة الفقه وسوء المقصد ... فعنهما حدِّث بلا تردد
كلاهما شر وفتنة طغت ... من شهوة أو شبهة قد انطلت
علىٰ ضعاف في العقول السذج ... من قلدوا فعلًا دعاة المنهج
من قالوا يا قوم تعالوا نحونا ... نسعىٰ جميعًا لنلمَّ شعثنا
لنتفق فيما عليه نتفق ... ونسقط النصح لئلا نفترق
وحينما بان الطريق الأقوم ... عادوا القليل منهم فلتفهموا
لمنهج الأسلاف أنصار الهدىٰ ... فاشكرهم يا صاح تنجو من ردىٰ

ومثل هذه الفرقة في الابتعاد عن منهج السلف وسلوكهم، فرقة التبليغ

الصوفية، التي حذرتُ من معتقدها ومنهجها في عدة كتب، براءة للذمة ونصحًا لمن يحب النصيحة، واسمع لتحذيري منهم، ومن معتقدهم، ومنهجهم الجهادي في مفهومهم، إذ قلت:

ومـــنهج التبلـــيغ ذاك المحـــدث ... كـــم قـــادة يـــا قـــوم فـــيه أحدثـــوا

مـن بدعـة فـي الـدين لـم تكـن علىٰ ... عهـد الرســول والـصحاب الفـضلا

كبـيعة الـصوفي وتـرك المنكـر ... مـــن دون إنكـــار تعجـــب وانـظـر

شـــعارهم اخـــرج وبَـــيِّن يـــا فتـــىٰ ... والـــعلم فـــيض عـــندهم قـــد ثبـــتا

بـــــسبب الخـــــروج للبـــــيان ... ودعـــــوة الـــــداع شِـــــعَارٌ ثـــــانِ

وغيـــر هـــذا مـــن تـــصرف عـــري ... مـــن زهـــرة الحـــق وحـــسن المخبـــر

* * *

التَّاسِعَةُ وَالعِشْرُونَ: أَنَّهُم مَعَ ذَلِكَ لَا يَعلَمُونَ بِمَا تَقُولُهُ طَائِفَتُهُم، كَمَا نَبَّهَ الله تَعَالَىٰ عَلَيهِ بِقَولِهِ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١].

الشرح:

المسألة التاسعة والعشرون: وهذه المسألة فيها بيان عن جهل أهل الجاهلية في كل زمان ومكان، وذلك أنهم لا يعلمون بما تقوله طائفتهم، أي: أنهم لا يعلمون ما جرىٰ من طائفتهم، من القتل لأنبياء الله، حيث قال ﷻ مخاطبًا لليهود: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١].

وهذا تحذير من التقليد الأعمىٰ، والواجب: الاستيضاح لأمر الدين الذي جاء واضحًا بينًا حتىٰ يعبد العبد ربه علىٰ بصيرة، بخلاف أهل الجاهلية فإنهم يوافقون متبوعيهم تقليدًا لهم حتىٰ قادوهم إلىٰ النار وبئس القرار، كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب:٦٧].

وإذ كان الأمر كما رأيتم وعلمتم -أيها المسلمون عمومًا وطلاب العلم خصوصًا-: فشمروا عن ساعد الجد، وابحثوا عن الفقه في الدين من مصادره الصحيحة، وعند أهله البارزين في علوم الشريعة أصولًا وفروعًا؛ لتعلموا ما خلقكم الله لأجله، فتجاهدون به أنفسكم وغيركم علىٰ بصيرة.

واحذروا أهل البدع؛ فإن لهم عرة كعرة الجرب، ومن أهل البدع المعاصرين الفرقتان المنوه عنهما في المسألة الثامنة والعشرين، واسألوا جادين غير متكاسلين عن معتقد الطائفة الناجية المنصورة ومنهجها؛ لتكونوا منهم في العقيدة والشريعة، وادعوا الله أن ينصركم علىٰ كل عدو داخلي وخارجي، وأنتم موقنون بالإجابة.

المسألة الثَّلَاثُونَ: وَهِيَ مِن عَجَائِبِ آيَاتِ الله: أَنَّهُم لَمَّا تَرَكُوا وصِيَّةَ الله بِالاجتِمَاعِ، وَارتَكَبُوا مَا نَهَىٰ الله عَنهُ مِنَ الافتِرَاقِ، صَارَ كُلُّ حِزبٍ بِمَا لَدَيهِم فَرِحِينَ.

الشرح:

المسألة الثلاثون؛ أي: الخصلة الثلاثون من مسائل الجاهلية: التي خالف فيها الموحدون أولئك الجاهليين: عبر تاريخ زمانهم ومكانهم، هذه المسألة التي ذكرها الإمام محمد بن عبد الوهاب من مسائل الجاهلية، هي أنهم تركوا وصية الله -تبارك وتعالىٰ- بالاجتماع علىٰ الحق المبين، والاعتصام بصراطه المستقيم، كما أعرضوا عن التحذير من الافتراق، فهم تركوا الاجتماع علىٰ الحق، واختاروا الافتراق، والله -تبارك وتعالىٰ- أمر الأمة علىٰ ألسنة الرسل جميعًا بالاجتماع علىٰ الحق في قوله الحق: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣].

ونهاهم عن التفرق في دينهم؛ لأن التفرق في الدين فتنة وضلالة، ويفضي بأهله إلىٰ سوء المنقلب، وتشبه بهؤلاء الجاهليين أهل البدع، وإن كان بعضهم من المسلمين، إلا أنهم تشبهوا بالجاهليين باختيار التفرق علىٰ الاجتماع، وشطروا جماعة المسلمين إلىٰ فرق، ومن غير شك أن الأمة مأمورة بأن تجتمع علىٰ كتاب ربها -جل وعزَّ-، وصحيح سنة نبيهاﷺ، فالمؤمنون الملتزمون بهدي نبيهم علىٰ وجه التمام، امتثلوا ذلك تنفيذًا لوصية الله لهم بالاعتصام بحبله المتين، والعض بالنواجذ علىٰ المعتقد السليم، والنهج القويم.

وأما أهل البدع فهم الذين اختاروا التفرق علىٰ الاجتماع، فتفرقوا فرقًا وأحزابًا وشيعًا، وكل طائفة مبتدعة تدعي الصواب لنفسها، في قديم الزمان وفي عصرنا الحاضر، علىٰ تفاوت بينهم في البدع والغواية.

وكل من ابتدع وأحدث حدثًا في دين الله، فلابدَّ من أن يطرق باب التأويل المذموم وينتحله، ويلبِّس علىٰ الناس؛ ليروج بدعته فيحارب بها الحق، وهذا أعظم الخطر الصادر من أهل البدع من جهمية[١]، ومعتزلة[٢]، وخوارج[٣]، .....

(١) **الجهمية**: هم أصحاب الجهم بن صفوان، وهو من الجبرية الخالصة، ظهرت بدعته بترمذ، وقتله سلم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية، كان حامل لواء التعطيل في نفي الأسماء والصفات، وقال بفناء الجنة والنار، وجعل الإيمان مجرد المعرفة، وقال بالجبر المحض، وكان مع ضلالاته يحمل السِّلاح ويقاتل السلطان، وينتحل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

انظر: «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» للأشعري (١/ ١١٤ و١٢١ و٢١٩-٢٢٠)، و«الفرق بين الفرق» للبغدادي (١٩٩-٢٠٠)، و«الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم (٤/ ١٥٥-١٥٦)، و«التبصير في الدين» للإسفراييني (١٠٧-١٠٨)، و«الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٨٦-٨٨).

(٢) **المعتزلة**: هم أصحاب واصل بن عطاء الغزال لما اعتزل مجلس الحسن البصري، يقرر أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، ويثبت المنزلة بين المنزلتين، فطرده فاعتزله وتبعته جماعة سموا المعتزلة.

انظر: «مقالات الإسلاميين» للأشعري (١/ ١٣٠-١٣٧و١٤١-٢٢٤) وما بعدها، و«الفرق بين الفرق» للبغدادي (٩٣-١٨٩)، و«الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٢/ ٨٩-٤/ ١٣٥)، و«الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٤٣-٨٥).

(٣) **الخوارج**: فرقة ظهرت في زمن علي بن أبي طالب ﷺ يوم الحكمين، يكفرون بالمعاصي، ويخرجون علىٰ أئمة المسلمين وجماعتهم، وهم فرق متعددة، بعضها قد انقرض مثل الأزارقة والصفرية والنجدات، وبعضها ما زال إلىٰ اليوم وهم الإباضية وأكثر ما يتواجدون في عمان، كما يشمل اسم الخوارج كل من أخذ بأصولهم وسلك سبيلهم كجماعة التكفير والهجرة المتفرعة من جماعة الإخوان المسلمين الذين يربون =

وأشعرية[1]، .....

=

الشباب علىٰ الطعن في الحكام والعلماء بالقول والفعل، وأكثر ما نراهم في بعض الشباب الذين ليس لهم رصيد من العلم الشرعي، أو الذين لم يكتمل علمهم، ولم يتلقوا عن العلماء الربانيين وإنما يتتلمذ بعضهم علىٰ بعض، أو علىٰ الكتب التي فيها كدر دون الرجوع لأهل العلم الشرعي، أو علىٰ ما يضر ولا ينفع من بعض الجرائد والمجلات، كما نشاهدها في كثير من المثقفين وأصحاب الشعارات الذين لم يتفقهوا في الدين علىٰ نهج سليم، ولم يرفعوا بالعلم الشرعي رأسًا كما يجب عليهم؛ إنما رصيدهم العواطف، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

انظر: «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» للأشعري (١/ ٨٤-١١٣)، و«الفرق بين الفرق» للبغدادي (٥٤-٩٢)، و«الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم (٤/ ١٤٤-١٤٦)، و«التبصير في الدين» للإسفراييني (٤٥-٦٢)، و«الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ١١٤-١٣٨).

(١) **الأشاعرة**: وهم المنتسبون إلىٰ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٢٦٠-٣٢٣هـ)، من عقائدهم إثبات الأسماء الحسنىٰ، أما الصفات فهم يثبتون سبعًا فقط لدلالة العقل عليها.

ويقولون: الإيمان هو التصديق. ويميلون إلىٰ مذهب الجبرية في القدر.

انظر: رسالة السجزي في «الرد علىٰ من أنكر الحرف والصوت»، و«الفرق بين الفرق» للبغدادي (٣٠٩-٣٥٢)، و«الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم (٤/ ١٥٦-١٧٠) و(٥/ ٢١-٢٢ و٣٩-٤٠ و٤٧-٤٩)، و«الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٩٤-١٠٣)، و«الفتاوىٰ الكبرىٰ» (٦/ ٦٠٣-٦٦٤) وما بعدها، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٢/ ٢٠٢-٢٠٧)، و«المستدرك علىٰ مجموع الفتاوىٰ» (١/ ٨٥) لابن تيمية، و«فرق معاصرة» لغالب عواجي (٣/ ١٢٠٥-١٢٢٤)، و«الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (١/ ٨٣-٩٤).

وماتريدية[١]، وكلابية[٢]، ومرجئة[٣]، .....

(١) **الماتريدية**: نسبة إلىٰ محمد بن محمد بن محمود المعروف بأبي منصور الماتريدي السمرقندي، وقد توفي سنة ٣٣٣ هـ، وهم طائفة وافقت الأشاعرة في أمور وخالفتها في أمور أخرىٰ، معدودة من فقهاء الحنفية وما كان له أتباع في أول أمره، وإنما أحيا مذهبه بعض أتباعه بعد مدة طويلة من وفاته حتىٰ انتشر مذهبه.

انظر مقالاته في: «كتاب التوحيد» للماتريدي، «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٢٩٠) و(٧/ ٤٣١ و ٤٣٣ و٥١٠) و(٨/ ٤٣٨) و(١٦/ ٢٦٩)، و«المستدرك علىٰ المجموع» (٣/ ٢٠٧)، و«منهاج السنة النبوية» (٢/ ٣٦٢)، و«شرح الأصفهانية» (ص٢٧) لشيخ الإسلام ابن تيمية، و«فرق معاصرة» لغالب عواجي (٣/ ١٢٢٧-١٢٣٩)، و«الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (١/ ٩٥-١٠٦)، و«كتاب الماتريدية دراسة وتقويمًا» بتصرف من (ص٩٣-١٠٤).

(٢) **الكلابية**: هم أصحاب عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري، كان يثبت الأسماء والصفات، لكنه ينفي بعض الصفات الفعلية ويجعلها ذاتية، مثل صفة الكلام والرضا والسخط ونحوها.

ويقول: «إن الإيمان هو الإقرار بالله ﷻ وبكتبه وبرسله إذا كان ذلك عن معرفة وتصديق بالقلب».

وانفرد هو وفرقته بأن قالوا: ليس لله كلام مسموع، وأن جبريل ليس يسمع من الله شيئًا مما أداه إلىٰ رسله عليهم السلام، وإنما هو إلهام ألهمه ذلك من غير كلام.

انظر: «مقالات الإسلاميين» للأشعري (١/ ١٣٨-١٤٩ و٢٢٩-٢٣٠)، و(٢/ ٣٩٨-٣٩٩ و٤٢١-وما بعدها)، و«موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (١/ ٤٣٨-٤٥١)، و«عقائد الثلاث والسبعين فرقة» (١/ ٢٧٩).

(٣) **المرجئة**: وهم طوائف كثيرة، الغلاة وما دونهم: فمنهم القائلون: إنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة، ومنهم من يقول: الإيمان المعرفة بالقلب فقط.

=

وإخوانية[١]، وتبليغية[٢]، ونحو هؤلاء من الفرق المتعددة، التي اختارت الافتراق علىٰ الاجتماع علىٰ الحق.

والحق: أن الألفة والوئام بين الناس مقرونة بالسنة[٣]، وهو مطلب شرعي بقطع النظر عن الاتفاق في العقيدة والمنهج، وذلك لأن السنة تدعو إلىٰ ذلك، وأن الافتراق والخصام والنزاع مقرون بالبدع، فأهل البدع هم دائمًا دعاة الفرقة، وأهل الوقيعة في أهل العلم، والبغض لهم، والحق أن من أبغض عالمًا أو طالب علم؛ لأنه علىٰ الحق، فيخشىٰ عليه أن يسري بغضه هذا إلىٰ الحق نفسه، فيقع في الضلال المبين، ويحشر مع الخاسرين يوم الدين؛ لأنه ما أبغضه إلا لأنه يحمل الحق ويدعو إليه، ومن ثمَّ يحارب البدع التي هي ضد الحق، والحق أحق أن يتبع.

=

ومنهم من يقول: هو النطق باللسان، ومنهم من اختزل العمل من مسمىٰ الإيمان.

انظر: «مقالات الإسلاميين» (١/ ١١٤-١٢٩)، و«الفرق بين الفرق» (١٩٠-١٩٥)، و«الفصل» لابن حزم (٤/ ١٥٤-١٥٥)، و«التبصير في الدين» (٩٧-١٠٣).

(١) مضىٰ الكلام عليها في المسألة (٢٨).

(٢) هذه الطائفة أسسها محمد إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي الحنفي الماتوريدي -عقيدة-، الصوفي، المولود عام ١٣٠٢هـ، والمتوفىٰ عام ١٣٦٣هـ، كان سبب تأسيسها رؤيا منامية رآها، وجعل لأتباعه أصولًا خمسة يسيرون عليها لا يخالفونها، ومما يؤخذ عليهم إهمالهم توحيد العبادة، وتزهيدهم في العلم الصحيح، وشدة تعصبهم لشيوخ الديوبندية، وتضييع شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينهم، إلىٰ خرافات وبدع أخرىٰ.

انظر: «المورد العذب الزلال» للشيخ العلامة أحمد بن يحيىٰ النجمي رَحِمَهُ اللَّهُ، الباب العاشر.

(٣) انظر: «الاستقامة» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٤٢).

والمقصود: أن كل من ابتدع بدعة في قديم الزمان، وفي عصرنا، وفيما بعد عصرنا، فهم دعاة للفرقة، وهم الذين أخلوا بهذه الوصية الثمينة: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾، وكل من خرج عن نهج الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح[1]، فإنه يدخل في الأحزاب المتفرقة الذين ذمهم الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١٥٩].

وقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣١-٣٢]. ولها نظائر من القرآن الكريم.

فالحذرَ الحذرَ من الوقوع في البدع ومخالطة أهلها، والحذر من الاستماع إلىٰ تلبيساتهم وجدلهم لأنها داء، إن السلامة كل السلامة، في الاعتصام بالكتاب والسنة بالفهم الصحيح، فهم السلف الصالح -رحمهم الله- الذي لا يدرك إلا بالجد والاجتهاد في طلب الفقه في الدين، مع النية الصالحة، والحكمة في التحصيل والنشر.

* * *

(١) السلف الصالح، ويراد بهم الصحابة الكرام والتابعون لهم بإحسان وأتباع التابعين من أهل القرون الثلاثة الوارد ذكرهم في الحديث.
انظر: «مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام» (٦/ ٣٥٥) و(٢٠/ ٨٩).

الحَادِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: وَهِيَ مِن أَعجَبِ الآيَاتِ أَيضًا: مُعَادَاتُهُم الدِّينَ الَّذِي انتَسَبُوا إِلَيهِ غَايَةَ العَدَاوَةِ، وَمَحَبَّتُهُم دِينَ الكُفَّارِ الَّذِينَ عَادَوهُم وَعَادَوا نَبِيَّهُم وَفِتَنَهُم غَايَةَ المَحَبَّةِ، كَمَا فَعَلُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا أَتَاهُم بِدِينِ مُوسَىٰ عليه السلام، وَاتَّبَعُوا كُتُبَ السِّحرِ وَهِيَ مِن دِينِ آلِ فِرعَونَ.

الشرح:

وهذه المسألة الحادية والثلاثون من مسائل الجاهلية، وهي كما قال المؤلف من عجائب الله؛ أي: مما يُتعجَبُ منه، معاداتُهم الدين الذي انتسبوا إليه غاية العداوة، حيث إن اليهود ينتمون إلىٰ موسىٰ عليه السلام وينتسبون إليه، وهم مع ذلك يعادون محمدًا ﷺ، الذي أتاهم بدين كدين موسىٰ ويسبون دينه، الذي هو دين موسىٰ؛ لأن دعوة الأنبياء واحدة، وهي الدعوة إلىٰ التوحيد، وإن اختلفت شرائعهم في الفروع، فالأصل واحد كما قال النبي ﷺ: «**الأَنبِيَاءُ إِخوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُم شَتَّىٰ وَدِينُهُم وَاحِدٌ**»[1]؛ أي: أصل دينهم واحد -وهو توحيد الله، وعدم الإشراك به-، وإن اختلفت الشرائع التعبدية.

إذا علم هذا، فاعلم أن الجاهليين وكل من تشبه بهم، يعادون دين الإسلام الحق الذي أنزله الله -تبارك وتعالىٰ- في كتابه، ودعا إليه رسوله -عليه الصلاة والسلام- في سنته، ودعا إليه ورثته من بعده، فتجد أهل الجاهلية الكفار -علىٰ اختلاف أصنافهم من يهود، ونصارىٰ، ووثنيين[2]، .....

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣).

(٢) **الوثنية**: هي عبادة الوثن، والوثن هو الصَّنَمُ، كأسدٍ، وآسادٍ. هذا كلام الجوهري، وقال غيره: الوثنُ: ما كان غير مصوَّرٍ، وقيل: ما كان له جُثَّةٌ من خشبٍ أو حجر أو فضة، أو =

ومجوس[١]، وملاحدة[٢]-، تجدهم يبغضون الحق، وينصبون العداوة للحق ودعاته، فتبرَّأ المسلمون من صنيعهم هذا؛ لأنهم أعداء الله، وأعداء رسوله ﷺ، وأعداء المؤمنين، وأعداء الحق الذي لا عصمة إلا به، ولا نجاة إلا في التمسك به وسلوك طريقه؛ لأنه هو الطريق السوي، الذي من هدي إليه، فقد هدي إلىٰ صراط مستقيم.

=

جوهر، سواء كان مصوَّرًا أو غير مُصَوَّر، والصَّنَمُ: صورة بلا جُثةٍ، وقال ابن فارس في «المجمل»: الوثن: واحد الأوثان: وهي حجارَةٌ كانَت تُعبَدُ. اهـ من «المطلع علىٰ ألفاظ المقنع» للبعلي (ص٢٦٤).

قال في «تيسير العزيز الحميد» (ص١٦٢): «في (عروة المفتاح) الصنم: هو ما له صورة، والوثن: ما ليس له صورة. قلت: هذا هو الصحيح في الفرق بينهما، وقد جاء عن السلف ما يدل علىٰ ذلك».

وانظر: «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية (٧/ ٥٧)، و«تيسير العزيز الحميد» (ص٩٠)، «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٣/ ٥٦)، و«تاج العروس» للزبيدي (٣٢/ ٥٢٥).

(١) **المجوسية**: هي ديانة فارسية وثنية، تقدس النار وتقول بِالأَصلَينِ، وَهُمَا: النُّورُ وَالظُّلمَةُ، يَزعُمُونَ أَنَّ الخَيرَ مِن فِعلِ النُّورِ وَالشَّرَّ مِن فِعلِ الظُّلمَةِ، وهم طوائف شتىٰ.

انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (٢/ ٣٨-٤٩)، و«معالم السنن» للخطابي (٤/ ٣١٧) و«مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (٧/ ٧٥).

(٢) **الملاحدة**: من الإلحاد، قال ابن الأنباري في «الزاهر» (١/ ١٤٣): «والملحد معناه في كلام العرب: الجائر عن الحق.

قال الله ﷻ: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ معناه: يجورون في أسمائه. وأول ما يدخل في اسم الملحد الذين ينكرون وجود الخالق ويجحدون الرسل والبعث، وهم المعروفون بالدهرية.

انظر: «المصباح المنير» للفيومي (١/ ٢٥٦)، و«الملل والنحل» (٣/ ٧٩-٨٢).

فطوبىٰ لمن يحبون الحق وأهله، ويبغضون الباطل وذويه طاعة لله واتباعًا اتباعًا لرسوله، ونصرة للحق الذي جاءت به الرسل، ودعت إليه، وحذرت من مخالفته، وقد قال المولىٰ الكريم مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف:٤٣].

ومِنْ سَفَهِ الجاهليين: محبتهم دين الكفار، وهو الشرك بالله ﷻ، فكل جاهل يفضل الشرك علىٰ التوحيد، ويفضل الرذائل علىٰ الفضائل، ويفضل المعصية علىٰ الطاعة، ويفضل الشر علىٰ الخير، هذه أفعال الجاهليين.

والعكس بالعكس؛ فأصحاب الحق أتباعُ الكتاب والسنة بعكس ذلك، يفضلون التوحيد علىٰ الشرك، ويقدمونه ويهجرون الشرك وأهله، ويصرحون ببطلانه، ويقدمون الطاعة علىٰ المعصية؛ لأن الطاعة نور ومآل أهلها جنة عرضها السموات والأرض، والمعصية ظلمة في القلب، وظلمة في الوجه، ووهن في البدن، وظلمة في القبر، وظلمات يوم القيامة.

وهكذا يقدِّم المسلمون الصادقون في إسلامهم، الفضائل التي أتىٰ بها الإسلام، ويرفضون الرذائل التي كانت تعيش في حمأتها الجاهلية الأولىٰ، ومن تأسىٰ بهم وسلك مسلكهم إلىٰ يومنا هذا، من عبدة القبور، والطائفين حولها، والمستغيثين بأهلها في هذا الزمن، إلا من شاء الله -تبارك وتعالىٰ- من أهل توحيده وطاعته، وأتباع رسوله -عليه الصلاة والسلام-.

والمعلوم أن الجاهليين في كل زمان ومكان، يعادون الأنبياء وأتباعهم، وأن أهل التوحيد هم أتباع الأنبياء والدعاة بدعوتهم من قديم الزمان.

وبنو إسرائيل أتاهم موسىٰ عليه السلام وغيره بتوحيد الله، ودعاهم إلىٰ الإقرار بربوبيته؛ لأنه خالقهم ومالكهم، وأنه هو المعبود بحق، وما سواه فعبادته باطلة.

نعم؛ أتاهم بالتوحيد، فكل نبي من أنبياء الله ورسله، يأتي بادئَ ذي بدء بدعوة التوحيد، والخلوص من الشرك، فينصبون له العداوة والبغضاء -إلا من استجاب لدعوته-، ويتركون ما جاء به معاندين وجاحدين، ومستكبرين ومعرضين، ويتبعون الباطل، من كتب السحر والشعوذة، وكتب الضلال، وعادات الأولين -من الآباء والأجداد- أهل الجاهلية الصادين عن سبيل الله واتباع المرسلين، وسوف يجزون بما كانوا يعملون.

* * *

الثَّانِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: كُفرُهُم بِالحَقِّ إِذَا كَانَ مَعَ مَن لَا يَهوَونَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة:١١٣] الآيَة.

الشرح:

المسألة الثانية والثلاثون: فيها بيان كفرهم بالحق إذا كان مع من لا يهوونه، أي: إذا جاء الحق مع من لا يرتاحون له ولا يحبونه، فإنهم يرفضون الحق؛ لأنه جاء علىٰ لسان عدوهم كما يزعمون؛ كانوا ينتظرون أن يخرج النبي الموعود به منهم، فلما جاء من العرب؛ أنكروه وعادوه؛ وكذبوا بما جاء به الوحي المنير.

لذا؛ تجد أن أهل الانحراف -سواءً كان انحرافهم بالكفر أو بالبدع- بعضهم يخطئ بعضًا، ويدعي الصواب لنفسه، كما قال الله ﷻ عن اليهود والنصارىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة:١١٣].

كذلك الكفار علىٰ اختلاف نحلهم الباطلة، يدَّعون أن ما جاء به النبي ﷺ وأخذ به أهل الإيمان والتصديق، وأن الكفار ليسوا علىٰ شيء، وأنكروا القرآن، وأنه مفترىٰ، وأنه أساطير الأولين، وقالوا شعر أو كهانة أو سحر، إلىٰ غير ذلك من الأوصاف الذميمة، التي يتعالىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- عنها، ويتنزه القرآن الكريم عن تلك الأوصاف الذميمة، وقد نزه الله هذا القرآن الكريم عما ادعاه أولئك الكافرون بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٧-٧٩].

وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [يس:٦٩-٧٠].

فنزَّه الله ﷻ القرآن عن مقالات أولئك الجاهليين، الذين ما قدروا الله حق قدره، ولا قدروا كتابه حق قدره، ولا قدروا نبيه ﷺ حق قدره، وقبلهم من كان كذلك، وقد بين الله مواقفهم من كتبه المنزلة ورسله المرسلة؛ أي: مواقف أهل الكتاب وغيرهم: ممن كفر بالله وكتبه ورسله.

والحاصل: أنه يجب علىٰ كل مسلم ومسلمة، الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والإيمان بهما حق الإيمان، كما يجب عليهم تجنب سبيل المغضوب عليهم والضالين، في رد الحق ممن لا يهوونه، ولا يحمله بغضه لذلك الشخص أو العالم علىٰ رد ما معه من حق؛ بل يجب عليهم أن ينتفعوا به، وهذا ينطبق علىٰ بعض الجماعات في عصرنا الحاضر؛ فإنهم لا يقبلون الحق من السائرين علىٰ منهج السلف الصالح جملة وتفصيلًا؛ بينما تجدهم يتقبلون من زعمائهم ومنظريهم كل شيء، سواءً كان حقًّا أو باطلًا، وهذه الصفة قد تشبهوا فيها باليهود والنصارىٰ.

فالحذر الحذر -أيها المسلمون- من سلوك طريقتهم، أو التشبه بهم في فعالهم أو مقالهم؛ إذ قد ورد في السنة «**ومَن تشبه بقوم فهو منهم**»[1]؛ أي: فيما تشبه بهم فيه، وذلك خطر عظيم، يجب أن تفر منه أعظم من فرارك من الأسد؛ بل ومن النار المحرقة.

(١) سبق تخريجه (ص٥٣).

الثَّالِثَةُ وَالثَّلَاثُون: إِنكَارُهُم مَا أَقَرُّوا أَنَّهُ دِينُهُم، كَمَا فَعَلُوا فِي حَجِّ البَيت؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠].

الشرح:

المسألة الثالثة والثلاثون: في بيان إنكارهم ما أقرُّوا أنه من دينهم،كما فعلوا في حج البيت، ينكرون ما كان صوابًا موافقًا للحق، سواءً فيما يتعلق بحج بيت الله الحرام[1]، وما كانوا يفعلونه من مخالفة المسلمين، كعدم الوقوف بعرفة، وعدم ستر عوراتهم وهم يطوفون بالبيت، وعدم الرضا باستقبال القِبلة، التي وجه الله الأمة جمعاء إليها، كما فعل أهل الكتاب، وينكرون غير ذلك من مسائل الحج، التي خالفوا فيها المسلمين وأهل الحق؛ فذمهم الله -تبارك وتعالىٰ-، واعتبرهم سفهاء بقوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠].

وأما نبينا محمدﷺ وأتباعه: فإنهم اتبعوا ملة إبراهيم، كما أمرهم الله بقوله الحق: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

فهنيئًا لأهل الملة الحنيفية أتباع الخليلين محمد وإبراهيم -عليهما الصلاة والسلام-، وتبًّا للجاهليين السفهاء في كل زمان ومكان من الذين نصبوا العداوة للحق وأهله بدون برهان؛ بل بدافع عبادة الهوىٰ والشيطان.

---

(١) **قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح «عمدة الفقه» (٢/ ٢٢٠-٢٢١):** «وَأَمَّا كَونُ الحَجِّ وَالعُمرَةِ مِن دِينِ إِبرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهَذَا لَا شَكَّ فِيهِ، وَلَم يَزَل ذَلِكَ قُربَةً وَطَاعَةً مِن أَوَّلِ الإِسلَامِ، وَجَمِيعُ آيَاتِ القُرآنِ تَدُلُّ عَلَىٰ حُسنِ ذَلِكَ وَاستِحبَابِهِ، وَأَمَّا وُجُوبُهُ: فَلَا يُعلَمُ أَنَّهُ كَانَ وَاجِبًا فِي شَرِيعَةِ إِبرَاهِيمَ أَلبَتَّةَ، وَلَم يَكُن لِإِبرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَرِيعَةٌ يَجِبُ فِيهَا عَلَىٰ النَّاسِ، وَيُوَضِّحُ ذَلِكَ: أَنَّهُ لَم يَقُل أَحَدٌ أَنَّ الحَجَّ كَانَ وَاجِبًا مِن أَوَّلِ الإِسلَامِ».

الرَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ: أَنَّ كُلَّ فِرقَةٍ تَدَّعِي أَنَّهَا النَّاجِيَةُ فَأَكذَبَهُمُ الله بِقَولِهِ: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]. ثُمَّ بَيَّنَ الصَّوَابَ بِقَولِهِ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الآيَةَ. [البقرة:١١٢].

الشرح:

المسألة الرابعة والثلاثون: فيها بيان أن كل فرقة تدعي أنها الناجية، كما ادعت اليهود أنها هي علىٰ الحق وأن غيرهم علىٰ الباطل، وادعت النصارىٰ كذلك أنها هي علىٰ الحق وغيرها علىٰ الباطل، وادعت فرق الضلال من عبدة الأصنام بأنها صاحبة الحق، ولكن مجرد الدعوىٰ لا تنفع إلا ببرهان، والبرهان لابد أن يكون وحيًا من الله -تبارك وتعالىٰ- من كتاب وسنة، وأولئك الكافرون علىٰ اختلاف مللهم ونحلهم، لا برهان لهم علىٰ كفرهم، والمبتدعون لا برهان لهم علىٰ بدعهم، وإنما البرهان الساطع، القائم مع أهل الحق، ودعاة الحق، أتباع الرسل والأنبياء؛ لذا امتحن الله ﷻ أهل الجهل والكفر والضلال بقوله الحق: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٦٤]. عندما قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ثم بين الله -تبارك وتعالىٰ- من هم أهل الحق وأهل الصواب وأولياء الله حقًّا بقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١٢]. هذه هي الفرقة الناجية التي جاءت بشرطي قبول العمل: الإخلاص والصواب[1].

(١) وزاد شيخنا شرطًا ثالثًا في موضع آخر ألا وهو صحة المعتقد؛ حيث قال -حفظه الله-: =

فالإخلاص دل عليه قوله تعالىٰ: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾؛ يعني: أخلص دينه لله، وسلم من الشرك والموبقات.

والمتابعة دل عليها قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: متبع للرسول ﷺ.

بخلاف ما ادعته اليهودية والنصرانية والمجوس والمشركون؛ لأن هؤلاء دعواهم لا يدعمها برهان، وليست من الحق في شيء؛ بل قامت علىٰ الكفر الصريح، والدعاوىٰ الكاذبة.

فيا أهل الملة السمحة والشريعة الغراء: دوموا علىٰ ذلك صادقين متحرين الصواب مخلصين للعزيز الوهاب؛ فقد أمركم ربكم بذلك، ودعاكم نبيكم إليه، لتكونوا ملوكًا في جنات النعيم في جوار الملك القدوس العزيز الحكيم.

واجعلوا في مقدمة أعمالكم: الأساس الأعظم، ألا وهو توحيد الله في ربوبيته وتوحيده في ألوهيته وفي أسمائه وصفاته، والإيمان بكل ما يجب الإيمان به من أصول الدين وفروعه وحقوقه؛ لترضوا ربكم وتظفروا بسعادة الدارين؛ إذ لا تنال سعادة الدارين إلا بذلك، وفقنا الله وإياكم لفعل طاعته، وترك معصيته، إجلالًا له، وخشية من عقوبته، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط.

=

«زيادة الشرط الثالث زيادة في الإيضاح والتفصيل؛ وإلا فهو يدخل في الشرطين السابقين وله صور منها: أن الرجل قد يكون قبوريًا وثنيًا، ولكنه قد يأتي بالصلاة والعبادة علىٰ وجهها الصحيح -أي: صوابًا-، وهو في نفس الحال مخلصًا العمل لله، ولكنه فاسد الاعتقاد؛ أي: قبوري وثني. قال: وهذا له وجه من الصحة وهو ما اخترته».

وهو أيضًا اختيار العلامة الشيخ: محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه القيم «أضواء البيان» (٤/ ٩).

الخَامِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ: التَّعَبُّدُ بِكَشفِ العَورَاتِ؛ كَقَولِهِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨].

الشرح:

المسألة الخامسة والثلاثون: فيها إيضاح تعبدهم لله بكشف العورات، كما كانوا يفعلون في الطواف بالبيت، ومن قدم عليهم من الآفاق؛ فإنهم يعطونه من ثيابهم، فإن لم يجدوا ما يسترهم: طافوا بالبيت عراة في ظلمة الليل، وتقول المرأة:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحلُّه(١)

لذا؛ لما فرض الله ﷻ الحج علىٰ نبيِّه ﷺ، عام تسع علىٰ القول الصحيح(٢) لم يحج ذلك العام؛ لأنه لا يستطيع أن يشاهد ما عليه المشركون حينذاك، فأمَّر أبا بكر الصديق، وأردف بعلي رضي الله عنهما، وأذَّن عليٌّ في الناس: «ألا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»(٣).

وحج النبي ﷺ عام عشر حجة الوداع، ولم يحج بعدها؛ بل انتقل من حياة العمل، إلىٰ حياة الجزاء علىٰ العمل في الرفيق الأعلىٰ.

---

(١) أخرج مسلم (٣٠٢٨) عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول: من يعيرني تطوافًا، تجعله علىٰ فرجها، وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... فما بدَا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

(٢) انظر: «شرح عمدة الفقه» (٢/ ٢١٨-٢٢٠)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٦٠٦) لشيخ الإسلام ابن تيمية، و«زاد المعاد» للعلامة ابن القيم (٢/ ٩٦-٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٦٢٢)، ومسلم (١٣٤٧).

فالحمد لله علىٰ سطوع نور الإسلام، وعقيدة الإيمان، والبراءة من عقائد الجاهليين، أهل الكفر والطغيان، علىٰ اختلاف أنواعها وأشكالها، ومن يهدي الله فهو المهتدِ، ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا.

وأما تعبدهم بكشف عوراتهم؛ تقليدًا لآبائهم، وأجدادهم، وأهل بيئتهم: فهذا قد دل عليه القرآن الكريم، كما في قوله الحق: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾ [الأعراف:٢٨].

فكانوا يطوفون بالبيت عراة تعبدًا، وهي عبادة شيطانية، أملاها عليهم الهوىٰ، والشيطان، والنفس الأمارة بالسوء؛ لأن عبادة الرحمن ﷻ، لها شروطها، ولها كيفيتها، التي تتفق مع كرامة الإنسان ومع فضيلة الحياء والعفة، وهؤلاء الكفار لا دين لهم، ولا استحياء فيهم، لا من الله ولا من خلقه، فتراهم يتعبدون بالفواحش، ومنها طوافهم بالبيت عراة، كما هو معروف من تاريخ جاهليتهم.

ثم دعواهم دعوىٰ مكابرة، فكلما فعلوا فاحشة من الفواحش ومنكرًا من المنكرات: نسبوا ذلك إلىٰ آبائهم وأجدادهم، الذين يرون أنه من الشرف لهم، أن يسيروا علىٰ خطهم ومنهاجهم، ومن الزيغ عندهم: أن يتركوا ما كان عليه الآباء والأجداد قبلهم، ولما قالوا هذه المقالة: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾؛ رد الله عليهم كذبهم وافتراءهم بقوله الحق: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وحقًّا إن العبادة الصحيحة: هي التي علىٰ نهج الإسلام وكافة توجيهاته، لا كما يفعل الجاهليون.

فهنيئًا لمن عاش ويعيش في ظل شريعة الإسلام، علىٰ بصيرة من أمره، رجاء رحمة ربه، وخشية من عقوبته.

السَّادِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ: التَّعَبُّدُ بِتَحرِيمِ الحَلَالِ كَمَا تَعَبَّدُوا بِالشِّركِ.

الشرح:

المسألة السادسة والثلاثون: في بيان تعبدهم بتحريم الحلال علىٰ أنفسهم، وعلىٰ أتباعهم سفهًا وجهلًا؛ أي: بترك الأكل من بعض الأطعمة، كما تعبدوا بالشرك، والشرك حرام؛ لأنه أكبر الكبائر بنصوص الكتاب والسنة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

وقال ﷻ أيضًا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة:٧٢].

ومن السنة قول النبي ﷺ: «**أَلَا أُخبِرُكُم بِأَكبَرِ الكَبَائِرِ** -ثَلَاثًا-.

قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: **الإِشرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الوَالِدَينِ.**

قَالَ: وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا: **أَلَا وَقَولُ الزُّورِ.** فَمَا زَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ قُلنَا لَيتَهُ سَكَت».

لَفظُ حَدِيثِ بِشرٍ، وَفِي رِوَايَةِ ابنِ عُلَيَّةَ قَالَ: «كُنَّا جُلُوسًا عِندَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُم وَقَالَ: شَهَادَةُ الزُّورِ**». ثَلَاثًا[1]، فهو حرام؛ بل هو أعظم المحرمات علىٰ الإطلاق، ومن مات عليه فهو وقود لنار جهنم دائمًا وأبدًا، وبئس القرار.

وأولئك الكفار يتعبدون به فيتقربون بالذبائح لأصنامهم وأوثانهم، ويستغيثون بهم، ويستمطرون، ويستنصرون بها، وينذرون بها، إلىٰ غير ذلك مما هو معلوم في كل زمان من أزمان الجاهلية، التي يتوجهون فيها بالعبادة لغير الله ﷻ، وقد

(١) «صحيح البخاري» (٢٦٥٤)، و«صحيح مسلم» (٨٧) عن أبي بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه.

ذمهم الله -تبارك وتعالىٰ- في القرآن الكريم، في كثير من الآيات، وبين بطلان ما كانوا عليه، من مخالفة الحق وأهله، واتباع الهوىٰ وذويه.

فاحمدوا الله -أيها المسلمون-، الذي عافاكم مما ابتلوا به، من الزيغ عن أمر الله، ودعوة المرسلين، واشكروه علىٰ هدايته لكم لفعل ما يرضيه، ويورثكم دار كرامته في الدار الآخرة، التي نعتها الله بأكمل النعوت، ووصفها بأجمل الأوصاف، وأعدها لأهل الإيمان والتقوىٰ، قال تعالىٰ مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ في أصدق القول وأحسن الحديث، فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت:٣٠ - ٣٢].

وغير ذلك من الآيات، التي تشتمل علىٰ أوصاف الجنَّات تشويقًا للقلوب، وترغيبًا للنفوس.

كما نعتها نبي الرحمة والهدىٰ محمد -صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه-، ومن بهديه اهتدىٰ وهدىٰ، في عدد من الأحاديث الصحاح بما يتَّفقُ مع أوصافها في القرآن الكريم، منها ما جاء في الصحيحين[1] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٥٦)، و«صحيح مسلم» (٢٨٣١).

رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَونَ أَهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهِم كَمَا تَتَرَاءَونَ الكَوكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ مِنَ الأُفُقِ مِنَ المَشرِقِ أَوِ المَغرِبِ؛ لِتَفَاضُلِ مَا بَينَهُم.

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، تِلكَ مَنَازِلُ الأَنبِيَاءِ لَا يَبلُغُهَا غَيرُهُم.

قَالَ: بَلَىٰ وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرسَلِينَ».

وفي «صحيح البخاري»[1] رَحِمَهُ اللهُ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَينِ مَا بَينَهُمَا كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، فَإِذَا سَأَلتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِردَوسَ؛ فَإِنَّهُ أَوسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعلَىٰ الجَنَّةِ، وَفَوقَهُ عَرشُ الرَّحمَنِ، وَمِنهُ تَفَجَّرُ أَنهَارُ الجَنَّةِ».

وفي الصحيحين[2] أيضًا عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «جَنَّتَانِ مِن فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِن ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَينَ القَومِ وَبَينَ أَن يَنظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِم إِلَا رِدَاءُ الكِبرِ عَلَىٰ وَجهِهِ فِي جَنَّةِ عَدنٍ».

وثبت في الصحيحين[3] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمرَةٍ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُم عَلَىٰ أَشَدِّ كَوكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَمتَخِطُونَ، وَلَا يَتفُلُونَ، أَمشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشحُهُمُ المِسكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ، وَأَزوَاجُهُمُ الحُورُ العِينُ، أَخلَاقُهُم عَلَىٰ خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَىٰ صُورَةِ أَبِيهِم آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ».

وجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قُلنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا إِذَا رَأَينَاكَ رَقَّت قُلُوبُنَا،

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٩٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٨٧٨)، و«صحيح مسلم» (١٨٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٣٢٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨٣٤).

وَكُنَّا مِن أَهلِ الآخِرَةِ، وَإِذَا فَارَقنَاكَ أَعجَبَتنَا الدُّنيَا، وَشَمَمنَا النِّسَاءَ وَالأَولَادَ!

قَالَ: **لَو تَكُونُونَ** -أَو قَالَ: **لَو أَنَّكُم تَكُونُونَ**- **عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ عَلَىٰ الحَالِ الَّتِي أَنتُم عَلَيهَا عِندِي: لَصَافَحَتكُم المَلَائِكَةُ بِأَكُفِّهِم، وَلَزَارَتكُم فِي بُيُوتِكُم، وَلَو لَم تُذنِبُوا: لَجَاءَ اللهُ بِقَومٍ يُذنِبُونَ كَي يَغفِرَ لَهُم.**

قَالَ: قُلنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، حَدِّثنَا عَنِ الجَنَّةِ مَا بِنَاؤُهَا؟

قَالَ: **لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا المِسكُ الأَذفَرُ، وَحَصبَاؤُهَا اللُّؤلُؤُ وَاليَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعفَرَانُ، مَن يَدخُلُهَا يَنعَمُ وَلَا يَبأَسُ، وَيَخلُدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبلَىٰ ثِيَابُهُ، وَلَا يَفنَىٰ شَبَابُهُ.**

ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعوَتُهُم: الإِمَامُ العَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّىٰ يُفطِرَ، وَدَعوَةُ المَظلُومِ تُحمَلُ عَلَىٰ الغَمَامِ، وَتُفتَحُ لَهَا أَبوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ ﷻ: وَعِزَّتِي لَأَنصُرَنَّكَ وَلَو بَعدَ حِينٍ»[1].

وثبت في الصحيحين[2] أيضًا من حديث أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ لِلمُؤمِنِ فِي الجَنَّةِ لَخَيمَةً مِن لُؤلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلمُؤمِنِ فِيهَا أَهلُونَ، يَطُوفُ عَلَيهِمُ المُؤمِنُ فَلَا يَرَىٰ بَعضُهُم بَعضًا**».

وروىٰ أنس بن مالك ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «**يَدخُلُ أَهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ عَلَىٰ طُولِ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ المَلَكِ، عَلَىٰ حُسنِ يُوسُفَ، وَعَلَىٰ مِيلَادِ عِيسَىٰ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَعَلَىٰ لِسَانِ مُحَمَّدٍ، جُردٌ مُرَدٌ، مُكَحَّلُونَ**»[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٠٤٣-الرسالة)، وابن حبان (٧٣٨٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٨٧٩)، و«صحيح مسلم» (٢٨٣٨).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (ص١٦٣) برقم (٢١٨) بسند ضعيف، وله شواهد =

وجاء في «صحيح مسلم»[١] عن صهيب ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «إِذَا أُدخِلَ أَهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهلُ النَّارِ النَّارَ: نَادَىٰ مُنَادٍ يَا أَهلَ الجَنَّةِ: إِنَّ لَكُم عِندَ اللهِ مَوعِدًا.

فَيَقُولُونَ: مَا هُوَ؟ أَلَم تُثَقِّل مَوَازِينَنَا، وَتُبَيِّض وُجُوهَنَا، وَتُدخِلنَا الجَنَّةَ، وَتُنجِنَا مِنَ النَّارِ؟!

فَيَكشِفُ الحِجَابَ، فَيَنظُرُونَ إِلَىٰ اللهِ، فَوَاللهِ مَا أَعطَاهُمُ اللهُ شَيئًا هُوَ أَحَبَّ إِلَيهِم مِنَ النَّظَرِ إِلَيهِ».

وفي الصحيحين[٢] عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقطَعُهَا، وَاقرَءوا إِن شِئتُم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة:٣٠]».

وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ: أَعدَدتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَينٌ رَأَت، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَت، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلبِ بَشَر.

قَالَ أَبُو هُرَيرَةَ: اِقرَءوا إِن شِئتُم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]»[٣].

وورد في صحيح الإمام مسلم[٤] رَحِمَهُ اللهُ ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

=

عن معاذ بن جبل وأبي هريرة والمقدام بن معديكرب رضي الله عنهم، انظرها في «صحيح الترغيب والترهيب» للألباني (٣/ ٢٥٦/ ٣٦٩٨ و٣٦٩٩ و٣٧٠٠ و٣٧٠١).

(١) «صحيح مسلم» (١٨١).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٨٨١) واللفظ له، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٤) برقم (٢٨٣٥).

قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأكُلُ أَهلُ الجَنَّةِ وَيَشرَبُونَ، وَلَا يَمتَخِطُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَبُولُونَ، وَلَكِن طَعَامُهُم ذَاكَ جُشَاءٌ كَرَشحِ المِسكِ، يُلهَمُونَ التَّسبِيحَ وَالتَّكبِيرَ كَمَا تُلهَمُونَ النَّفَسَ».

وفي الصحيحين[١] من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمرَةٍ تَدخُلُ الجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدرِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَىٰ أَضوَأِ كَوكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امرِئٍ مِنهُم زَوجَتَانِ اثنَتَانِ، يُرَىٰ مُخُّ سُوقِهِمَا مِن وَرَاءِ اللَّحمِ، وَمَا فِي الجَنَّةِ أَعزَبُ».

وفي الصحيحين[٢] عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لَغَدوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَو رَوحَةٌ خَيرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوسِ أَحَدِكُم أَو مَوضِعُ قِدِّهِ -سَوطِهِ- مِنَ الجَنَّةِ خَيرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا، وَلَو اطَّلَعَتِ امرَأَةٌ مِن نِسَاءِ أَهلِ الجَنَّةِ إِلَىٰ الأَرضِ لَمَلَأَت مَا بَينَهُمَا رِيحًا، وَلَأَضَاءَت مَا بَينَهُمَا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَىٰ رَأسِهَا خَيرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا».

وجاء في مسند الشافعي[٣] عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَتَانِي جِبرِيلُ وَفِي كَفِّهِ كَالمِرآةِ البَيضَاءِ يَحمِلُهَا، فِيهَا نُكتَةٌ.

فَقُلتُ: مَا هَذِهِ الَّتِي فِي يَدِكَ يَا جِبرِيلُ؟

فَقَالَ: هَذِهِ الجُمُعَةُ؟

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٥٤) بنحوه، و«صحيح مسلم» (٢٨٣٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٧٩٦) واللفظ له، و«صحيح مسلم» (١٨٨٠).

(٣) «مسند الشافعي» بترتيب السندي (١/ ٢٧٨-٢٧٩شفاء العي)، والحديث في «الأمّ» للشافعي (١/ ٢٠٨).

قُلتُ: مَا الجُمُعَةُ؟

قَالَ: لَكُم فِيهَا خَيرٌ كَثِيرٌ.

قُلتُ: وَمَا يَكُونُ لَنَا فِيهَا؟

قَالَ: يَكُونُ عِيدًا لَكَ وَلِقَومِكَ مِن بَعدِكَ، وَيَكُونُ اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ تَبَعًا لَكَ.

قُلتُ: وَمَا لَنَا فِيهَا؟

قَالَ: لَكُم فِيهَا سَاعَةٌ لَا يَسأَلُ اللهَ عَبدٌ فِيهَا شَيئًا هُوَ لَهُ قسمٌ إِلَّا أَعطَاهُ إِيَّاهُ، أَو لَيسَ لَهُ بِقسمٍ إِلَّا ادَّخَرَ لَهُ فِي آخِرَتِهِ مَا هُوَ أَعظَمُ مِنهُ.

قُلتُ: مَا هَذِهِ النُّكتَةُ الَّتِي هِيَ فِيهَا؟

قَالَ: هِيَ السَّاعَةُ وَنَحنُ نَدعُوهُ يَومَ المَزِيدِ.

قُلتُ: وَمَاذَا يَا جِبرِيلُ؟

قَالَ: إِنَّ رَبَّكَ اتَّخَذَ فِي الجَنَّةِ وَادِيًا فِيهِ كُثبَانٌ مِن مِسكٍ، فَإِذَا كَانَ يَومُ الجُمُعَةِ هَبَطَ مِن عِلِّيِّينَ عَلَىٰ كُرسِيِّهِ فَيَحُفُّ الكُرسِيَّ بِكَرَاسِيَّ مِن نُورٍ، فَيَجِيءُ النَّبِيُّونَ حَتَّىٰ يَجلِسُوا عَلَىٰ تِلكَ الكَرَاسِي، وَيَحُفُّ الكَرَاسِيَّ بِمَنَابِرَ مِن نُورٍ مِن ذَهَبٍ مُكَلَّلَةٍ بِالجَوَاهِرِ، ثُمَّ يَجِيءُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ حَتَّىٰ يَجلِسُوا عَلَىٰ تِلكَ المَنَابِرِ، ثُمَّ يَنزِلُ أَهلُ الغُرَفِ مِن غُرَفِهِم حَتَّىٰ يَجلِسُوا عَلَىٰ تِلكَ الكُثبَانِ.

ثُمَّ يَتَجَلَّىٰ لَهُم ﷻ فَيَقُولُ: أَنَا الَّذِي صَدَقتُكُم وَعدِي، وَأَتمَمتُ عَلَيكُم نِعمَتِي، وَهَذَا مَحَلُّ كَرَامَتِي! فَسَلُونِي، فَيَسأَلُونَهُ حَتَّىٰ تَنتَهِيَ رَغبَتُهُم، فَيَنفَتِحُ لَهُم فِي ذَلِكَ مَا لَا عَينٌ رَأَت، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَت، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلبِ بَشَرٍ، وَذَلِكَ بِمِقدَارِ مُنصَرَفِكِم مِنَ الجُمُعَةِ، ثُمَّ يَرتَفِعُ عَلَىٰ كُرسِيِّهِ ﷻ، وَيَرتَفِعُ مَعَهُ النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ وَيَرجِعُ أَهلُ الغُرَفِ إِلَىٰ غُرَفِهِم، وَهِيَ لُؤلُؤَةٌ بَيضَاءُ وَزَبَرجَدَةٌ خَضرَاءُ، وَيَاقُوتَةٌ حَمرَاءُ غُرَفُهَا وَأَنهَارُهَا وَأَبوَابُهَا مُطَّرِدَةٌ فِيهَا وَأَزوَاجُهَا وَخَدَمُهَا

وَثِمَارُهَا مُتَدَلِّيَاتٌ فِيهَا فَلَيسَ إِلَىٰ شَيءٍ بِأَحوَجَ مِنهُم إِلَىٰ يَومِ الجُمُعَةِ لِيَزدَادُوا نَظرًا إِلَىٰ رَبِّهِم، وَيَزدَادُوا مِنهُ كَرَامَةً».

قال ابنُ القيِّم عقب إيراد هذا الحديث: «هذا حديث كبير عظيم الشأن، رواه أئمَّةُ السنَّة وتلقَّوه بالقبول، وجمَّل الشافعيُّ به مسنده إذ رواه فيه»[1].

ولعلِّي أكتفي بِهذا القدر الذي أوردته من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ في أوصاف الجنَّات في هذا البحث، وهو قليل من كثير، وغيض من فيض، يعلم ذلك من كان له اتصال متواصل بقراءة وتفهُّم القرآن الكريم، وكتب التفاسير المشهورة، وارتباطٌ قويٌّ بكتب السنَّة المطهَّرة، بالإضافة إلىٰ إدراكه الدقيق، وفهمه العميق للغاية العظمىٰ التي يجب أن يسعىٰ كل مسلم لتحقيقها، ومعرفته الصحيحة للحكمة التي خُلق الإنسان من أجلها، والله المستعان.

ورحم الله الإمام ابن القيم، الذي ارتوىٰ من هذه النصوص الصحيحة، فتفجَّرت ينابيعُ شعره، وتدفَّق جميل نثره في وصف الجنات العاليات الغاليات، فمن الشعر قولُه:

ولله بـــرد العـــيش بـــين خـــيامها ... وروضـاتِها والثغر في الروض يبسمُ

ولله واديهـــا الـــذي هـــو مـــوعد الـــ ... مـزيد لـوفد الحـب لـو كـنت مـنهمُ

بـــذيالك الـــوادي يهـــيم صـــبابة ... محـــب يـــرىٰ أن الـــصبابة مغـــنمُ

ولله أفـــراح المحبـــين عـــندما ... يخاطـــبهم مـــن فـــوقهم ويـــسلمُ

ولله أبـــصار تـــرىٰ الله جهـــرة ... فـلا الـضيم يغـشاها ولا هـي تـسأمُ

فـيا نظـرة أهـدت إلـىٰ الـوجه نـضرة ... أمـن بعـدها يـسلو المحـب المتـيمُ

---

(١) «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» (ص٢١٩).

ولله كم من خيرة إن تبسمت ... أضاء لها نور من الفجر أعظمُ
فيا لذة الأبصار إن هي أقبلت ... ويا لذة الأسماع حين تكلمُ
ويا خجلة الغصن الرطيب إذا انثنت ... ويا خجلة الفجرين حين تبسمُ
فإن كنت ذا قلب عليل بحبها ... فلم يبق إلا وصلها لك مرهمُ
ولاسيما في لثمها عند ضمها ... وقد صار منها تحت جيدك معصمُ
تراه إذا أبدت له حسن وجهها ... يلذ به مثل الوصال وينعمُ
تفكه منها العين عند امتلائها ... فواكه شتىٰ طلعها ليس يعدمُ
عناقيد من كرم وتفاح جنة ... ورمان أغصان به القلب مغرمُ
فيا خاطب الحسناء إن كنت راغبا ... فهذا زمان المهر فهو المقدمُ
وكن مبغضًا للخائنات لحبها ... فتحظىٰ بِها من دونِهن وتنعمُ
وصم يومك الأدنىٰ لعلك في غد ... تفوز بعيد الفطر والناس صومُ
وإن ضاقت الدنيا عليك بأسرها ... ولم يك فيها منزل لك يعلمُ
فحي علىٰ جنات عدن فإنَّها ... منازلنا الأولىٰ وفيها المخيمُ
وحي علىٰ السوق الذي فيه يلتقي ... المحبون ذاك السوق للقوم يعلمُ
فما شئت خذ منه بلا ثَمن له ... فقد أسلف التجار فيه وأسلموا
وحي علىٰ يوم المزيد الذي به ... زيادة قرب العرض فاليوم موسمُ
وحي علىٰ واد هنالك أفيح ... وتربته من أذفر المسك أعظمُ
منابر من نور هناك وفضة ... ومن خالص العقيان لا تتفصمُ
وكثبان مسك قد جعلن مقاعدا ... لمن دون أصحاب المنابر يعلمُ

فبينا همو في عيشهم وسرورهم ... وأرزاقهم تجري عليهم وتقسمُ
إذا هم بنور ساطع أشرقت له ... بأقطارها الجنات لا يتوهمُ
تجلىٰ لهم رب السموات جهرة ... فيضحك فوق العرش ثم يكلمُ
سلام عليكم يسمعون جميعهم ... بآذانِهم تسليمه إذ يسلمُ
يقول سلوني ما اشتهيتم فكل ما ... تريدون عندي إنني أنا أرحمُ
فقالوا جميعًا نحن نسألك الرضا ... فأنت الذي تولىٰ الجميل وترحمُ
فيعطيهم هذا ويشهد جمعهم ... عليه تعالىٰ الله فالله أكرمُ
فيا بائعًا هذا ببخس معجل ... كأنك لا تدري بلىٰ سوف تعلمُ
فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ... أو كنت تدري فالمصيبة أعظمُ[1]

ومن نثره في وصف الجنات قولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكيف يقدر قدر دار غرسها الله بيده، وجعلها مقرًّا لأحبابه وأوليائه، وملأها من محبَّته رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، وملكها بالملك الكبير، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهَّرها من كل عيب وآفة ونقص.

فإن سألت عن أرضها وتربتها؛ فهي المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها؛ فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن بلاطها؛ فهو المسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها؛ فهو اللؤلؤ والجوهر، وإن سألت عن بنائها؛ فلبنة من فضة ولبنة من ذهب، وإن سألت عن أشجارها؛ فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة، لا من الحطب والخشب.

---

(١) «حادي الأرواح» (٧-١٢).

وإذا سألت عن ثمرها؛ فأمثال القلال، ألين من الزبد، وأحلىٰ من العسل، وإن سألت عن ورقها؛ فأحسن ما يكون من رقائق الحلل، وإن سألت عن أنهارها؛ فأنهارٌ من لبن لَم يتغيَّر طعمُه، وأنهار من خمر لذَّةٍ للشاربين، وأنهار من عسل مصفًّىٰ، وإن سألت عن طعامهم؛ ففاكهة مما يتخيَّرون، ولحم طير مما يشتهون، وإن سألت عن شرابِهم؛ فالتسنيم والزنجبيل والكافور، وإن سألت عن آنيتهم؛ فآنية الذهب والفضة في صفاء القوارير.

وإن سألت عن سعة أبوابِها؛ فبين المصراعين أربعين من الأعوام، وسيأتي وليأتينَّ عليه يومٌ وهو كظيظ من الزحام، وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها؛ فإنَّها تستفز بالطرب من لمن يسمعها، وإن سألت عن ظلِّها؛ ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المُجِدُّ المسرع في ظلها مائة عام لا يقطعها، وإن سألت عن أدنىٰ أهلها سعتها؛ فأدنىٰ أهلها يسير في ملكه وسرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألفي عام، وإن سألت عن خيامها وقبابِها؛ فالخيمة الواحدة من درَّة مجوَّفة طولها ستون ميلًا من تلك الخيام، وإن سألت عن علاليها وجواسقها؛ فهي غرف من فوقها غرفٌ مبنية تجري من تحتها الأنهار، وإذا سألت عن ارتفاعها؛ فانظر إلىٰ الكوكب الطالع أو الغارب في الأفق الذي لا تكاد تناله الأبصار.

وإن سألت عن لباس أهلها؛ فهو الحرير والذهب، وإن سألت عن فرشها؛ فبطائنها من استبرق مفروشة في أعلىٰ الرتب، وإن سألت عن أرائكها؛ فهي الأسِرَّة عليها البشخانات وهي الحجال مزوَّدة مزرَّرة بأزرار الذهب، فما لها من خروج فروج ولا ظلال خلال، وإن سألت عن وجوه أهلها وحسنهم؛ فعلىٰ صورة القمر، وإن سألت عن أسنانهم؛ فأبناء ثلاث وثلاثين علىٰ صورة آدم عليه السلام أبي البشر، وإن سألت عن سماعهم؛ فغناء أزواجهم من الحور العين، وأعلىٰ من

سماع أصوات الملائكة والنبيِّين، وأعلىٰ منهما خطابُ ربِّ العالمين، وإن سألت عن مطاياهم التي يتزاورون عليها؛ فنجائب -إن شاء الله- مما شاء الله، تسير بِهم حيث شاءوا من الجنات الجنان، وإن سألت عن حليِّهم وشاراتِهم؛ فأساور الذهب واللؤلؤ علىٰ الرءوس ملابس التيجان.

وإن سألت عن غلمانِهم؛ فولدان مخلَّدون كأنَّهم لؤلؤ مكنون، وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم؛ فهنَّ الكواعب الأتراب، اللاتي جرىٰ في أعضائهن ماءُ الشباب، تجري الشمس من محاسن وجهها إذا برزت، ويضيء البرق من بين ثناياها إذا ابتسمت، وإذا قابلت حِبَّها فقل ما تشاء من تقابل النيِّرين! وإذا حادثته فما ظنك بمحادثة الحِبَّين! وإن ضمَّها إليه فما ظنُّك بتعانق الغُصنين الغَضَّين! يرىٰ وجهه في صحن خدِّها كما يرىٰ في المرآة التي جلاها صيقلها، ويرىٰ مخَّ ساقها من وراء اللحم، ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا حللها، ولو اطلعت علىٰ الدنيا لملأت ما بين السماء والأرض ريحًا، ولنصيفها ونصيفها علىٰ رأسها خير من الدنيا وما فيها...»[1].

إلىٰ أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإن سألت عن السنِّ؛ فأترابٌ في أعدل سنِّ الشباب، وإن سألت عن الحُسن؛ فهل رأيت الشمس والقمر؟! وإن سألت عن الحدق؛ فأحسن سواد، في أصفىٰ بياض، في أحسن حوَر، وإن سألت عن القُدود؛ فهل رأيت أحسن من الأغصان؟! وإن سألت عن النُّهود؛ فهُنَّ الكواعب نُهودهن كالعصف وكألطف الرمَّان، وإن سألت عن اللون؛ فكأنه الياقوت والمرجان، وإن سألت عن حسن الخلق؛ فهنَّ الخيرات الحسان، اللاتي جُمع لهن بين الحسن والإحسان.

---

(١) المصدر السابق (٢٨٠-٢٨٢).

فما ظنُّك بامرأة إذا ضحكت في وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها، وإذا انتقلت من قصر إلىٰ قصر، قلت: هذه الشمس متنقلة في بروج فلكها، وإذا حاضرت زوجها فيا حسن تلك المحاضرة! وإن خاصرته فيا حسن تلك المعانقة والمخاصرة!

وإذا سألت عن يوم المزيد، وزيارة العزيز الحميد، ورؤية وجهه المنزَّه عن التمثيل والتشبيه كما ترىٰ الشمس في الظهيرة، والقمر ليلة البدر، كما تواتر ذلك عن الصادق المصدوق النقل فيه، وذلك موجود في الصحاح والسنن والمسانيد، فاستمع وقد ثبت في الصحاح والسنن والمسانيد: أَنَّ مُنَادِيًا «يَومَ يُنَادِي المُنَادِي يَومَ القِيَامَةِ: يَا أَهلَ الجَنَّةِ إِنَّ رَبَّكُم -تبارك وتعالىٰ- يَستَزِيرُكُم، فَحَيَّ عَلَىٰ زِيَارَتِهِ!!

فَيَقُولُونَ: سَمعًا وَطَاعَةً، وَيَنهَضُونَ إِلَىٰ الزِّيَارَةِ مُبَادِرِينَ، فَإِذَا النَّجَائِبُ قَد أُعِدَّت لَهُم، فَيَستَوُونَ عَلَىٰ ظُهُورِهَا مُسرِعِينَ، حَتَّىٰ إِذَا انتَهَوا إِلَىٰ الوَادِي الأَفيَحِ الَّذِي جُعِلَ لَهُم مَوعِدًا، وَجُمعُوا هُنَاكَ فَلَم يُغَادِرِ الدَّاعِي مِنهُم أَحَدًا، أَمَرَ الرَّبُّ -تبارك وتعالىٰ- بِكُرسِيِّهِ فَنُصِبَ هُنَاك، ثُمَّ نُصِبَ لَهُم مَنَابِرُ مِن نُورٍ، وَمَنَابِرُ مِن لُؤلُؤٍ، وَمَنَابِرُ مِن زَبَرجَدٍ، وَمَنَابِرُ مِن ذَهَبٍ، وَمَنَابِرُ مِن فِضَّةٍ.

وَجَلَسَ أَدنَاهُم -حَاشَاهُم أَن يَكُونَ فِيهِم دَنِيٌّ- عَلَىٰ كُثبَانِ المِسكِ، فَمَا يَرَونَ أَنَّ أَصحَابَ الكَرَاسِي فَوقَهُم فِي العَطَايَا، حَتَّىٰ إِذَا استَقَرَّت بِهِم مَجَالِسُهُم، وَاطمَأَنَّت بِهِم مَسَاكِنُهُم نَادَىٰ المُنَادِي: يَا أَهلَ الجَنَّةِ، إِنَّ لَكُم عِندَ اللهِ مَوعِدًا، يُرِيدُ أَن يُنجِزَكُمُوهُ!

فَيَقُولُونَ: مَا هُوَ؟ أَلَم يُبَيِّض وُجُوهَنَا، وَيُثقِل مَوَازِينَنَا، وَيُدخِلنَا الجَنَّةَ، وَيُزَحزِحنَا عَنِ النَّارِ؟ فَبَينَمَا هُم كَذَلِكَ، إِذ سَطَعَ لَهُم نُورٌ أَشرَقَت لَهُ الجَنَّةُ، فَرَفَعُوا رُءوسَهُم، فَإِذَا الجَبَّارُ -جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَت أَسمَاؤُهُ- قَد أَشرَفَ عَلَيهِم مِن فَوقِهِم، وَقَالَ: يَا أَهلَ الجَنَّةِ سَلَامٌ عَلَيكُم، فَلَا تُرَدُّ هَذِهِ التَّحِيَّةُ بِأَحسَنَ مِن

قَولِهِم: اللَّهُمَّ أَنتَ السَّلَامُ، وَمِنكَ السَّلَامُ، تَبَارَكتَ يَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكرَامِ.

فَيَتَجَلَّىٰ لَهُمُ الرَّبُّ -تبارك وتعالىٰ- يَضحَكُ إِلَيهِم وَيَقُولُ: يَا أَهلَ الجَنَّةِ فَيَكُونَ أَوَّلَ مَا يَسمَعُونَ مِنهُ تَعَالَىٰ: أَينَ عِبَادِيَ الَّذِينَ أَطَاعُونِي بِالغَيبِ وَلَم يَرَونِي، فَهَذَا يَومُ المَزِيدِ؟ فَيَجتَمِعُونَ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: أَن قَد رَضِينَا، فَارضَ عَنَّا!

فَيَقُولُ: يَا أَهلَ الجَنَّةِ إِنِّي لَو لَم أَرضَ عَنكُم لَم أُسكِنكُم جَنَّتِي، هَذَا يَومُ المَزِيدِ، فَسَلُونِي!

فَيَجتَمِعُونَ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: أَرِنَا وَجهَكَ نَنظُرُ إِلَيهِ! فَيَكشِفُ لَهُمُ الرَّبُّ ﷻ الحُجُبَ، وَيَتَجَلَّىٰ لَهُم، فَيَغشَاهُم مِن نُورِهِ مَا لَولَا أَنَّ اللهَ قَضَىٰ أَلَّا يَحتَرِقُوا، وَلَا يَبقَىٰ فِي ذَلِكَ المَجلِسِ أَحَدٌ إِلَّا حَاضَرَهُ رَبُّهُ تَعَالَىٰ مُحَاضَرَةً، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَقُولُ: يَا فُلَانُ! أَتَذكُرُ يَومَ فَعَلتَ كَذَا -يُذَكِّرُهُ بِبَعضِ غَدَرَاتِهِ فِي الدُّنيَا-؟!

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَم تَغفِر لِي؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ، بِمَغفِرَتِي بَلَغتَ مَنزِلَتَكَ هَذِهِ»[1].

---

(١) روي بعض هذا الكلام في حديث مرفوع عن حذيفة ﷺ، أخرجه ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (ص٢١٥-٢١٧) برقم (٣٣٥)، قال ابن الجوزي في «العلل» (١/ ٤٦٠): «هذا حديث لا يصح».

وأخرجه البزار في «مسنده» (٢٨٨١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (ج١٠/ ص٧٨٠- بغية الرائد): «فيه القاسم بن مطيب وهو متروك». وقال الألباني: «ضعيف جدًّا». «ضعيف الترغيب والترهيب» (ج٢/ ص٢٥٢) برقم (٢٢٤٥).

ويروىٰ أيضًا نحو هذا الكلام في حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه الترمذي (٢٥٤٩)، وابن ماجه (٤٣٣٦). قال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

والحديث ضعفه أحمد والدارقطني وأبو أحمد الحاكم وأبو يعلىٰ الخليلي والألباني.

انظر: «مسائل الإمام أحمد» برواية أبي داود (ص٣٩١) رقم (١٨٧٤)، و«العلل» للدارقطني

فيا لذَّة الأسماع بتلك المحاضرة! ويا قرَّة عيون الأبرار بالنظر إلىٰ وجهه الكريم في الدار الآخرة! ويا ذِلَّة الراجعين بالصفقة الخاسرة!

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٥]»[1].

ورحم الله علامة عصره، وقدوةَ من جاء من بعده الشيخَ حافظ بن أحمد الحكمي[2]؛ إذ وصف الجنة والنفوس المطمئنة الوارثة للنعيم المقيم في جنات النعيم فقال:

فإن تك من أهل السعادة والتقىٰ ... فإن لها الحسنىٰ بحسن فعالها

تفوز بجنات النعيم وحورها ... وتحبر في روضاتِها وظلالها

وترزق مما تشتهي من نعيمها ... وتشرب من تسنيمها وزلالها

وإن لهم يوم المزيد لموعدا ... زيادة زلفىٰ غيرهم لا ينالها

وجوهٌ إلىٰ وجه الإله نواظر ... لقد طالَما بالدمع كان ابتلالها

=

(ج٧/ ص٢٧٥-٢٧٦)، و«الإرشاد» للخليلي -بتجزئة السلفي- (ج١/ ص٤٤٧)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (ج٣٤/ ص٥٧)، و«السلسلة الضعيفة» للألباني (١٧٢٢).

(١) المصدر السابق (٢٨٢-٢٨٤) باختصار.

(٢) حافظ بن أحمد حكمي ولد سنة ١٣٢٤هـ لازم الشيخ عبد الله القرعاوي ودرس عليه، كان حافظًا ذكيًّا، شاعرًا مجودًا، أثنىٰ عليه شيخه، وطلب منه التأليف، فألف كتبًا منها، «معارج القبول شرح سلم الوصول»، و«أعلام السنة المنشورة»، و«دليل أرباب الفلاح لتحقيق فن الاصطلاح»، انظر: ترجمة ولده له في مقدمة «معارج القبول» (١/ س-ظ/ المطبعة السلفية).

تجلَّىٰ لها الربُّ الرحيم مسلِّما ... فيزداد من ذاك التجلِّي جمالها

بِمقعد صدق حبذا الجار ربّهم ... ودار خلود لَم يخافوا زوالها

فواكهها مما تلَذُّ عيونِهم ... وتطرد الأنهار بين خلالها

علىٰ سرر موضونة ثم فرشهم ... كما قال فيها ربُّنا واصفًا لها

بطائنها إستبرق كيف ظنكم ... ظواهرها لا منتهىٰ لجمالها[1]

قلت: وإن في تلك الأوصاف لروضات الجنات، التي تكاد نفوس الصالحين تطير شوقًا إليها، لأعظم حافز علىٰ العمل الصالح المبرور، الذي يكون سببًا في تبوُّء منازلها، ووسيلة إلىٰ التنعم بأصناف النعيم فيها، علىٰ سبيل الخلود الدائم، والحبور السرمدي الكامل، وكأنني بأهلها يردِّدون:

لك الشكر يا ربَّ العباد لك الثنا ... أنت الذي وفَّقتنا وأعنتنا

علىٰ فعل ما يرضيك ثم حبَوتنا ... بالقرب منك ما أجلَّك محسنا

غرست لنا دار المقامة مسكنا ... ورضيت عنا ذا الجلال وذا الغنىٰ

فها نحن في دار النعيم تحفُّنا ... روضاتُها مما اشتهته نفوسنا

أورثتنا أرض الجنان تكرُّما ... ومن قبل ذا واعدتنا فصدقتنا

ولعل عبقريًّا حازمًا يقول: لقد أسمعتنا شيئًا من صفات دار النعيم مدللًا عليها بخير الأدلة وأزكاها، منها الأدلة القرآنية، ومنها الأحاديث الصحاح النبوية، والحسان الجياد، ومن استمد منها من وصف العلماء، وإننا معشر القراء لنرغب أن تورد لنا كذلك أدلة تتعلق بوصف النار، وشر ما فيها من أنواع العذاب

---

(١) هذه أبيات من «القصيدة الهائية» للشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ.

والنكال؛ لنكون راغبين فيما عند الله من النعيم المقيم، وخائفين مما أعده لأهل الكفر والمشركين المفسدين.

وأقول تلبية لهذا الطلب: لقد وصف الله النار بأوصاف مخيفة ومفجعة، ووصف أهلها بالبؤس، وشدة النكال، وسوء الحال، بما لا مزيد عليه، بحيث لو تُلي علىٰ شمِّ الجبال لتصدَّعت خوفًا ووجلًا، من ذي العزة والجلال؛ إذ قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء:٥٦].

وقال -عز من قائل-: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٖ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس:٢٧].

وقال -جل وعلا-: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٧].

وقال -عز شأنه-: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾ [الكهف:٢٩].

وقال -تبارك وتعالىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَۖ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ

وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر:٣٦-٣٧].

وقال -جلَّت عظمته-: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف:٧٤-٧٨].

وغير ذلك من الآيات، التي جاءت تحمل في جملها التخويف بالوعيد الشديد لكل من تجرَّأ علىٰ معاصي الله، ولَم يبال بأوامر الله، ولَم يكترث بذكر الوعد والوعيد، ذلك لأنه سلَّم نفسه للشيطان وحزبه، واستنكف عن اتباع الهدىٰ، نابذًا أمر ربِّه وراء ظهره، ولما كانت السنَّة المطهَّرة هي الوحي الثاني، فقد وصفت فيها النار دار الأشقياء بما اتفق مع وصفها في القرآن الكريم، إذ الكل من مشكاة واحدة.

فقد جاء في الصحيحين[١] عن أبي هريرة ﷺ: عن النبيِّ ﷺ قال: «**نَارُكُم هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابنُ آدَمَ جُزءٌ مِن سَبعِينَ جُزءًا مِن حَرِّ جَهَنَّمَ**.

قَالُوا: وَاللهِ إِن كَانَت لَكَافِيَةً.

قَالَ: **فَإِنَّهَا فُضِّلَت عَلَيهَا بِتِسعَةٍ وَسِتِّينَ جُزءًا كُلُّهَا مِثلُ حَرِّهَا**».

وفي «صحيح مسلم»[٢] عن أبي سعيد ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ أَدنَىٰ أَهلِ النَّارِ عَذَابًا، يَنتَعِلُ بِنَعلَينِ بِنَعلٍ مِن نَارٍ، يَغلِي دِمَاغُهُ مِن حَرَارَةِ نَعلَيهِ**».

وفي «صحيح مسلم»[٣] أيضًا، عن أنس بن مالك ﷺ عن النبيِّ ﷺ أنه قال:

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٦٥)، و«صحيح مسلم» (٢٨٤٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٢١١).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٨٠٧).

«يُؤتَىٰ بِأَنعَمِ أَهلِ الدُّنيَا مِن أَهلِ النَّارِ فَيُصبَغُ فِي النَّارِ صِبغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابنَ آدَمَ، هَل رَأَيتَ خَيرًا قَطُّ، هَل مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ».

قلت: وأحاديثُ الوعيد كثيرةٌ جدًّا، ترتعد فرائص المؤمنين عند سماعها، وترجف قلوبُهم خوفًا من يحموم النار وظليلها، وتكتئب النفوس وتوجل من ذكر حرِّها وزمهريرها، ولقد كان للصالحين مع أنفسهم مواقف عدل وإنصاف، فهم يحاسبونَها علىٰ التقصير في جنب الله، ويلومونَها أعظم اللوم علىٰ الوقوع في محارم الله، يدفعهم إلىٰ ذلك الخوف الشديد من عذاب الله، والرغبة الصادقة في نعيم الله ونيل رضاه، والاستحياء الحق من الله -جل في علاه-.

حقًّا؛ لقد كان جُلُّ تفكيرهم سرًّا وعلنًا، جماعاتٍ وفرادَىٰ في شأن أسباب الثواب والعقاب، والمرجع إلىٰ الله والمصير، هل سيكونون من فريق الجنة أم من فريق السعير: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

ونحن ما أحوجنا أن نكون علىٰ مثل ما كانوا عليه من الصلاح والفلاح، ومحاسبة النفس علىٰ كل تقصير في جنب الله، ولومها علىٰ لهوها وغفلتها وعدم مبالاتِها بالقدوم علىٰ الله، الذي سيسألها عما قدَّمت وأخَّرت، وأسرَّت وأعلنت، فيفكُّها عدلها وإنصافها، أو يحبسها جَورُها في معاملاتِها وسوءُ اعتقادها.

* * *

السَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ: التَّعَبُّدُ بِاتِّخَاذِ الأَحبَارِ وَالرُّهبَانِ أَربَابًا مِن دُونِ اللهِ.

الشرح:

المسألة السابعة والثلاثون من مسائل الجاهلية: هي بيان تعبدهم باتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله، كما فعل اليهود والنصارىٰ وجميع الكفار، فهم يقلدون كبراءهم وسادتهم كما قص الله ﷻ ذلك في قوله: ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾.

فكانوا بذلك مشركين كفارًا، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

هذا أمر الله وهذا فرضه العظيم علىٰ جميع المكلفين من عالم الإنس والجن أن يتوجهوا بالعبادة إليه وحده دون سواه، وأن يتركوا عبادة ما كانوا يعبدون من أحبارهم ورهبانهم.

والأحبار: هم علماء السوء؛ إذ عبدوهم علىٰ علم منهم.

والرهبان: هم العباد.

فهم قد اتخذوهم أربابًا من دون الله، وذلك لأنهم أحلوا لهم الحرام فتبعوهم علىٰ ذلك، وحرموا عليهم الحلال فتبعوهم علىٰ ذلك، فجعلوهم مشرعين مع الله ﷻ، فذمهم الله -تبارك وتعالىٰ- في قوله الحق: ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]؛ أي: مشرعين لهم، وتركوا شريعة الله التي فيها الرحمة، وفيها الهدىٰ، وفيها الحياة الطيبة المباركة، ولما قال عدي بن حاتم ﷺ عند النبيِّ ﷺ: إنَّا لَسنَا نَعبُدُهُم، فَقَالَ: «**أَلَيسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَستَحِلُّونَهُ؟**

قُلتُ: بَلَىٰ، قَالَ: «فَتِلكَ عِبَادَتُهُم»[١].

وفي هذه الآية الكريمة تحذير لهذه الأمة من عبادة غير الله، كعبادة الأضرحة التي توجد في هذا العصر، في كثير من بلدان المسلمين، باسم محبة الصالحين، والتوسل بهم، والاستشفاع بهم، وقد فَتَنوا من قلَّ نصيبهم من العلم والإيمان، فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، ألا فهل من مدَّكر.

* * *

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) بمعناه، والطبراني (١٧/ ٢١٨) بلفظه، والبيهقي (١٠/ ٢٠٣٥٠) بنحوه.

الثَّامِنَةُ وَالثَّلَاثُونَ: الإِلحَادُ فِي الصِّفَاتِ؛ كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٢].

التَّاسِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ: الإِلحَادُ فِي الأَسمَاءِ؛ كَقَولِهِ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد:٣٠].

الشرح:

المسائل الثامنة والثلاثون والتاسعة والثلاثون: فيها إيضاح إلحاد أهل الجاهلية فيما يتعلق بأسماء الله الحسنىٰ وصفاته العلا، فإنهم لم يقدروا الله حق قدره؛ بل اعتقدوا بأنهم إذا فعلوا أشياء علىٰ سبيل السر والخفية، فإن الله لا يعلم ما يقولون ويفعلون، فذمهم الله -تبارك وتعالىٰ- بذلك في قوله الحق: ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت:٢٢-٢٤].

وكتاب الله وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام-؛ بل وسنن المرسلين أجمعين، تدل علىٰ وجوب الإيمان بأن الله بكل شيء عليم، يعلم السر وأخفىٰ، ويعلم ما توسوس به النفوس، وما تخفي الصدور، وما يجول في الخاطر وعلىٰ القلوب، كل ذلك معلوم لله ﷻ، وهذه عقيدة المسلمين.

أما عقيدة الكافرين علىٰ اختلاف مللهم، فكما ذكرها الله ﷻ بقوله: ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ولذلك كان بعضهم يقول: إن رفعنا أصواتنا سمعنا، وإن خفضنا أصواتنا لم يسمعنا[1]، فقاسوا سمع الخالق العليم

---

(١) أخرج البخاري (٧٥٢١)، ومسلم (٢٧٧٥) عن ابن مسعود ﷺ: «اجتَمَعَ عِندَ البَيتِ =

القدير علىٰ سمع المخلوق الضعيف، وهذا غاية الإلحاد والكفر والجهل بما لله من صفات الكمال والجلال، والعياذ بالله من شر معتقدهم الفاسد.

كما ألحدوا في أسماء الله -تبارك وتعالىٰ-، فذمهم الله ﷻ وتوعدهم بقوله الحق: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ [فصلت:٤٠].

وأرشد الله ﷻ الأمة إلىٰ الإيمان بذاته وأسمائه وصفاته، علىٰ الوجه اللائق بعظمته وجلاله، فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٠].

فأمرنا الله ﷻ أن نتوسل إليه بأسمائه الحسنىٰ، وأن نترك ما كان عليه أهل الضلال من يهود ونصارىٰ ووثنيين ومجوس وغيرهم من أهل الإلحاد في ذات الله وأسمائه وصفاته، ولما تم صلح الحديبية بين النبي ﷺ وكفار قريش، قال النبيُّ ﷺ للكاتب عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه اكتب: «**بسم الله الرحمن الرحيم**».

قال سهيل: أما الرحمن؛ فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: **اكتب باسمك اللهم.**

ثم قال: **هذا ما قاضىٰ عليه محمد رسول الله.**

=

ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ، أَو ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ، قَلِيلٌ فِقهُ قُلُوبِهِم، كَثِيرٌ شَحمُ بُطُونِهِم، فَقَالَ أَحَدُهُم: أَتَرَونَ اللهَ يَسمَعُ مَا نَقُولُ؟

وَقَالَ الآخَرُ: يَسمَعُ إِن جَهَرنَا، وَلَا يَسمَعُ إِن أَخفَينَا.

وَقَالَ الآخَرُ: إِن كَانَ يَسمَعُ إِذَا جَهَرنَا، فَهُوَ يَسمَعُ إِذَا أَخفَينَا، فَأَنزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ [فصلت:٢٢]».

فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله.

فقال النبي ﷺ: **والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله»**[(١)].

فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:٣٠][(٢)]. فأثبت الله ﷻ عقيدة المؤمنين، وأكذب أولئك الكافرين.

فيا أمة الإيمان، حققوا إيمانكم بإثبات ما أثبته الله لنفسه، وأثبته له رسله وأنبياؤه، من الأسماء الحسنىٰ، والصفات الكاملة العليا، والأفعال الحميدة، علىٰ الوجه اللائق بعظمته وجلاله، إثباتًا بريئًا خالصا من التمثيل، منزهًا من التعطيل، ونقيًّا من تأويل أهل التجهيل والتأويل، وقولوا بما وصاكم به بارئكم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٣١).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٤٤٥-٤٤٦).

المسألة الأَربَعُونَ: التَّعطِيلُ، كَقَولِ آلِ فِرعَونَ.

الشرح:

المسألة الأربعون، فيها ذكر تعطيلهم، وذلك بأنهم عطلوا الله -تبارك وتعالىٰ- من ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وذلك بدعوة فرعون ومن وافقه حيث قص الله خبره بقوله الحق: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:٣٨-٤٢].

فعطل فرعونُ اللئيمُ ربَّ العرش الكريم اللهَ -تبارك وتعالىٰ- ذاتًا وأسماءً وصفات وأفعالًا، وخلقًا وتقديرًا، واستحقاقًا للعبادة، إلىٰ غير ذلك مما ادعاه فرعون الهالك من الربوبية فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٤-٢٥].

ولا شك أنه يعلم أن له ربًّا خالقًا، وأنه لم يخلق نفسه، ولم يخلق غيره، ولكن حب الاستعلاء والاستكبار علىٰ الله ﷻ وعلىٰ رسله، هو الذي حمله علىٰ أن يقول تلك المقالة، فلما دنا أجله، قال ما قصه الله ﷻ عنه من إظهاره الإيمان بالله، حيث قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠].

ورد الله ﷻ عليه بقوله الحق: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١].

كل ذلك ليحذر المسلم من عقائد الكفار، وفسادهم، ومن فساد أقوالهم وأعمالهم، وأخلاقهم وسلوكهم، ويقبل علىٰ عقيدة أتباع المرسلين في الأعمال الظاهرة والباطنة جملة وتفصيلًا؛ إذ لا نيل لرضا الله وتبوء منازل جنته إلا بذلك، فالبدار البدار -يا أيها الناس عمومًا، ويا أيها المسلمون خصوصًا- إلىٰ كل عمل صالح خالص مبرور؛ لتفوزوا بحياة السرور والحبور يوم البعث والنشور ولقاء الله الغفور الشكور.

* * *

المسألة الحَادِيَةُ وَالأَربَعُونَ: نِسبَةُ النَّقَائِصِ إِلَيهِ سُبحَانَهُ؛ كَالوَلَدِ وَالحَاجَةِ وَالتَّعَبِ مَعَ تَنزِيهِ رُهبَانِهِم عَن بَعضِ ذَلِكَ.

الشرح:

المسألة الحادية والأربعون من مسائل أولئك الجاهليين، في الحديث عن نسبة النقائص من أولئك الكفار -علىٰ اختلاف أصنافهم- إلىٰ الله ﷻ؛ كنسبة الولد، ونسبة الحاجة والتعب، وهم ينزهون رهبانهم عن بعض ذلك، وقد ذمهم الله ﷻ بسبب سوء الاعتقاد وقبح القول وقلة الحياء: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة:١١٦].

فنزه الله نفسه عن ذلك بقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٠١].

وذمهم بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات:١٥٨].

ووبخهم بقوله الحق: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات:١٥٣-١٥٤].

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور:٣٩]. إلىٰ غير ذلك مما قصه الله ﷻ عن إفكهم وافترائهم وتنقصهم بالخالق العظيم، صاحب الكمال المطلق ذاتًا وأسماء وصفات وأفعالًا.

وأخبر الله -تبارك وتعالىٰ- عما يجب أن يعتقده المسلمون في ربهم ﷻ؛ فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤].

وقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]. وكم لها من نظائر تقضي بإثبات الكمال المطلق للخالق العظيم، وتنزيهه عن صفات النقص والعيب.

كما نسبوا إليه الحاجة والفقر، وذمهم الله ﷻ بسبب ذلك في قوله الحق: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران:١٨١].

وذلك أن الله ﷻ لما ندب المؤمنين إلىٰ الصدقة، وحثهم علىٰ البذل في سبيل الله، ورغَّبهم فيه بقوله الحق: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد:١١].

قالت اليهود -خبثًا ومكرًا-: إن الله احتاج فاستقرضنا؛ فأنزل الله فيهم: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ الآية[1].

وهكذا ذمهم الله في قوله الحق: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾.

ثم أثبت لنفسه ما يليق بجلاله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وهكذا قالت اليهود: إن الله لما خلق السموات والأرض في ستة أيام استراح بعد ذلك[2]، وهذه مكيدة ومكر خفيٌّ، وتنقصٌ بالرب ﷻ أظهره الله رادًّا

---

(١) يروىٰ معناه عن ابن عباس والسدي ومجاهد والحسن وقتادة وابن زيد. انظر: «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٤٢٥)، و«تفسير الطبري» (٧/ ٤٤٢-٤٤٤).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٥-٣٧٦).

عليهم وإبطالًا لمكرهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]؛ أي: من تعب؛ لأن الله ﷻ له الكمال المطلق، والقوة العظيمة، والقهر والغلبة، والعزة والحكمة، فالتعب والنصب إنما هو من صفات مخلوقاته لا من صفاته؛ بل له الكمال المطلق ذاتًا وأسماءً وصفاتٍ وأفعالًا -عز شأنه، وتقدست أسماؤه وصفاته-، وحاشاه ثم حاشاه أن يشبه شيئًا من مخلوقاته؛ إذ هو الخالق وما سواه مخلوق، وهو الرب وما سواه مربوب، وهو المعبود وما سواه عبد، وهو المالك وما سواه مملوك، سبحانه وتعالىٰ عما يقوله المشركون والملحدون علوًّا كبيرًا.

فاحذروا -أيها المسلمون-، مكر الماكرين من اليهود وأشباههم، ومن أهل البدع المحدثات، وأفكارهم وأتباعهم، فقد هلك هؤلاء، والسعيد من وعظ بغيره، فخذوا العظة والعبرة مما قصَّه الله عن الظالمين والملحدين والمفسدين.

❋ ❋ ❋

الثَّانِيَةُ وَالأَربَعُونَ: الشِّركُ فِي المُلكِ كَقَولِ المَجُوسِ.

الشرح:

هذه هي الثانية والأربعون، في بيان شرك المجوس، وأنه الشرك في الملك، كما قالت المجوس عليهم لعائن الله.

فمن هم المجوس يا ترىٰ؟

المجوس: طائفة كافرة فاجرة، وهم عباد النار، عطلوا الله -تبارك وتعالىٰ- من صفات الخلق والملك والتصرف المطلق في مخلوقاته، فقالوا بخالقَيْن: خالق للخير، وخالق للشر.

فقالوا: إن النور يخلق الخير، وإن الظلمة تخلق الشر، وعطلوا الله -تبارك وتعالىٰ- عن كماله، وعن تقديره، وخلقه وإيجاده لجميع مخلوقاته، بدون شريك ولا ظهير ولا معين، كما هي عقيدة المؤمنين.

كما أن من عقائدهم الفاسدة: الاشتراك في الأموال والزوجات وغير ذلك، فليس لأحد ملكية خاصة، وهذا مذهب باطل، ترده الفطر السليمة والعقول المستقيمة.

إذن؛ فالله ﷻ هو وحده صاحب الملك المطلق، ليس له شريك في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه وصفاته.

والخلاصة: أن هذه الطائفة الملحدة من البشر، كفرُهم أشدُّ من كفر العرب، ومن شابههم في صفاتهم الذميمة، وعقيدتهم الفاسدة، أو في أي شيء من ذلك، فقد استحق العقوبات العاجلة والآجلة، فتبًّا لهم ولمن ضاهاهم في شيء من عقيدتهم الفاسدة، أو سلكوهم المنحرف.

المسألة الثَّالِثَةُ وَالأَربَعُونَ: جُحُودُ القَدَرِ.

المسألة الرَّابِعَةُ وَالأَربَعُونَ: الاحتِجَاجُ عَلَىٰ الله بِهِ.

المسألة الخَامِسَةُ وَالأَربَعُونَ: مُعَارَضَةُ شَرعِ الله بِقَدَرِهِ.

الشرح:

المسائل الثالثة والرابعة والخامسة والأربعون، هذه المسائل الثلاث تتعلق بالقدر، والقدر: هو تقدير الله وقضاؤه، بما سبق به علمه الذي قدره ﷻ في الأزل، من خلق المخلوقات، وإيجاد الموجودات، وتقدير الأمور في دنيا البشر وبرزخها وأخراها، فهم يحتجون بالقدر مكرًا وجهلًا كما في قول الله ﷻ عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠].

و﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]. فهم كما قص الله عنهم، يعارضون شرع الله وقدره بغير علم.

ويحتجون بالقدر من باب المكر والتلبيس علىٰ أنفسهم وعلىٰ غيرهم، كاحتجاجهم به علىٰ فعل المعاصي وترك الطاعات، وكاحتجاجهم به علىٰ التناقض بينه وبين الشرع.

وأهل السنة والجماعة يحتجون بالقدر، ولكن علىٰ مراد الله ونهج رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، فكل شيء خلقه الله بقدر، لا يجحدون ذلك، ولا يحتجون به علىٰ شيء لا يجوز الاحتجاج عليه بالقدر كفعل المعاصي وترك الطاعات واتباع الهوىٰ، ولا يعارضون أوامر الله ونواهيه بالقدر.

وفيما يلي مسائل تتعلق ببحث القدر:

المسألة الأولىٰ: معنىٰ الإيمان بالقدر خيره وشره شرعًا.

المسألة الثانية: بيان مراتب القدر.

المسألة الثالثة: بيان معتقد فرقتين متضادتين في القدر قولًا ومعتقدًا.

أما معنىٰ الإيمان بالقدر خيره وشره: فهو الاعتقاد الجازم بأن الله ﷻ قد قدَّر المقادير كلها؛ أي: قد جرىٰ بِها القلم، كلِّيَّاتِها وجزئيَّاتِها، علوِّها وسفليِّها، ناطقِها وصامتِها، متحرِّكِها وساكنِها.

وبالتتبع والاستقراء ذكر العلماء أن للقدر أربع مراتب[(١)]:

المرتبة الأولىٰ: علمُ الله المحيطُ بكلِّ شيء: كما قال ﷻ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج:٢٠].

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢].

المرتبة الثانية: الإيمان بالكتابة: أي ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من خير وشرٍّ، وشقاوة وسعادة، وغنىٰ وفقر، وصحَّة ومرض، وطول عمر وقصره، وكلِّ شيء من الذرَّة إلىٰ أكبر شيء؛ كلُّ ذلك قد جرىٰ به القلم في اللوح المحفوظ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢].

---

(١) انظر: «شفاء العليل» (ص٢٩)، و«طريق الهجرتين» (ص٩٠)، كلاهما لابن القيم، وانظر: «العقيدة الواسطية» لابن تيمية (ص١٠٥)، وضمن «مجموع فتاويه» (٣/ ١٤٨).

المرتبة الثالثة: الإيمان بالمشيئة: أي: بمشيئة الله العامَّة النافذة المرادفة للإرادة الكونية، فالإرادة الكونية والمشيئة العامَّة مترادفتان بمعنىٰ واحد، فما شاء الله ﷻ كان، وما لم يشأ لم يكن، ومشيئة العباد تابعة لمشيئة الله، فما شاء الخلق وشاءه الله ﷻ كان، وما شاءه الخلق وأرادوه، ولم يشأ الله ﷻ تحقيقه ووقوعه، ما كان، ولا يمكن أن يكون.

فمشيئة العبد تابعة لمشيئة الله ﷻ، فهو ليس مسلوب الاختيار والقدرة، وليس له مطلق المشيئة، بل مشيئة العبد تابعةٌ لمشيئة الربِّ -تبارك وتعالىٰ- بدليل قول الله ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩].

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق والإيجاد: فالله هو خالق كلِّ شيء من عوالم الأرض والسماء، وعلىٰ رأسها عالم الإنس، وعالم الجنِّ، وعالم الملائكة، وعالم الشياطين، وعالم الوحش، وعالم الطير، إلىٰ غير ذلك من العوالم التي ثبت وجودها شرعًا وعقلًا وحسًّا، مما علمنا ومما لا نعلم، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:٦٢].

فهذه الأربع المراتب متعلِّقة بالقدر، التي هي علمُ الله المحيط الذي يجب الإيمان به، والكتابةُ في اللوح المحفوظ الذي نعته الله بقوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢].

والمشيئةُ النافذة المرادفة للإرادة الكونية، والخلقُ والإيجادُ؛ يجب الإيمان بها، وقد دلَّت علىٰ هذه الأربع المراتب نصوصُ القرآن والسنَّة.

فعقيدة أهل السنَّة والجماعة؛ الإيمانُ بالقدر خيره وشرِّه؛ أي: أنَّ الله قدَّر كلَّ شيء من خير وشرٍّ، قدَّر الكفر بحكمته وعدله، وقدَّر الإيمان برحمته وفضله، وقدَّر الطاعة، وقدَّر المعصية، وقدَّر جميع الأشياء التي يجب الإيمان بتقدير الله

وقضائه لها، ولا يجوز إنكار شيء منها، وينبغي لطالب العلم أن يدرس هذا الركن العظيم «الإيمان بالقدر» دراسةً وافيةً علىٰ أيدي أهل البصيرة؛ حتىٰ يكون عارفًا بما يتعلَّق بالكلام في هذا الركن العظيم.

حقًّا، إنَّ أهل السنَّة والجماعة آمنوا وصدَّقوا بأنَّ كلَّ شيء بقضاء الله وقدره؛ لأنَّ الله أخبرهم بذلك، حيث قال -وقولُه الحقُّ-: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

وقال ﷻ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨]، وإذا كان الأمر كذلك، فما بقي شيءٌ في الكون إلا وهو داخل تحت تقدير الله -تبارك وتعالىٰ- من خير وشرٍّ جملةً وتفصيلًا، حتىٰ الشوكة يشاكُها المخلوق؛ فإن الله قد قدَّر زمنها ومكانها؛ لذا فإن المؤمن يؤجر علىٰ الشوكة التي تصيبه، لعلمه أنها بقضاء الله وقدره ، احتسب ذلك، غير أن أهل البدع والضلال خالفوا أهل السنة والجماعة في باب الإيمان بالقدر، واشتهرت بالخلاف فرقتان متضادَّتان في القول والمعتقد:

الفرقة الأولىٰ: القدرية.

الفرقة الثانية: الجبرية.

فأمَّا القدرية فافترقت إلىٰ فرقتين: فرقة أشدَّ غلوًّا من الأخرىٰ؛ إذ قالت الأولىٰ: إنَّ الله لم يقدِّر الخير، ولم يقدِّر الشرَّ، وإنما العباد هم الخالقون لأعمالهم خيرها وشرِّها، فضلُّوا ضلالا بعيدا، كما أنهم نفوا علم الله -تبارك وتعالىٰ- وقالوا: إن الأمر أُنُف، وإن الله لا يعلم الحوادث قبل وقوعها.

والأخرىٰ قالت: إنَّ الله خلق الخير وقدَّره، ولم يخلق الشرَّ ولم يقدِّره؛ وإنما العبادُ هم الذين يخلقون الشرَّ ويعملونه بمشيئتهم المطلقة، وهؤلاء جميعًا كذَّبوا القرآن الكريم، ومن كذَّب القرآن فقد كفر، ولما سُئل عبد الله بنُ عمر رضي الله عنهما

عمَّن يقولون: لا قدر وأنَّ الأمر أُنُف، غضب عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وقال للسائلَين: «إِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخبِرهُم أَنِّي بَرِيءٌ مِنهُم، وَأَنَّهُم بُرَآءُ مِنِّي».

وحلف أن «لَو أَنَّ لِأَحَدِهِم مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنهُ حَتَّىٰ يُؤمِنَ بِالقَدَرِ»[1].

وما ذلك إلا لأنَّ القدرية جعلوا مع الله شركاء غير محصورين من البشر، فتشبَّهوا بالمجوس وزادوا عليهم حتىٰ أُطلِقَ عليهم مجوسُ هذه الأمَّة[2]؛ لأنَّ المجوس قالوا بخالقَين، خالق للخير وخالق للشر، قالوا: النور يخلق الخير، والظلمة تخلق الشرَّ، والقدرية زادوا عليهم في الجُرم، فجعلوا مع الله خالقِين غير محصورين من البشر؛ وهو أنَّ كلَّ شخص يخلق فعل نفسه، فعطَّلوا الله -تبارك وتعالىٰ- من خلقه وقدرته، وبطلان هذا المذهب الرديِّ واضح بنصوص الكتاب والسنَّة وإجماع سلف الأمة.

وتقابل هذه الطائفة الطائفة الجبرية أو المجبرة، وهؤلاء غلوا في إثبات أفعال الله حتىٰ قالوا: إن الفاعل الحقيقي هو الله، والبشر ليسوا بفاعلين علىٰ الحقيقة، بل الفاعل في الحقيقة هو الله، ونِسبة الأعمال إلىٰ الخلق مجاز ليست

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

(٢) روىٰ ابن بطة في «الإبانة» (١٥١٧ و١٥٤٩-الأثيوبي)، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٤١٠) -وصحح إسناده- عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «لكل أمة مجوس، وإن مجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر».

وروىٰ عبد الله بن أحمد في «السنة» (٩٥٨)، وابن بطة في «الإبانة» (١٥٤٨-الأثيوبي)، واللالكائي (١٢٩٢)، عن نافع قال: «جاء رجل إلىٰ عبد الله بن عمر فقال: ناس يتكلمون بالقدر، فقال: أولئك القدريون، وأولئك يصيرون إلىٰ أن يكونوا مجوس هذه الأمة».

حقيقة، وهؤلاء مذهبهم باطل؛ لأن الله ﷻ خلق المكلَّفين، وأمرهم ونهاهم، وأنزل عليهم الكتب، وأرسل إليهم الرسل، وأقدرهم ليعملوا الطاعة ويتركوا المعصية، ويفعلوا الخير ويتركوا الشر، أقدرهم علىٰ كل ذلك.

فمن عمل الخير فبفضل الله ورحمته ثم بكسبه، ومن عمل الشر فبعدل الله وحكمته ثم بكسبه، وعلىٰ هذا الأساس يترتَّب الثواب والعقاب، يثاب المطيع علىٰ طاعته، ويستحق العاصي العقاب علىٰ معصيته، ولا واللهِ ما سلبهم الله ﷻ قدراتهم واختياراتهم، بل أعطاهم القدرة علىٰ عمل الخير والشر، وأنزل عليهم الوحي ترغيبًا في عمل الطاعة، وتحذيرًا من عمل المعصية.

فمزاولة الأعمال وكسبها يُنسب إليهم حقيقة لا مجازًا، واللهُ ﷻ هو المقدِّر للخير والشرِّ، فالكافر والمنافق؛ هؤلاء قدَّر الله ﷻ في الأزل أن يكونوا كذلك، ولكنَّه أمرهم في الشرع أن يكونوا مطيعين عاملين بطاعته، مبتعدين عن معاصيه، وأعطاهم الله الوسائل التي يستطيعون بها فعل الطاعة وترك المعصية؛ كما قال ﷻ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]؛ أي: بيَّنَّا له طريق الخير من طرق الشرِّ، وأمره الله باتباع طريق الخير، وحذَّره من اتباع طرق الشرِّ، في نصوص محكمة.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]. جمع لهم بين الأمر بالطاعة والنهي عن المعاصي، وهم قادرون علىٰ ذلك بأدلَّة الشرع والعقل والحسِّ.

والخلاصة: أنَّ نسبة الأعمال إلىٰ العباد نسبةُ عمل وكسب، بقدرة واختيار، والله ﷻ هو المقدِّر، وهو صاحب الفضل والإحسان، فمن وفَّقه الله لعمل الطاعة فذلك فضلٌ من الله -تبارك وتعالىٰ- ورحمةٌ، ومن خذله الله -لأنه أتىٰ بأسباب الخذلان- فذلك عدلٌ من الله وحكمةٌ، ولا يجوز لأحد من الخلق أن يعترض

علىٰ قسمة الله فيقول: لماذا حكم علىٰ هذا بالكفر، وحكم لذاك بالإيمان، وهذا بالطاعة وذاك بالمعصية؟ كلُّ هذه الشبهات والوساوس الشيطانية، يجب أن يبتعد عنها العبد المسلم، فإن ابتعد عنها فقد قدَّر ربَّه حقَّ قدره، وعرف الله -تبارك وتعالىٰ- كما يجب أن يُعرَفَ -عز شأنه-.

ولقد ضربت الجبرية للعامل مثلًا بالشجرة التي تصرفها الرياح، وكالهاوي من أعلىٰ إلىٰ أسفل، أي: لا قدرة له ولا اختيار، ومن لازم قولهم رفع اللوم عن العاصي، وهو مذهب سيِّئٌ رديءٌ.

وهنا مسألة تتعلَّق بالاحتجاج بالقدر: هي أنه لا يجوز الاحتجاج بالقدر في كلِّ شيء، كمن يحتجُّ بالقدر لتسويغ فعل المعاصي، وترك الطاعات؛ لأنَّ هذا دأب المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨].

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ﴾ [الزخرف:٢٠].

ونحو ذلك مما يقال فيه: «كلمة حقٍّ أريد بها باطل»[1].

فالله هو الذي يشاء وهو الذي يقدِّر، ولكن هو الذي أمر ونهىٰ، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأوجد القدرات لفعل الطاعة وأمر بها، وأوجد القدرات لاجتناب المعاصي وفعلها، ونهىٰ عن فعلها، إذن الاحتجاج بالقدر لترك الواجبات أو ارتكاب المحرَّمات ليس من عقيدة المؤمنين، بل من عقيدة المشركين ومن تشبَّه بهم.

وأمَّا الاحتجاج بالقدر علىٰ المصائب، التي لا اختيار للناس فيها، ولا قدرة لهم علىٰ دفعها، مثل مصيبة الموت، ومصيبة المرض، ومصيبة الفقر إلىٰ غير ذلك، إذا قال القائل: قدَّر الله علىٰ فلان فمات، وقدَّر عليه فمرض، وقدَّر عليه

(١) قالها علي بن أبي طالب ﷺ للخوارج لما قالوا: لا حكم إلا لله، كما عند مسلم، برقم (١٠٦٦).

فافتقر؛ فإنَّ الاحتجاج بالقدر هنا حقٌّ؛ لأنه لا يُسقط واجبًا ولا يُقرُّ باطلًا.

وأمَّا الاحتجاج بالقدر علىٰ المعاصي، فيمكن ذلك في حال من الأحوال وهو فيما إذا فعل العبد المكلَّف معصية من المعاصي، ثمَّ ألهمه الله رشده فتاب منها وأناب، فتاب الله عليه، فإذا سُئل بعد ذلك وقال: «قَدَّرَ الله وما شاء فعل» لا حرج عليه، واحتجاجه بالقدر هنا صحيح، والدليل علىٰ ذلك أنَّ الله ﷻ الذي قدَّر علىٰ آدم أبي البشر عليه السلام أن يقع في الخطيئة، فأكل من الشجرة، فهدىٰ الله قلبه هو وزوجه، فتابا إلىٰ الله كما قصَّ الله علينا ذلك بقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

فتاب الله ﷻ عليهما وهداهما، فمن كان هذا حاله؛ وقع في المعاصي وتاب منها، وأبدل حاله السيِّئ بحالٍ حسن ، ثمَّ لامه لائم واحتجَّ بالقدر؛ فاحتجاجه صحيح، ومن هذا ما جاء في الحديث الثابت عن النبيِّ ﷺ من احتجاج آدم وموسىٰ -عليهما الصلاة والسلام- حيث: «**احتَجَّ آدَمُ وَمُوسَىٰ؛ فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: يَا آدَمُ، أَنتَ أَبُونَا خَيَّبتَنَا وَأَخرَجتَنَا مِنَ الجَنَّةِ.**

قَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَىٰ، اصطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ أَتَلُومُنِي عَلَىٰ أَمرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبلَ أَن يَخلُقَنِي بِأَربَعِينَ سَنَةً؟! فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ؛ ثَلَاثًا»[1].

ذلك لأنَّ آدم قد تاب وأناب وقَبِل الله توبته، فلا عتاب ولا لوم بعد التوبة، ومن احتجَّ بالقدر بعد حصول التوبة فلا حرج عليه[2]، فكلا النبيَّين -عليهما الصلاة والسلام- مصيب، موسىٰ عليه السلام ما عاتب أباه آدم إلا علىٰ نتيجة الخطيئة،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

(٢) انظر: «شفاء العليل» لابن القيم (ص١٨).

لا علىٰ الخطيئة نفسها التي قد تاب منها؛ بل علىٰ النتيجة التي هي إخراجه وذرِّيَّته من الجنَّة، والله ﷻ هو الذي قضىٰ ذلك، وهو الذي قدَّره لحكمته العظيمة؛ ليكون هذا الكون وهذه الأمم المتعاقبة سبعون سبعين أمَّة؛ قال النبيُّ ﷺ: «أَنتُم تُوَفُّونَ سَبعِينَ أُمَّةً، أَنتُم خَيرُهَا وَأَكرَمُهَا عَلَىٰ اللهِ ﷻ»[1].

وأمَّا ما يتعلَّق به القدرية من الشبهات؛ مثل فهمهم قولَ الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]؛ أي: أنَّ العبد هو الذي يخلق الشرَّ، وليس الأمر كذلك، وإنما تفسير الآية أن يقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾؛ أي: الله وفَّقك لها وهداك لفعلها؛ ليثيبك عليها، وأنت العامل لهذه الحسنة، وما أصابك من سيِّئة فمن نفسك؛ أي: أنت الذي اقترفت السيِّئة وعملتها، والله هو مقدِّر الحسنات والسيئات، والجزاء بالمثوبة أو العقوبة علىٰ العمل، إن كان حسنًا فجزاؤُه المثوبة من الله، وإن كان سيِّئًا فجزاؤه العقوبة عند الله، ويغفر الله لمن يشاء ويرحم.

إذن؛ فالمعنىٰ الصحيح ما قاله أهل السنَّة والجماعة[2] في معنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إنَّ الله ألهمك ووفَّقك لتعمل هذه الحسنة

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٦ و٤٤٧-الميمنية)، و(٥/ ٣ و٥-الميمنية) واللفظ له، والترمذي (٣٠٠١)، وقال: «هذا حديث حسن»، وابن ماجه (٤٢٨٧) و(٤٢٨٨).

(٢) روىٰ الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٥٩/ ٩٩٧٢ و٩٩٧٣) عن أبي العالية: في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾، قال: هذه في السراء والضراء.

وقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾، قال: هذه في الحسنات والسيئات.

لتثاب عليها، وأنت أيُّها العبد المكلَّف عملتها بالفعل، والله قد وعدك بقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت:٤٦].

وبقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧]؛ أي: فعليها.

﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾؛ أي: أنت الذي عملتها واجترحتها، والله لا يجعل عامل السيِّئات كعامل الحسنات؛ كما قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١].

وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ [فصلت:٣٤].

فالنصوص في باب القدر في غاية الوضوح، ولكن لمن استثمر وقته لتعلُّم أركان الإسلام الخمسة، وأركان الإيمان الستَّة، وركن الإحسان العظيم، وطبَّقها تطبيقًا عمليًّا في هذه الحياة، واستمرَّ في تحصيل العلم الشرعي مدة حياته؛ ليصبح عالِمًا ربانيًّا.

* * *

السَّادِسَةُ وَالأَربَعُونَ: مَسَبَّةُ الدَّهرِ، كَقَولِهِم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

الشرح:

المسألة السادسة والأربعون: مسبة الدهر كما أخبر الله ﷻ عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فعطلوا الله -تبارك وتعالىٰ- عن تصرفه بالإحياء والإماتة، ونسبوا الإحياء والإماتة إلىٰ الدهر الذي هو الليل والنهار؛ لهذا فمن عقائدهم ومقولاتهم القبيحة: ما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع[1]، وهذا نفي لوجود الخالق ﷻ، ولكونه هو الخلاق العليم وإبطال لذلك وغيره، ونسبة الإحياء والإماتة إلىٰ الطبيعة ونسوا الخالق البارئ المصور -عز شأنه-، فقد جاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالىٰ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**»[2].

وليس الدهر اسم من أسمائه، فقوله: «**وأنا الدهر**»، فسره بقوله: «**بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**»؛ أي: يتصرف الله ﷻ في الليل والنهار، وفي جميع ملكوته، بمقتضىٰ حكمته وعدله وفضله ورحمته، تعالىٰ الله عن قول الدهرية علوًّا كبيرًا، واسمع أيها المسلم إذ قال الله عن نفسه، وقل به: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

(١) هذه المقولة امتداد لاعتقاد الدهريين الذين لا يؤمنون بالخالق ولا بالمعاد ولا بالحساب. انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (٢/ ٦١) و(٣/ ٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

* * *

المسألة السَّابِعَةُ وَالأَربَعُونَ: إِضَافَةُ نِعَمِ الله إِلَىٰ غَيرِهِ، كَقَولِهِ: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل:٨٣].

الشرح:

المسألة السابعة والأربعون: في بيان عقيدة الجاهليين وأنهم يضيفون نعمة الله إلىٰ غيره، وقد بين الله ذلك بقوله: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾، وهذا مما لا شك فيه عند المسلمين المحققين لإسلامهم، أن حصول كل نعمة قلَّت أو كثرت، أو دفع أي نقمة كبرت أو صغرت، كل ذلك من عند الله المتصرف في ملكوت السموات والأرض؛ لأنه علىٰ كل شيء قدير.

بخلاف أهل الجاهلية ومن تشبه بهم من جهلة المسلمين في كل زمان ومكان، فإنهم يضيفون النعم إلىٰ غير المنعِم ﷻ، الذي ينشئها ويسديها بقدرته، فتراهم ينسبونها إلىٰ بعض مخلوقات الخالق، ويعلقون قلوبهم بمن يعتقدون أنه جالب النعمة لهم وصارف المحن عنهم، وهم في ذلك إما أن يكونوا من أهل الشرك الأكبر، أو من أهل الشرك الأصغر، فمن اعتقد أن غير الله يجلب نعمة أو يصرف نقمة بحوله وقوته، أو أنه شريك مع الله في جلب نفع أو دفع ضر؛ فهذا كفر بالله كفرًا أكبر، وهو الذي كان أهل الجاهلية يدَّعون أن آلهتهم تشفع لهم وتقرِّبهم إلىٰ الله زلفىٰ؛ لذا اتخذوها وسائط بينهم وبين الله، وهذا عين الشرك.

فحكم القبوريين كحكم أولئك الجاهليين في فساد معتقدهم.

وأما من تجري ألفاظ إسناد النعمة علىٰ ألسنتهم إلىٰ غير المنعِم، من غير اعتقاد بالقلب، فهو من الكفر العملي الذي يسمىٰ كفر النعمة، وهو شرك أصغر يجب أن يحذر؛ لأن الشرك بنوعيه خطير علىٰ مرتكبيه.

والذي ينبغي التنبيه عليه هنا، هو أن الذين عرفوا رسول الله محمدًا ﷺ وأنكروا رسالته وما جاء به، سواء من أهل الكتاب أو من الأميين الوثنيين، فهؤلاء كفرهم أكبر، وعليهم تنطبق الآية الكريمة، التي أوردها الإمام محمد بن عبد الوهاب تحت العنوان المذكور[1].

والحقيقة أنه لا فرق في الكفر بين من ينكر جميع ما جاءت به رسل الله، وبين من ينكر بعضه، ولو كان شيئًا يسيرًا من أصول الإسلام وأحكامه.

فتبًّا لليهود والنصارىٰ، الذين عادوا رسالة محمد ﷺ، ولم يؤمنوا بما جاء به، استكبارًا عن الحق، وحسدًا لمن جاء به ومن آمن به، وبغيًا علىٰ أنصاره.

* * *

(١) وهي قول الله تعالىٰ: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل:٨٣].

المسألة الثَّامِنَةُ وَالأَربَعُونَ: الكُفرُ بِآيَاتِ الله.

الشرح:

المسألة الثامنة والأربعون: الكفر بآيات الله، فقد ذكر الإمام المجدد محمد ابن عبد الوهاب في هذه المسألة من مسائل الجاهلية كفرهم بآيات الله المنزلة علىٰ رسله الكرام ليبلغوها الأنام، فلقد أنزل الله التوراة علىٰ موسىٰ عليه السلام، وهو كتاب عظيم فيه هدىٰ ونور، وأنزل الإنجيل علىٰ عيسىٰ عليه السلام، وهو كتاب عظيم مكمل للتوراة فيه هدىٰ ونور، والزبور علىٰ داود عليه السلام فيه عظات وعبر لمن آمن به واعتبر، وصحف إبراهيم وموسىٰ عليهما السلام فيها خير كثير، والفرقان الذي أنزل علىٰ خير نبي بُعث وخير رسول أُرسل، وبه خُتمت الكتب، وبمحمد ختم الأنبياء والمرسلون فلا نبي بعده، وهو رسول إلىٰ الثقلين.

فمن آمن به وبما جاء به من عند الله فهو المؤمن، ومن كفر به وبما أنزل عليه فهو الكافر، له نار جهنم، لا يموت فيها ولا يحيا، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠].

ومثل من يكذب بآيات القرآن، من يكذب بالسنة الصحيحة؛ لأن الكتاب والسنة كلاهما وحي من مشكاة واحدة، فمن كذَّب بشيء قليل أو كثير فحكمه واحد.

وحقًّا إن المكذب بشيء من وحي الله إلىٰ رسله، من الخالدين في السعير، وفي مقدمتهم من لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء به، من يوم بعث إلىٰ يوم القيامة.

وإذا كان الأمر كما علمت من شأن المكذبين بآيات الله ورسله، فإن الواجب

علىٰ أهل الإسلام أن يثبتوا علىٰ إسلامهم، ويكونوا من أهل الصدق في إيمانهم، والتصديق بما جاء به نبيهم جملة وتفصيلًا، طاعة لله ولرسوله، وطلبًا لسعادة الدارين، فإن السعيد من أتىٰ بأسباب السعادة ورجا رحمة الله ونيل رضاه.

* * *

المسألة التَّاسِعَةُ وَالأَربَعُونَ: جَحدُ بَعضِهَا.

الشرح:

المسألة التاسعة والأربعون: فيها بيان معتقد أهل الجاهلية في القرآن العظيم، وأنهم كذبوا به وبمن أنزله الله عليه وأرسله به وهو نبينا محمد -عليه الصلاة والسلام-، وأطلقوا علىٰ القرآن وعلىٰ الرسول ﷺ أوصافًا هما منها براء؛ إذ قالوا ما قصه الله عنهم في سور من القرآن، منها عن الوليد بن المغيرة[1]: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:١١-٢٥].

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور:٣٠].

فأكذبهم الله جميعًا وبيَّن كفرهم بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة:٤٨-٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

فهؤلاء ذكر الله وعيدهم بقوله الحق: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦].

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٩-٢٥).

ومثل هؤلاء المكذبين بالكتاب كله، الذين يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض، وذلك كاليهود ومن تشبه بهم، وقد أنكر الله عليهم، وتوعدهم بأشد الوعيد فقال سبحانه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥]. فما نفعهم ما آمنوا به؛ بل كان جزاؤهم كمثل من كفروا بالكتاب كله.

وحينما هجمت فرقتا الجهمية والمعتزلة علىٰ كلام الله، وحكموا عليه أنه مخلوق كغيره من المخلوقات، كفرهم علماء السلف؛ لأنهم كذبوا القرآن الكريم؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]. إذ قال: أنزلناه: ولم يقل: خلقناه، كما تدعي الجهمية والمعتزلة الضالتين.

ووقعت الأشعرية في خطر عظيم حينما قالت في تعريف القرآن إنه (معنىٰ قائم بذات الله)، واعتبروا حروفه وألفاظه مخلوقة، وهو معتقد فاسد مخالف لمعتقد أهل السنة في كلام الله القرآن العظيم.

ولعل سائلًا يسأل عن قول أهل السنة في القرآن الكريم؟

فيجاب بما يلي: يقول أهل السنة السابقون واللاحقون في القرآن الكريم بأنه كلام الله المبين، المنزل من رب العالمين، تكلم به حقيقة، وهو سور وآيات وحروف ومعانٍ وكلمات، كل ذلك كلام رب الأرض والسموات، فهو منزل غير مخلوق، من الله بدأ وإليه يعود، ليس كلامه المعاني دون الحروف، ولا الحروف دون المعاني، المتعبد بتلاوته، وما فيه من الفوائد والحكم والأحكام، المعجز بما تحمل كلمة الإعجاز من معنىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

فهنيئًا لأهل السنة إصابة الحق في كل باب من أبواب العلم، الذي مصدره كتاب الله الكريم وصحيح سنة نبيه، الداعي إلىٰ الصراط المستقيم، وتبًّا للمخالفين من أصناف الكفرة والمشركين والملحدين وأهل البدع الضالين المضلين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

المسألة الخَمسُونَ: قَولُهُم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

الشرح:

المسألة الخمسون: قولهم ما أنزل الله علىٰ بشر من شيء، وهذا تكذيب منهم للرسل الكرام، والأنبياء العظام، الذين جاءوا بالوحي المنير، ومنهم خاتمهم البشير النذير، محمدﷺ وعلىٰ آله وأصحابه، ومن في دربهم يسير.

وكم ذكر الله ﷻ من كتبه المنزلة علىٰ سبيل التفصيل، وعلىٰ سبيل الإجمال.

فأما التفصيل: فإن الله ذكر التوراة وأخبر بأن فيها هدىٰ نورًا، وذكر الإنجيل وأنه كذلك فيه هدىٰ ونور وموعظة، وذكر الزبور وما فيها من المواعظ والعبر، وذكر صحف إبراهيم وموسىٰ، وذكر الفرقان الذي أنزل علىٰ نبينا محمدﷺ.

فأهل الجاهلية الكافرون المتعصبون لها، جحدوا كل ما أنزله الله وبينه في القرآن العظيم، فأساءوا إلىٰ أنفسهم وأوبقوها، وأساءوا إلىٰ أتباعهم؛ إذ جرت العادة أن أهل الإشراك وأهل الضلال وأهل البدع غالبًا مَتبوعُون وأتباع، والأتباع يسلِّمون لمتبوعيهم وقادتهم في كل ما يقولونه ويعتقدونه، كما دل علىٰ ذلك قول الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧]. الآيات، هذا شأن أهل الانحراف؛ ضَالٌّ ومُضِلٌّ.

وأما أهل الإيمان: فإنهم يؤمنون بما أنزل الله من كتاب وبما أرسل من رسول علىٰ سبيل التفصيل، كذلك يؤمنون بهم علىٰ سبيل الإجمال، كما في قول الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [غافر:٧٨]؛ أي: من الرسل والأنبياء.

والخلاصة: أن أصناف الكفرة اجتمعوا علىٰ إنكار الكتب المنزلة، واتهموا رسل الله الأمناء الكرام بأنهم جاءوا بشيء من قِبل أنفسهم، ومن صدَّق منهم بنزول شيء من الكتب فتصديقه بحسب هواه، وتأسَّىٰ غُلاة الجهمية الملحدة بأهل الكفر؛ فنفوا عن الله صفة الكلام وغيرها من الصفات، قاتلهم الله أنىٰ يأفكون.

* * *

المسألة الحَادِيَةُ وَالخَمسُونَ: قَولُهُم فِي القُرآنِ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥].

الشرح:

المسألة الحادية والخمسون: قولهم في القرآن إن هذا إلا قول البشر، وهذه مقالة قالها الوليد بن المغيرة الذي سمع قراءة القرآن فدهشه فلم يستطع أن يقول إنه شعر ولا كهانة ولا سحر، ولكن قومه لم يرضوا عنه حتىٰ يقول في القرآن قولًا يرضيهم فأرضاهم بسخط الله، ومن أرضىٰ الناس بسخط الله سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس(١).

فقال: إنه سحر يفرق بين المرء وزوجه، وإنه قول البشر، وليس كما يقول محمد إنه كلام الله، أنزله الله عليه وخصه به، فلو كان من كلام الله ﷻ كما زعم محمد؛ لأنزله الله علىٰ رجل من القريتين عظيم؛ أي: أهل الطائف أو أهل مكة، فذم الله -تبارك وتعالىٰ- هذا القائل إن هذا إلا قول البشر وتوعده بأشد الوعيد كما في سورة المدثر قال الله ﷻ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١١-٢٥].

وتوعده الله بقوله الحق: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٢٦-٣٠]. تلك عقيدة الكافرين، وذاك

(١) ورد ذلك في حديث رواه الترمذي (٢٤١٤) وغيره.

وعيدهم، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يكذبون.

وأما أهل الإيمان بالرسل الكرام، وبما أنزله الله ﷻ عليهم من الكتب المطهرة، والصحف العظيمة، والسنة الكريمة، فإنهم يؤمنون بأن الكتب المنزلة كلام الله وحده دون سواه، وأما الرسول الملكي والرسول البشري؛ فإنهما واسطة بين الله وبين خلقه، فالرسول الملكي -الذي هو جبريل عليه السلام- يتلقىٰ عن الله ﷻ ، والرسول البشري يتلقاه عن جبريل عليه السلام، وكلاهما أمين لا يزيد ولا ينقص في الوحي الذي تلقاه من رب العالمين؛ لأنهم أمناء علىٰ وحي الله، وقد اصطفاهم الله -تبارك وتعالىٰ- اصطفاءً من بين الخلق، كما أخبرنا بقوله الحق: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج:٧٥].

وأقول: تبًّا لأهل التعطيل الغلاة من جهمية ومعتزلة ومن تبعهم، الذين نفوا عن الله كلامه، فتشبهوا بأهل الجاهلية في نسبة كلام الله إلىٰ غير الله، ألا ساء ما يحكمون.

ويا خسارة أهل التأويل المذموم من أشعرية وكلابية، القائلين بأن ألفاظ القرآن إنما هي عبارة عن كلام الله أو حكاية، ألا ساء ما يعتقدون.

❋ ❋ ❋

المسألة الثَّانِيَةُ وَالخَمسُونَ: القَدحُ فِي حِكمَةِ الله تَعَالَىٰ.

الشرح:

المسألة الثانية والخمسون: القدح في حكمة الله ﷻ؛ لأنهم لا يؤمنون بربهم إلهًا معبودًا وحده دون سواه، لجهلهم وضلالهم، ولا يقدرونه حق قدره؛ لذا تراهم يتجرءون علىٰ القدح في حكمته وحكمه، بخلاف أهل الإيمان فإنهم يؤمنون بأن الله سمىٰ نفسه الحكيم فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٤٢].

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم:٢]. فهو الموصوف بالحكمة؛ إذ هو يضع الأشياء في مواضعها؛ فلا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، هذه عقيدة المؤمنين.

ونفي الحكمة عن الله ﷻ تنقص به ﷻ؛ لأن هذا من شأن أهل الجاهلية في كل زمان وفي كل مكان، وقد ذمهم الله بقوله الحق: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

فألزمهم الله بقوله الحق: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:٩١] الآية.

ونحن معشر المؤمنين عَلَّمَنَا ربنا كيف نعلن إيماننا؛ فقال سبحانه: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦].

فتعلمنا شاكرين لله العليم الحكيم فضلَه وإحسانَه وتوفيقَه للنطق والاعتقادِ بكل ما يجب الإيمان به، وفي مقدمة ذلك: الإيمان بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

المسألة الثَّالِثَةُ وَالخَمسُونَ: إِعمَالُ الحِيَلِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ فِي دَفعِ مَا جَاءَت بِهِ الرُّسُلُ؛ كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٥٤].

وَقَولِهِ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران:٧٢].

الشرح:

المسألة الثالثة والخمسون: فيها بيان مكر الجاهليين باستعمالهم الحيل الظاهرة والباطنة في دفع ما جاءت به الرسل؛ إذ كل مِلَل الكفر أَهْلُ حِيَل، يحتالون علىٰ أنفسهم ويحتالون علىٰ غيرهم، فهم ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم، وسوف يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم، وعلىٰ رأس أهل الحيل والمكر اليهود.

فهم الذين يحتالون علىٰ أحكام الشرع، فيبدلون ويغيرون ويحرفون ويلحدون، وهكذا كل من صنع كما صنعوا فهو مثلهم، توعده الله بأشد الوعيد؛ لذا جاء التعبير القرآني: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٥٤].

ومكرهم تحيلهم علىٰ النصوص بتحريفها وتأويلها تأويلًا مذمومًا باطلًا، فَلَمَّا مكروا وألحدوا في آيات الله، جاء الجزاء من جنس العمل؛ مَكَرَ الله بهم، ومَكْرُ الله -تبارك وتعالىٰ- بهم هو عين العدل جزاء وفاقًا، وهو استدراجه لهم بالإملاء والإمهال وإدرار الرزق عليهم، وهم مقيمون علىٰ معاصيه، ولكنه ﷻ يمكر بهم كما مكروا، كما في هذه الآية الكريمة وغيرها، وقد قال الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

وقال النبي ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته**»[1].

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

والظلم: ظلم النفس بترك الحق والوقوع في الباطل، وترك الطاعة والوقوع في المعصية، وترك السنة والوقوع في البدعة، وقبل ذلك ترك التوحيد الذي هو مفتاح الجنة وأساس الملة، والوقوع في الشرك -والعياذ بالله-، كما هو صنيع الجاهليين من أهل الكتاب والأميين.

وهذه الصفة -صفة المكر- لا تضاف إلىٰ الله إلا علىٰ سبيل المقابلة، أي: لما مكروا واحتالوا وخدعوا، فإن الله جازاهم من جنس أعمالهم، ولا تطلق هذه الصفة علىٰ الله بمفردها فلا يقال الله ماكر، ولها نظائر كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٦].

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢]. هذه الصفات لا تطلق بمفردها علىٰ الله ﷻ، فلا يشتق منها اسم مطلقًا، فيقال: ماكر، أو يقال: كايد، أو يقال: مخادع، كما في قوله ﷻ: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]. ولكنها تذكر علىٰ سبيل المقابلة[1]، كما نص علىٰ ذلك القرآن الكريم.

ومن مكر اليهود وحيلهم: ما قصه الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ [آل عمران:٧٢]. وهي حيلة عظيمة تروج علىٰ من قَلَّ فهمه وحرم التوفيق؛ لأنه لم يأتِ بأسبابه، فكان اليهود وأتباعهم من أهل النفاق والفساد في الأرض، يوافقون المؤمنين في الظاهر فيظهرون الإيمان أول النهار، كما أخبر الله عنهم، فإذا جاء آخر النهار ندموا علىٰ إيمانهم، وأسفوا وأعلنوا براءتهم مما آمنوا به أول النهار في زعمهم؛ لوجود الخلل وعدم المناسبة وعدم الحق فيما آمنوا به أول النهار.

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» لابن القيم (١/ ١٦٢).

وصنيعهم هذا ليكيدوا به الآخرين، فيراهم الناس وقد آمنوا، ثم بدَا لهم أن يتركوا ما آمنوا به لما فيه من الخلل، ولما فيه من هضم الحقوق، ولما فيه من الأحكام التي يزعمون ويُمَوِّهون أنها ليست من عند الله، فينخدع من ينخدع ممن يريد أن يدخل في تصديق الأنبياء بالإسلام الذي أتوا به، ينخدعون لقلة بصيرتهم فلا يؤمنون؛ لأن القوم الذين آمنوا أول النهار وكفروا آخره في نظرهم أنه بدا لهم من وجاهة ما هم عليه وصحته، وخطأ ما جاء به المرسلون.

ومن جملة هؤلاء المحتالين اليهودُ في عصر نبينا محمد ﷺ، فأبطل الله مكرهم وكيدهم وخداعهم، ولعنهم وَمَكَّنَ نبيه -عليه الصلاة والسلام- منهم؛ إذ صاروا غنيمة باردة للمسلمين كما جاء مُوَضَّحًا في سورة الحشر، والحمد لله القائل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٥١-٥٢].

والقائل -وقوله الحق-: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]. جعلنا الله وإياكم من أهل الإيمان والإحسان.

* * *

المسألة الرَّابِعَةُ وَالخَمسُونَ: الإِقرَارُ بِالحَقِّ لِيَتَوَصَّلُوا بِهِ إِلَىٰ دَفعِهِ، كَمَا قَالَ فِي الآيَةِ.

الشرح:

المسألة الرابعة والخمسون: الإقرار بالحق ليتوصلوا به إلىٰ دفعه، يعني: يقرون بالحق كما ذكر الله في الآية: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران:٧٢]. فهو إظهار الإقرار بالحق في وقت، وهم يريدون أن يكفروا به في وقت آخر ويدفعونه، كما في الآية المتقدمة من سورة آل عمران.

ومما يجب الانتباه له والتصدي لأهله، ما يدعيه أهل البدع والأهواء من غيرتهم علىٰ الإسلام، فيثيرون الشبه التي تنتج عنها الفتن، وينتج عنها انقسام المسلمين إلىٰ أحزاب وفرق، دعواهم نصرة الإسلام والجهاد، وطرائقهم قددًا؛ فلا للإسلام نصروا، ولا للعلم نشروا، ولا للأعداء كسروا.

وشر الفرق التي تحمل الخبث والتضليل فرق الخوارج الذين قال عنهم النبي ﷺ: «**كلاب النار، شر قتلىٰ تحت أديم السماء**»[1]. غير أنهم لا يفلحون، بل كل ما طلع قرن منهم قطع، وما خوارج العصر عن الأذهان والأفهام ببعيد.

فالسنةَ السنةَ يا أبناء الإسلام، والزموا الجماعة التي تسير في دعوتها وإصلاحها علىٰ النهج النبوي القويم، والسلف الصالح الغر الميامين.

* * *

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٠٠) وحسنه، وابن ماجه (١٧٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢٦٥٤ و٢٦٥٥)، وصححه علىٰ شرط مسلم، وأحمد في «مسنده» (٥/ ٢٥٦) (٢٢٢٦٢)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١/ ٣٥) (١٤٦).

المسألة الخَامِسَةُ وَالخَمسُونَ: التَّعَصُّبُ لِلمَذهَبِ؛ كَقَولِهِ فِيهَا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران:٧٣].

الشرح:

والمسألة الخامسة والخمسون: فيها بيان تعصب الجاهليين للمذهب الباطل الذي هم عليه من الكفر الشنيع، كما قال الله عنهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران:٧٣]. وهو تحذير منهم لغيرهم من متابعة الرسل؛ لأن الرسل حاربوا دين الجاهلية وأتوا بدين الحق، فأهل الجاهلية يتعصبون لما كان عليه الآباء والأجداد من الملة الجاهلية من الكفر والضلال، ويفضلون ما هم عليه علىٰ ما جاءت به رسل الله وأنبياؤه من الكتب القيمة والسنن القويمة.

ومن هنا نأخذ قضية ينبغي فهمها والاطلاع عليها، والعمل بمقتضاها، وهي التعصب لمذهب معين، سواءً لمذهب من المذاهب الأربعة، أو لمن هو في مستواهم، فإن ذلك لا يجوز التعصب لصاحب المذهب، ولا موافقته المطلقة إلا في الحق فقط، وما خالف فيه الدليل فلا يجوز أن يتابع عليه، فهو معذور، والذي يتابعه علىٰ الخطأ من بعد ما تبين له أنه خطأ، بدليل الكتاب والسنة، غير معذور، بل هو حامل وزر، وهو متعصب تعصبًا مذمومًا، نهىٰ عنه اللهُ ﷻ، ونهىٰ عنه رسولُه ﷺ، كما في قول الله ﷻ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣].

فيا أخي المسلم، اعلم أنه متىٰ اتضح الحق بدليله فهو مذهبك، وإن خالف المذهب الذي أنت تنتمي إليه امتثالًا لأمر ربك: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

وأيضًا يلحق به ويشبهه التعصب للأحزاب والجماعات، علىٰ اختلاف

أنواعها وتعدد فرقها، سواء جماعة الإخوان أو جماعة التبليغ أو جماعة حزب التحرير[١]، أو جبهة الإنقاذ[٢]، أو الجماعة القرآنية[٣]، أو غير ذلك من الجماعات المتعددة في هذا الزمان، لا يجوز لأحد أن يتعصب لهذه الجماعات وينتمي إليها انتماءً في مخالفة الحق، سواءً فيما يتعلق بالعقيدة، أو فيما يتعلق بمنهج الدعوة إلىٰ الله ﷻ، أو منهج الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر، أو النصيحة، أو منهج الولاء والبراء، والحب في الله والبغض في الله؛ لأن هذه الجماعات ابتليت في صفوفها ببدع متعددة، وأن موالاتهم غالبا في الحزب،

(١) حزب أسسه النبهاني الصوفي (١٣٢٦-١٣٩٧هـ)، هدفه إقامة دولة الخلافة، وعند هذا الحزب انحرافات عقدية وفقهية.

انظر: «الموسوعة الميسرة في الأديان» (١/ ٣٤١-٣٤٧).

(٢) حزب أسسه عباسي مدني ورفيقه علي بن حاج بالجزائر عام (١٩٨٩م)، هدفه الذي كان ينادي به تطبيق الشريعة الإسلامية بالوصول إلىٰ كرسي الحكم، دون العناية بتعليم الجماهير العقيدة الصحيحة والفقه السليم، وتبنىٰ هذا الحزب التكفير ومواجهة الحكام بالسلاح فعمت الفوضىٰ البلاد ووقع القتل والنهب وهتك الأعراض إلىٰ مفاسد كثيرة.

انظر: «مدارك النظر في السياسة الشرعية» لعبد المالك رمضاني.

(٣) أول ما ظهرت هذه الطائفة -في العصر الحديث- في الهند، وكان من أبرز دعاتها «سيد أحمد خان» مؤسس جامعة عليكره، و«عبد الله جكرالوي»، و«أحمد الدين الآمرتسري»، وآخرون، ثم جاء «غلام أحمد برويز» فأسس لهم جمعية باسم «أهل القرآن»، ولهم كتب منشورة، وابتدأ ظهورها في بلاد العرب بمصر، ومن أشهر دعاتها الأفغاني وتوفيق صدقي وأبو رية وطه حسين وأحمد أمين وغيرهم.

انظر: «القرآنيون وشبهاتهم حول السنَّة» لخادم حسين بخش، و«القاديانية» للشيخ محمد بن عبد الله السبيل، و«حجية أخبار الآحاد في العقائد والأحكام» للعلامة ربيع المدخلي.

وهذا أمر لا يجوز، بل هو من التعصب المذموم.

فعليك أيها المسلم العاقل: أن توافق صاحب الحق، وتضم صوتك إلىٰ صوته، وتضع يدك في يده، إحياءً للحق، وإعلاءً له، وردًّا للباطل ونبذًا للبدع لشدة خطرها.

إذن؛ فالتعصب المذموم هو الذي يكون لشخص معين، أو لجماعة معينة فيوافقها علىٰ الحق والباطل؛ لأنه قد انتمىٰ إلىٰ شيء من ذلك، ولا يصح أن يتابع في كل شيء إلا رسل الله الكرام وأنبياؤه العظام، وعلىٰ سبيل الخصوص في هذه الأمة، فإن الذي يتابع في كل شيء، هو نبينا محمدﷺ المعصوم من الخطأ، إذ إن الله عصمه وحفظه، حتىٰ إنه كان يجتهد في شيء قبل أن ينزل فيه الوحي، فيوجهه الله -تبارك وتعالىٰ- وينبهه، فلا يبقىٰ علىٰ خطأ، ولا يكون معه الخطأ، كما في قصة أسرىٰ بدر التي قال الله في شأنها: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٧][1].

وكما في قصة عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، الذي أتىٰ النبيﷺ وطلب منه أن يعلمه شيئًا من القرآن، وكان عند النبيﷺ طائفة من كبراء المشركين، وهو طامع في دعوتهم ونصيحتهم وعرض الإسلام عليهم؛ لذا عبس في وجه ابن أم مكتوم، وما أعجبه وقوفه في تلك الساعة، لطمع النبيﷺ في إسلام أولئك المشركين؛ إذ لو تم إسلامهم لأسلم بإسلامهم الكثير من أتباعهم؛ لذا لما كان الأمر فيه خطأ؛ فإن الله ﷻ وجه نبيهﷺ التوجيه الحق السليم فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ

(١) رواه مسلم (١٧٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما في حديث طويل.

﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس:١-١٠].

فالمقصود أن الذي يتابع في كل شيء هو المعصوم ﷺ، ومن سواه فإنه لا يتابع إلا في الحق، وأما الباطل والخطأ سواء فيما يتعلق بالاعتقاد، أو بالشعائر التعبدية، أو بالمعاملات، أو بمنهج الدعوة، والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة، والولاء والبراء، كل ذلك ما كان فيه من خطأ يجب أن يجتنب، وما كان فيه من حق يجب أن يُحَبَّ ويتبع: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] الآية، ومفادها قبول الحق ورفض الباطل أيًّا كان نوعه.

* * *

المسألة السَّادِسَةُ وَالخَمسُونَ: تَسمِيَةُ اتِّبَاعِ الإِسلَام شِركًا، كَمَا ذَكَرَهُ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٧٩] الآيَتَين.

الشرح:

المسألة السادسة والخمسون من مسائل الجاهلية: تسميتهم اتِّبَاع الإسلام شركًا، وهذا من عكس الحقائق، ومن الجهل الشنيع، الذي يرىٰ صاحبه الحق باطلًا والباطل حقًّا، فنفىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- اعتقادهم هذا ومقالتهم، ونزه رسله الكرام بقوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٧٩]؛ لأنهم قالوا: إن محمدًا يريد الناس أن يعبدوه، فنفىٰ الله ﷻ افتراءهم هذا، ونزه رسوله وجميع المرسلين، الذين خصهم الله بالكتب المنزلة والحكم والنبوة، أن يقولوا للناس: كونوا عبادًا لنا من دون الله، بل دعوة الأنبياء والرسل، كلها متفقة وقائمة علىٰ وجوب عبادة الله وحده دون ما سواه، مع اعتقاد أن كل عبادة -سواء كانت بدنية، أو مالية، أو هما معًا- يتوجه بها صاحبه لغير الله، فهي عبادة باطلة، وصاحبها مشرك شركًا أكبر.

وقد ذكر المفسرون أن الآية المذكورة نزلت في وفد نصارىٰ نجران الذين قدموا إلىٰ النبي ﷺ يتفاوضون معه فعرض عليهم السَّلامَ، فقال بعضهم يريد منا محمدًا أن نعبده؛ لأنه أخبرهم بما أخذ الله علىٰ رسله، لئن بعث محمدًا وأحد منهم علىٰ قيد الحياة ليتبعنه[1].

ولقد تشبهت الصوفية القبورية بتسمية التوحيد شركًا وعكسه؛ إذ من لم

(١) انظر: «السيرة» لابن إسحاق (٢/ ١٤٥-١٤٦)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٨٤).

يستغث بالرسول والصالحين فهو مبغض لهم غير موحد، ومن استغاث بغير الله فهو المسلم الحقيقي عندهم، أعاذنا الله من جهلهم الواضح ومعتقدهم الفاضح.

* * *

المسألتان السَّابِعَةُ وَالخَمسُونَ وَالثَّامِنَةُ وَالخَمسُونَ: تَحرِيفُ الكَلِمِ عَن مَوَاضِعِهِ، ولَيُّ الأَلسِنَةِ بِالكِتَاب.

الشرح:

المسألتان السابعة والخمسون والثامنة والخمسون من مسائل الجاهلية ومن تشبه بهم من أهل الانحراف: تحريف الكلم عن مواضعه، أي: تغييره في الألفاظ والمعاني، وهذه من طبيعة كل مشرك، يهودي أو نصراني أو مجوسي أو وثني، لابد أن يحرفوا الكلم عن مواضعه؛ ليحصل لهم المقصود من ورائه، لأن الله ﷻ أنزل الكلام الحق والفصل في كتبه التي ذكرها الله، التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، وصحف إبراهيم وموسىٰ، وما لم يذكره لنا وآمن أهل الحق بتلك الكتب.

وأما الجاهليون: فهم أهل استجابة لما تمليه عليهم شياطينهم استماعًا لأهوائهم، وتقليدًا لآبائهم، وأجدادهم الضالين، يحرفون كلام الله تحريفًا لفظيًّا، أو تحريفًا معنويًّا، حتىٰ يصرفوه عن المعنىٰ الحق الذي أنزله الله -تبارك وتعالىٰ- لبيانه، وكثيرًا ما يفعل ذلك اليهود، فحرفوه وبدلوا وغيروا، حسب أهوائهم، ومتطلبات نفوسهم الظالمة، وقلوبهم المريضة، فذمهم الله بذلك بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٧].

وكل من تعمد تحريف النصوص عن معانيها لتوافق هواه من المسلمين، قد تشبه باليهود: «**ومن تشبه بقوم فهو منهم**»[1]. ولقد تشبه بأهل الجاهلية كل من عرض عليه الحق، فرده بشبه من الباطل، لحاجة في قلبه يريد قضاءها، حتىٰ إذا

(١) سبق تخريجه (ص٥٣).

وجد الله فوفاه حسابه، عض الأنامل من الندم، ولات ساعة مندم.

فهنيئًا لأصحاب الحق من جميع الأمم، لقد تمسكوا به علمًا وعملًا وعقيدة وشريعة، وطوبىٰ لهم وحسن مآب.

* * *

المسألة التَّاسِعَةُ وَالخَمسُونَ: تَلقِيبُ أَهلِ الهُدَىٰ بِالصُّبَاةِ وَالحَشوِيَّةِ.

الشرح:

المسألة التاسعة والخمسون من معتقدات أهل الجاهلية ومناهجهم: نبزهم أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ بأحسن الصفات، وتلقيبهم أهل الهدىٰ بالصابئة[1] والحشوية[2]، وهذا صنيع كفار قريش ومن علىٰ نهجهم يسير، إذ قالوا: إن محمدًا ﷺ صبأ، بمعنىٰ: خرج عن تقاليد قوم آبائه وأجداده، فدعا إلىٰ

(١) **الصابئة:** هي أمة كبيرة من الأمم الكبار، وهم ينقسمون إلىٰ قسمين:
صابئة حنفاء وصابئة مشركة.
والمشركون منهم يعظمون الكواكب السبعة، والبروج الاثني عشر ويصورونها في هياكلهم، فلهم هيكل كبير للشمس وهيكل للقمر وهيكل للزهرة وهيكل للمشتري ...
انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (٢/ ٦٣)، و«فتاوىٰ ابن تيمية» (٢/ ١٩)، و«درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٣١٣) له، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٢٣-٢٥٥)، و«أحكام أهل الذمة» (١/ ٢٣١-٢٤٢) كلاهما لابن القيم، و«الموسوعة الميسرة في الأديان» (٢ / ٧١٤-٧٢٣).

(٢) **قال ابن تيمية:** «فأما لفظ الحشوية فليس فيه ما يدل علىٰ شخص معين، ولا مقالة معينة، فلا يدرىٰ من هم هؤلاء، وقد قيل: إن أول من تكلم بهذا اللفظ عمرو بن عبيد فقال كان عبد الله بن عمر حشويًّا».
«منهاج السنة النبوية» (٢/ ٥٢٠) وانظر ما بعدها، و«بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١٢٩-١٣٣)، و«الفتاوىٰ» (٣/ ١٨٥).
وهذه التهمة ألصقها المتكلمون بأهل السنة والحديث.
انظر: «البرهان» للجويني (١/ ٦٠٦)، و«الاقتصاد في الاعتقاد» للغزالي (ص٤٧)، و«أساس التقديس» للرازي (ص١٢٧)، و«غاية المرام» للآمدي (ص١٣٦ و٣١١).

عبادة الإله الواحد، وحرَّم عبادة الأصنام والأوثان، وهم يعلمون أن ذلك بوحي من الله الكريم الرحمن.

وكذلك أهل الجهل من أهل البدع يطلقون علىٰ أهل السنة: الحشوية؛ تنفيرًا للناس من اتباعهم، وموقفهم علىٰ الحق من إثبات أسماء الله الحسنىٰ، وصفاته العلا، وأفعاله اللائقة بعظمته وجلاله، وذلك منهم غاية الحسد، ومنتهىٰ الضلال، وليس بمستغرب من أهل الجهل والضلال، بل مقالات السوء والسخرية من الحق وأهله، ميراث الأشقياء، يرثه اللاحق عن السابق.

واسمع ماذا قال قوم نوح عليه السلام أول رسول إلىٰ أهل الأرض لنوح، إذ قالوا ما قصه الله عنهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود:٢٧].

فقد جعلوا الحق باطلًا والباطل حقًّا، فحقت عليهم لعنة الله، ونزل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

* * *

المسألتان الستون والحادية والستون: افتِرَاءُ الكَذِبِ عَلَىٰ اللهِ، والتَّكذِيبُ بِالحَقِّ.

الشرح:

المسألتان الستون والحادية والستون: افتراء الكذب علىٰ الله، والتكذيب بالحق.

حقًّا لقد اجتمع أهل الملل الباطلة، كاليهودية والنصرانية والأميون الوثنيون علىٰ افتراء الكذب علىٰ الله، وعلىٰ رسله ﷺ وعلىٰ الحق وأهله بغيًا وعدوًا.

ومن جملة افترائهم علىٰ الله الكذب نسبةُ الولد إليه، كما بين الله ذلك بقوله الحق: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠].

قال الله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾.

ومن جملة افتراءاتهم علىٰ الله الكذبَ وعلىٰ رسوله ﷺ، ما قصه الله عنهم بقوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام:١٠٠].

ومن افتراءاتهم علىٰ الله وعلىٰ رسوله ﷺ وعلىٰ الحق، اتهامُهم لرسول الله ﷺ بالشعر والكهانة، والسحر والكذب، كما أوضح الله ذلك عنهم في آيات محكمات، ولكنهم لا يؤمنون بالآيات، ولا بما جاءت به الآيات من الأحكام، التي بَيَّنَهَا لهم رسول الإسلام -عليه الصلاة والسلام-؛ بل كذبوا بالكتاب كله، وبهدي سيد المرسلين والخلق أجمعين، فويل لهم مما قدمت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون.

ولا ريب أن كل معتقد باطل، وسلوك سيئ وفساد في الأرض، فمصدره أهل الجاهلية، ومن تشبه بهم وحذا حذوهم من الثقلين، ولسوء عقائدهم وفساد سلوكهم وأخلاقهم، وشدة خطرهم علىٰ غيرهم، بعث الله رسله الكرام لمحاربة معتقداتهم وسلوكهم، فاهتدىٰ بدعوة الرسل من شاء الله هدايته بمن أتوا بأسبابها، وأعرض عنها أكثر الناس؛ فضلوا عن سواء السبيل.

وإذا علمت -أيها المسلم-: أن من أعمال أهل الجاهلية افتراءَ الكذب علىٰ الله وعلىٰ رسوله ﷺ، والتكذيب بالحق، ومعاداة أهله، فاحترس من كل ذلك، وكل ما يكون وسيلة إليه، بل والتزم بضد ذلك بجد واجتهاد وصدق وتصديق، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]؛ إذ بذلك تنال سعادة الدارين.

* * *

المسألة الثَّانِيَةُ وَالسِّتُّونَ: كَونُهُم إِذَا غُلِبُوا بِالحُجَّةِ فَزِعُوا إِلَىٰ الشَّكوَىٰ لِلمُلُوكِ، كَمَا قَالُوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٢٧].

الشرح:

المسألة الثانية والستون: كونهم إذا غلبوا بالحجة، فزعوا إلىٰ الشكوىٰ للملوك والوجهاء في نظرهم، وهذا من تلبيسهم وتضليلهم علىٰ الآخرين، وعلىٰ أنفسهم قبل غيرهم، ولا شك أنهم يغلبون بالحجة، والحجة ما جاءت به رسل الله، فإن الرسل يدلون عليهم بنصوص الوحي، فيبطلون حججهم الواهية، ويضربون لها الأمثال، كما في قوله ﷻ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١].

فإذا غلبوا بالحجج التي بَيَّن الله ﷻ أنها داحضة زائلة وباطلة، عمدوا إلىٰ أساليب أخرىٰ، كالشكوىٰ إلىٰ الملوك؛ ليظهروا ضعفهم عندهم، ويستثيروهم علىٰ أهل الحق وأتباعه ودعاته.

وقد استدل رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما قصَّه الله ﷻ عن قوم فرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ والخطاب لفرعون منهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾، وهذا من المكر والخداع؛ فإنهم أطلقوا علىٰ أهل الصلاح والإصلاح أنهم أهل فساد في الأرض، وأطلقوا علىٰ أنفسهم بأنهم صالحون مصلحون في الأرض، وهذا من غاية مكرهم وكيدهم، الذي رَدَّه الله في نحورهم، ونصر الله رسوله موسىٰ عليهم بالآية المعجزة، التي أكرمه بها، فصارت سببًا في إيمان السحرة بربهم، واستكبر فرعون ومن معه، فردوا الحق الذي جاء به موسىٰ عليه السلام، وادعوا دعواهم الكاذبة، أن موسىٰ يريد أن يبدل دينهم، أو أن يظهر في الأرض الفساد،

فكانت عاقبتهم العقوبة العاجلة والآجلة؛ إذ صارت أجسامهم للغرق وأرواحهم للنار والحرق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

* * *

المسألة الثَّالِثَةُ وَالسِّتُّونَ: رَميُهُم إِيَّاهُم بِالفَسَادِ فِي الأَرضِ، كَمَا فِي الآيَةِ.

الشرح:

المسألة الثالثة والستون: رميهم إياهم بالفساد، كما سبق في الآية ما قصه الله عنهم بقوله: ﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٢٧]. وذلك بأنهم لما عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة، عمدوا إلىٰ أهل القوة، من شياطين الإنس فرعون وجنوده، الذين صبوا علىٰ بني إسرائيل سوءَ العذاب، فكان مصير الخصوم كما قص الله عنهم من هلاك فرعون وجنوده، وبيان أنهم هم أهل الفساد في الأرض، ونجاة موسىٰ صاحب الحق بالبرهان، وهكذا سنة الله الجارية، حفظُ أهل الحق والناصرين له، والانتقامُ من المجرمين بالعقوبات العاجلة والآجلة.

وحقًّا إن في قصص الرسل والأنبياء مع أممهم لعبرًا لأمة محمد ﷺ، وعظات تحفزهم إلىٰ طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ؛ ليكونوا مع المنعم عليهم، الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

* * *

المسألة الرَّابِعَةُ وَالسِّتُّونَ: رَمِيُهُم إِيَّاهُم بِانتِقَاصِ دِينِ المَلِكِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وَكَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ [غافر:٢٦] الآيَة.

المسألة الخَامِسَةُ وَالسِّتُّونَ: رَمِيُهُم إِيَّاهُم بِانتِقَاصِ آلِهَةِ المَلِكِ كَمَا فِي الآيَةِ.

المسألة السَّادِسَةُ وَالسِّتُّونَ: رَمِيُهُم إِيَّاهُم بِتَبدِيلِ الدِّينِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

الشرح:

المسائل الرابعة والخامسة والسادسة والستون: رميهم إياهم بانتقاص الملك ودينه وآلهته، وذلك لاستثارة الملك حتىٰ يتسلط عليهم كما في قوله ﷻ: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾.

وكما في قول فرعون الذي أنزل الله به بأسه، هو ومن علىٰ شاكلته، فأذاقه من العذاب الدنيوي والبرزخي، مع ما ادخر الله له من العذاب الأكبر يوم القيامة، الذي قال فيه ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

قال فرعون لقومه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ [غافر:٢٦]؛ أي: موسىٰ عليه السلام: ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾، وهذا من التمويه والتظليل؛ ليبقىٰ القوم في طاعته وعبادته وخدمته؟

لذا قال المولىٰ الكريم: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف:٥٥]؛ يعني: فلما أتوا بموجبات غضب الله انتقم الله منهم، فأذاقهم عذابًا دنيويًّا، وسيصليهم عذابًا أخرويًّا، وهذه المسألة متعلقة بالمسائل الأولىٰ في بيان ما عليه

أهل الجاهلية في كل زمان ومكان، من الكذب علىٰ الله وعلىٰ رسله -عليهم الصلاة والسلام-، وبغضهم لأهل الحق ومحبة إلحاق الضرر بهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

* * *

المسألة السَّابِعَةُ وَالسِّتُّونَ: رَميُهُم إِيَّاهُم بِانتِقَاصِ المَلِكِ، كَقَولِهِم: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

الشرح:

المسألة السابعة والستون: رميهم؛ أي: رمي أعداء الدين لعباد الله الصالحين بتبديل الدين، وهذا ما صرح به فرعون في قومه حيث ظهر بمظهر المشفق علىٰ قومه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

والدين الذي خاف من تبديله: هو الإشراك بالله إشراكًا في الربوبية حيث ادعىٰ فرعون بأنه ربهم الأعلىٰ: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٥].

وموه علىٰ قومه بدعواه أنه مشفق عليهم، من أن يظهر الفساد في أرضه وما الفساد إلا دعوته الجهنمية حيث فَصَلَ القوم عن ربهم الحق -جل وعلا-، وربطهم بشخصه وادعىٰ بأنه ربهم الأعلىٰ، وقد أمهله الله ﷻ زمنًا طويلًا حتىٰ حاق به سوء العذاب، قال الله في حقه وحق من أطاعه: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]. وهو في مقدمتهم كما قال تعالىٰ: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ [هود:٩٨].

وهكذا عاقبة كل الذين يرفضون دعوة الرسل والداعين بدعوتهم، أن الله يجمع لهم بين العقوبات الدنيوية والأخروية، بخلاف أنصار الرسل وأتباعهم، فإن عاقبتهم سعادة الدارين، فطوبىٰ لهم وحسن مآب.

* * *

المسألة الثَّامِنَةُ وَالسِّتُّونَ: دَعوَاهُم العَمَلَ بِمَا عِندَهُم مِنَ الحَقِّ كَقَولِهِم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة:٩١]، مَعَ تَركِهِم إِيَّاهُ.

الشرح:

المسألة الثامنة والستون من مسائل الجاهلية: دعواهم العمل بما عندهم من الحق، كما قصه الله عنهم بقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وهو جواب لقول الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١].

فهم يدَّعون بأنهم يؤمنون بما أنزل عليهم، وقد حرَّفوه وبدَّلوه وغيَّروه، ولم يعملوا بما أنزل الله حقًّا من التوراة والإنجيل، إنما هو التلبيس والدعاوىٰ الكاذبة؛ ليتخلصوا من الالتزام بالحق، وليصدوا غيرهم من أتباعهم ومقلديهم، ممن لا يبالون بالكذب علىٰ الله، ولا يحسنون الفرار إلىٰ الله من شر الأشرار، ويوم القيامة يجمع الله الخبيث بعضه علىٰ بعض، فيجعله في جهنم.

وإذا كان ما ذكر هو سلوك أهل الجاهلية وأتباعهم ومقلديهم، فتميز أيها المسلم بالمحافظة علىٰ عقيدتك الإسلامية، وشعائر عبادتك الزاكية، وأدبك الرفيع القائم علىٰ الصدق والصواب والإخلاص لتنجوَ من أعمال الكاذبين، وإعراض الغافلين الجاهلين، وتظفر برضا رب العالمين، وجنة أعدت للمتقين، من دخلها يخلد فلا يموت، ويشب فلا يهرم، ويصح فلا يسقم، لا تبلىٰ ثيابه، ولا يفنىٰ شبابه[1].

---

(١) أخرج مسلم (٢٨٣٦) عن أَبِي هُرَيرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ يَنعَمُ لَا يَبأَسُ، لَا تَبلَىٰ ثِيَابُهُ وَلَا يَفنَىٰ شَبَابُهُ».

المسألة التَّاسِعَةُ وَالسِّتُّونَ: الزِّيَادَةُ فِي العِبَادَةِ كَفِعلِهِم يَومَ عَاشُورَاءَ.

الشرح:

المسألة التاسعة والستون من مسائل الجاهلية: الزيادة في العبادة من الرافضة الدجالين كفعلهم يوم عاشوراء، فهم يفعلون أفعالًا محرمة في يوم عاشوراء، ويفعلون عبادات بدعية وشركية أخرىٰ؛ ليوهموا الناس أنهم علىٰ حق وعندهم عبادة.

ومن جملة ذلك ما يفعله الرافضة[1] في يوم عاشوراء من خروجهم، وتجمعاتهم، وإظهار الحزن، وانتظارهم لخروج المهدي المنتظر، كل هذا من الكذب ومن التلبيس علىٰ الناس، ومن تضليل الشيطان لهم ولأمثالهم وأتباعهم ومن يزكيهم ويدافع عنهم، كحسن البنا وموافقيه؛ لأنهم تركوا أساس الدين، ألا وهو توحيد رب العالمين، وتركوا متابعة النبي الأمين ﷺ، واتبعوا دعوة الشيطان صاحب الضلال المبين.

---

(١) الرفض بمعنىٰ الترك وهم الذين يرفضون إمامة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويتبرءون منهم، ويسبون أصحاب النبي ﷺ ويتنقصونهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما لفظ الرافضة فهذا اللفظ أول ما ظهر في الإسلام لما خرج زيد بن علي بن الحسين في أوائل المائة الثانية في خلافة هشام بن عبد الملك واتبعه الشيعة، فسئل عن أبي بكر وعمر فتولاهما، وترحم عليهما، فرفضه قوم فقال: رفضتموني رفضتموني فسموا الرافضة». «الفتاوىٰ» (١٣/ ٣٥).

وانظر فرقهم واعتقاداتهم في: «مقالات الإسلاميين» للأشعري (١/ ٣٣-٦٧)، و«الفرق بين الفرق» للبغدادي (٢٢-٥٤)، و«الملل والنحل» (١/ ١٦٢-١٧٣)، و«منهاج السنة النبوية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، و«الرد علىٰ الرافضة» للشيخ محمد بن عبد الوهاب.

ويلحق بهم في الكذب والضلال أصحاب البدع المحدثات، الذين أحدثوا في دين الله ما ليس منه، كالصوفية الخرافية وما يفعلونه عند الأضرحة من الاستغاثات بمن يسمونهم أولياء الله، ويطلبون منهم المدد، وكذا من أخبث البدع ما كان يفعله المشركون في الحج، فيطوف النساء والرجال عراة، ويقفون في المزدلفة، ولا يَصِلُون عرفة، ولا غرابة من أن يفعلوا ذلك وغيره من البدع المنكرة، فإنهم مشركون لا يقبل الله منهم فريضة ولا نفلًا، ولا قولًا ولا فعلًا، فليحذر المسلمون من نتن الجاهلية ومقلديهم، وليعتصموا بكتاب ربهم وسنة نبيهم، وليطلبوها ليعيشوا في ظلها الوارف الظليل.

* * *

المسألة السَّبعُونَ: نَقصُهُم مِنهَا، كَتَركِهِم الوُقُوفَ بِعَرَفَاتٍ.

الشرح:

المسألة السبعون: نقصهم منها؛ أي: من العبادة التي أمر الله بها، ومنها عبادة الحج كما فعل المشركون الذين قالوا نحن لا نعظم إلا الحرم، فلا نتركه ونخرج إلىٰ عرفات وهي من الحل فلا يقفون بها؛ لأن عرفة خارج حدود الحرم، والمزدلفة داخل حدود الحرم، فلما كان في حجة الوداع ظنوا أن النبي -عليه الصلاة والسلام- سيقف في المزدلفة، فإذا هو يقف بعرفة هو والناس.

والمشركون قالوا هم أهل الحرم، فلا يعظمون سواه فوقفوا في المزدلفة، وزعموا أنه من الدين الذي ورثوه عن إبراهيم عليه السلام، وهذا من الجهل، فإن القوم ما كانوا علىٰ ملة إبراهيم، وإنما كانوا علىٰ ملة الشياطين.

والحق مع النبي ﷺ وأتباعه إلىٰ يوم الدين، وليست مخالفات أولئك المشركين الضالين محصورة فيما ذكر، بل هم مخالفون في أصل الدين وقاعدته توحيد رب العالمين، فلا غرابة أن يخالفوا في مسائل الحج؛ بل في كثير من جوانب الفرائض والواجبات، وعلىٰ رأسها توحيدُ الله -تبارك وتعالىٰ-، الذي كانوا عنه بمعزل بعيد طاعة لكل شيطان مريد.

* * *

المسألة الحَادِيَةُ وَالسَّبعُونَ: تَركِهِم الوَاجِبَ وَرَعًا.

الشرح:

المسألة الحادية والسبعون: تركهم الواجب ورعًا، وهم يعلمون بأن تركهم للواجب إنما هو إعراض واستكبار عن امتثال أمر الله واجتناب نهيه.

ومن جملة ورعهم المزعوم: طوافهم بالبيت عراة ذكورًا وإناثًا، بحجة أن ثيابهم التي يقدمون بها[1]، قد عصوا الله فيها، فلا يصح طوافهم فيها؛ فيكشفوا عن عوراتهم[2]، وذلك من تلاعب الشياطين بعقولهم، وعلىٰ كل حال فهم لا حج لهم -ولو أتوا به- صحيحًا؛ لأنهم مشركون الشرك الأكبر، الممثل في عبادة الأصنام والأوثان، التي ما أنزل الله بعبادتها من سلطان، وقد سبق شيء من هذا في المسائل الماضية.

وكما أسلفت مرارًا، أنه لا ينقذ من شر الجهل إلا العلمُ بما أوحاه الله إلىٰ الرسل وبلغته الأمم، فمن أخذ نصيبه من العلم وكان صادقًا مخلصًا، عُوفي من مرض الجهل الذي فضله زعماء الجاهلية وأتباعهم ومن تشبه بهم، علىٰ ما جاءت به الرسل، وكما سبق أن من رد العلم الشرعي، كأهل الجاهلية المتعصبين لما كان عليه أسلافهم الضالون؛ فإنه يعيش في ضلال ويموت عليه، فيجازىٰ من الله بأشد العذاب والنكال في دار الجزاء علىٰ الأعمال.

❋ ❋ ❋

(١) هذا للقادم من غير مكة.

(٢) الكشف لمن لم تكن له ثياب جديدة.

المسألة الثَّانِيَةُ وَالسَّبعُونَ: تَعَبُّدُهُم بِتَركِ الطَّيِّبَاتِ مِن الرِّزقِ.

المسألة الثَّالِثَةُ وَالسَّبعُونَ: تَعَبُّدُهُم بِتَركِ زِينَةِ اللهِ.

الشرح:

المسألتان الثانية والسبعون والثالثة والسبعون، في بيان تعبدهم بترك الطيبات من الرزق، وتركهم زينة الله التي أخرج لعباده، وقد أنكر الله ﷻ عليهم ذلك بقوله الحق: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢].

ورد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

وكل هذه الموبقات موجودة في صفوف المشركين، يدينون بها، ويعيشون في جحيمها، ويردون ما جاءهم من الحق وهم يعلمون.

وما ذلك إلا لفساد عقائدهم وسوء سلوكهم؛ فإنهم في كل زمان ومكان، لم يرفعوا بنصوص الكتاب والسنة رأسًا، ولم يقبلوا ما فيها من البينات والهدىٰ، فتراهم يزهدون في المآكل الطيبة التي أبيحت شرعًا للناس، ويعمدون بما حرم الله من ذلك من الخبائث جريًا وراء إبطال الشرع؛ ليبقىٰ لهم ما سَنَّه لهم شياطينهم من الإنس والجن، فهم علىٰ آثارهم مقتدون، وهذا صنيع كل مشرك خبيث، من يهود ونصارىٰ ووثنيين ومن تشبه بهم تشبهًا كليًّا أو جزئيًّا، قاتلهم الله أنىٰ يؤفكون.

* * *

المسألة الرَّابِعَةُ وَالسَّبعُونَ: دَعوَتُهُم النَّاسَ إِلَىٰ الضَّلَالِ بِغَيرِ عِلمٍ.

الشرح:

المسألة الرابعة والسبعون في إيضاح دعوتهم الناس إلىٰ الضلال بغير علم، وهذا هو الواقع؛ إذ إن الكفار منهم السادة الكبراء، ومنهم الضعفاء الأتباع، كما قص الله علينا ذلك بقوله الحق: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب:٦٧].

ثم طلبوا من الله ﷻ أن يعاقبهم، كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٨].

والله -تبارك وتعالىٰ- يقضي بينهم، أي بين الأتباع والمتبوعين، فيركمهم جميعًا في جهنم، ولا ينفع يوم القيامة أن يتبرأ المتبوعون من الأتباع، كما قال المولىٰ الكريم: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الأحزاب:٣٩]؛ أي: الأتباع والمتبوعون جميعهم في نار جهنم، ولا يغني أحد عن أحد، بل كل يقاسي من أليم العذاب ما تذوب منه الجبال.

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:١].

والصد هنا يتوجه إلىٰ صدهم أنفسهم، وإلىٰ صدهم غيرهم عن سبيل الله؛ أي: طريق الحق الذي دعت الرسل إلىٰ اتباعه.

ولقد حذر الله المؤمنين من دعاة الضلالة بقوله الحق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٠٠].

والخلاصة: أن أهل ملل الكفر -ومنهم أهل الجاهلية-، قد تواصوا بالكفر والضلال، والاعتصام به والدعوة إليه من غير هدىٰ؛ لأنهم ردوا دعوة دعاة الهدىٰ، الرسلِ الكرام والأنبياءِ العظام وأتباعهم من أئمة الإسلام، عبر تاريخ الزمان،

وكل من دعا إلىٰ ضلالة، من أهل الأهواء، وأصحاب المبادئ الهدامة، وأصحاب الأفكار الشيطانية، من رافضة وخوارج وصوفية وقبورية وغيرهم من دعاة الضلالة، قد أخذ نصيبًا من دعوة أهل الجاهلية؛ لأنه ما بعد الحق إلا الضلال، والشكوىٰ من أهل الزيغ والضلال إلىٰ الله الكبير المتعال.

* * *

المسألة الخَامِسَةُ وَالسَّبعُونَ: دَعوَتُهُم إِيَّاهُم إِلَىٰ الكُفرِ مَعَ العِلمِ.

الشرح:

المسألة الخامسة والسبعون: دعوتهم إياهم إلىٰ الكفر مع العلم أنه كفر، وهذا الصنيع منهم، قد نص عليه القرآن الكريم، حيث قالوا للذين أوتوا الكتاب: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [آل عمران:٧٢]؛ أي: ليحصل عند الناس شك في الدين الحق، وابتعاد عن الإيمان بما جاء به المرسلون.

وهذا الصنف من الناس خطير؛ إذ إن بعضهم يدعو الناس إلىٰ الكفر والضلال والشرك والبدعة، مع علمه أنها محرمة وباطل، كما فعل اليهود الذين ضلوا عن الطريق المستقيم بعد علمهم به.

والفرق بين هذه المسألة والتي قبلها أن هناك صنفين من الناس:

١- صنف يدعو الناس إلىٰ الباطل وهو لا يعلم، فهو كأعمىٰ يقود أعمىٰ.

٢- وصنف يدعو الناس إلىٰ الباطل وهو يعلم، فهو صاحب مكر وخداع وتضليل، يقود من آثروا الضلالة علىٰ الهدىٰ والعذاب علىٰ المغفرة، فما أصبرهم علىٰ النار.

وكلاهما خطير علىٰ الناس.

وإذ كان الأمر كما علمت؛ فاحذر -أيها المسلم- من أصحاب الدعوات المنحرفة في هذا الزمان، والزم أهل السنة أتباع السلف الصالح في العقيدة والشريعة، وكن من الدعاة إلىٰ ذلك، ومن أهل التحذير من أولئك، تظفر بسعادة الدارين، ورضا رب المشرقين والمغربين.

❋ ❋ ❋

المسألة السَّادِسَةُ وَالسَّبعُونَ: المَكرُ الكُبَّارُ كَفِعلِ قَومِ نُوحٍ.

الشرح:

المسألة السادسة والسبعون: المكر الكبار، وهذا ما وصف الله به قوم نوح الذين بدءوا بالإشراك بالله -تبارك وتعالىٰ-، قال الله عنهم: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح:٢٢]؛ أي: مكرًا عظيمًا بتزيين القبيح للناس وتقبيح الحسن؛ ليكون الأول مقبولًا والثاني مردودًا: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣].

وهذه أسماء رجال صالحين لما ماتوا زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم؛ لينشطوا بزعمهم علىٰ الطاعة إذا رأوها، ثم طال الأمد وجاء غير أولئك القوم فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم كانوا يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يستسقون المطر فعبدوهم[1]، ولهذا وصىٰ رؤساؤهم التابعين لهم ألا يدعوا عبادة هذه الأصنام ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [نوح:٢٤]؛ أي: أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيرًا من الخلق.

وإضلالهم هو صد الناس عن الحق وقبوله، وتحسين القبيح، وتشويه

---

(١) أخرج البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس ﷺ قال: «صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَت فِي قَومِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعدُ، أَمَّا وَدٌّ كَانَت لِكَلبٍ بِدَومَةِ الجَندَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَت لِهُذَيلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَت لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيفٍ بِالجَوفِ، عِندَ سَبَأ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَت لِهَمدَانَ، وَأَمَّا نَسرٌ فَكَانَت لِحِميَرَ لِآلِ ذِي الكَلاَعِ، أَسمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِن قَومِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوحَىٰ الشَّيطَانُ إِلَىٰ قَومِهِم أَنِ انصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجلِسُونَ أَنصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسمَائِهِم، فَفَعَلُوا، فَلَم تُعبَد، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلمُ عُبِدَت».

الفعل أو القول الحسن، وهي طريقة أهل الكفر والصد عن سبيل الله في كل زمان ومكان.

وهكذا أهل البدع والفسوق، يصدون الناس عن الحق بشتىٰ الوسائل والطرق، ووسائلهم وطرقهم تختلف من زمان إلىٰ زمان، ومن مكان إلىٰ مكان.

والعاقل هو من يتبع الكتاب والسنة ومنهج سلف الأمة، ويحذر من طرق أهل الكفر والبدع والفسوق.

ومما ينبغي التنبيه عليه: أن قوم نوح عليه السلام الذين فشا فيهم الشرك بعد مضي عشرة قرون من لدن آدم عليه السلام والقرون تتتابع علىٰ التوحيد[1]، حتىٰ اتخذ الناس آلهة تعبد من دون الله، كما ذكر الله ذلك في سورة كاملة وهي سورة نوح، فهم أصل كل جاهلية جاءت من بعدهم؛ لأنهم سَنُّوا عبادة الأصنام التي هي شر أعمال الجاهلية، وكل من انحرف عن الحق بنبذه دعوة الرسل ومن دعا بدعوتهم، أخذ نصيبه من إرث الجاهلية من أفعالهم وأقوالهم، والحمد لله علىٰ معرفة الحق والعمل به، ومحبته، ومحبة من بعث به وبلغه الأمم ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة.

* * *

(١) روىٰ البزار (١١/ ٩٩/ ٤٨١٥)، والطبري في «تفسيره» (٤/ ٢٧٥) برقم (٨٠٤٨)، والحاكم (٣٦٥٤ و٤٠٠٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَ بَينَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُم عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الحَقِّ، فَاختَلَفُوا فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ». وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

المسألة السَّابِعَةُ وَالسَّبعُونَ: أَنَّ أَئِمَّتَهُم إِمَّا عَالِمٌ فَاجِرٌ، وَإِمَّا عَابِدٌ جَاهِلٌ؛ كَمَا فِي قَولِهِ: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ إِلَىٰ قَولِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٥-٧٨].

الشرح:

المسألة السابعة والسبعون، التي تشبه أئمة أهل الجاهلية فيها باليهود والنصارىٰ، فهم إما عالم فاجر، وإما عابد جاهل.

فالعالم الفاجر الذي آتاه الله ﷻ علمًا ولم يعمل به، كاليهود وأتباعهم ومن تشبه بهم، والعابد الجاهل كالنصارىٰ، وكل من عبد الله علىٰ جهل وضلال إلىٰ يوم القيامة.

فقدوة أهل الجاهلية هم إما عالم فاجر يحلل لهم ما حرم الله، أو يحرم عليهم ما أحل الله، وإما عابد راهب جاهل يعبد الله علىٰ غير بصيرة وهدىٰ؛ بل علىٰ جهل وعمىٰ.

وهاتان الطريقتان قد حذرنا منهما ربنا -تبارك وتعالىٰ- في قوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧].

فالمغضوب عليهم هم اليهود[1]، ومن تشبه بهم في معتقدهم وسلوكهم،

(١) روىٰ أحمد (٢٠٣٥١-الرسالة) عن عَبد اللهِ بن شَقِيقٍ، أَنَّهُ أَخبَرَهُ مَن سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ، وَهُوَ بِوَادِي القُرَىٰ، وَهُوَ عَلَىٰ فَرَسِهِ، وَسَأَلَهُ رَجُلٌ مِن بُلقِينَ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، مَن هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: **هَؤُلَاءِ المَغضُوبُ عَلَيهِم** -وَأَشَارَ إِلَىٰ اليَهُودِ-.
قَالَ: **فَمَن هَؤُلَاءِ؟** قَالَ: **هَؤُلَاءِ الضَّالُّونَ** -يَعنِي: النَّصَارَىٰ-». انظر: «الصحيحة» للألباني (٣٢٦٣).

ولو كان من العرب، فالضالون هم النصارىٰ[1] الجُهَّال بشرع الله ومن تشبه بهم في معتقدهم وسلوكهم من العرب والعجم.

ولقد بين الله بعض صور خبث اليهود وتلاعبهم بالنصوص في قوله الحق: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة:٧٥-٧٧].

فعلماء اليهود الخبثاء، الذين علموا من التوراة ما قامت به الحجة عليهم، غير أنهم عمدوا إلىٰ نصوص التوراة التي فيها بيان الأحكام والحلال والحرام، فحرفوا ألفاظها وغيروا معانيها، فضلوا بسبب هذا التحريف، وأضلوا غيرهم عن الحق جملة وتفصيلًا، وكم من آية كريمة بَيَّنَ الله فيها خبث اليهود وكذبهم ومعاداتهم للوحي الإلهي، ولمن جاء به من الرسل والأنبياء.

ولقد أخبر الله عن قسم منهم أنهم جهال، غير أنهم أهل عبادة ويقرءون من نصوص التوراة بدون فهم لما يقرءون، فيقتدي بهم في جهلهم غيرهم فأضلوهم بجهلهم.

ولقد هدىٰ الله في كل زمان ومكان من شاء، ممن طلب الحق صادقًا والهدىٰ مخلصًا وجادًّا، فعملوا بما تعلموه وبينوه للناس، ففازوا برضا ربهم وحسن ثوابه، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨]؛ أي: من أهل الكتاب قوم جهال يقرءون شيئًا من التوراة: ولكن لا يفهمون إلا اللفظ دون المعنىٰ، فضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم، ممن قلدهم من أهل

الجاهلية الذين اتخذوا من جهال أهل الكتاب أئمة يقتدون بهم، فخسروا أنفسهم وأهليهم، ألا ذلك هو الخسران المبين.

وإذ كان الأمر كما علمت أيها المسلم، فعليك بمتابعة أهل العلم الشرعي حتىٰ تفقه دينك، وتكون علىٰ بصيرة في سيرك في حياتك، ولا تقلد الجهال الذين يظنون أنهم علىٰ علم، وهم أجهل الناس في أمر دينهم، لابتعادهم عن العلماء الربانيين، الذين تعلموا وعملوا وعلموا غيرهم، ابتغاء مرضاة الله والدار الآخرة.

* * *

المسألة الثَّامِنَةُ وَالسَّبعُونَ: دَعوَاهُم أَنَّهُم أَولِيَاءُ الله مِن دُونِ النَّاسِ.

الشرح:

المسألة الثامنة والسبعون: دعواهم أنهم أولياء الله من دون الناس، وهذا دل عليه قول الله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة:٦-٧].

وادعت اليهود والنصارىٰ أنهم أبناء الله وأحباؤه، فأكذبهم الله وأبطل دعواهم؛ لأنها دعوىٰ بدون برهان؛ إذ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾ [المائدة:١٨] الآية.

وامتحنهم الله علىٰ دعواهم محبة الله وولايته بقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ﴾ [آل عمران:٣١].

فتبين كفرهم بمخالفتهم رسالة محمد ﷺ وعدم محبته، وقد فُتن بهم من فُتن من الأميين، فتشبهوا بهم في انحرافات عديدة، علىٰ رأسها فساد العقيدة، فأخذوا حظهم من غضب الله ولعنته لهم.

ألا وإن الحق مع المنعم عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، لا مع المغضوب عليهم، وهم اليهود ومن تشبه بهم، ولا مع النصارىٰ الضالين ومن تشبه بهم من الجاهلين الأميين.

ومن هنا تعلم -أيها المسلم-: أن جميع الطوائف المبتدعة -الذين يدعون محبة النبي ﷺ ولم يتابعوه، بل خالفوه في العقيدة والشريعة- أنهم كاذبون في دعواهم، وكُلٌّ سينال جزاءه، يوم تجزىٰ كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.

غير أن أهل البدع متفاوتون في الخطيئات، منهم من تكفره بدعته وتخرجه

من الإسلام، ومنهم من تفسقه فلا يخرج من الإسلام، فأما الأولون فهم مع أهل الخلود في النار، وأما الآخرون فإنهم علىٰ خطر؛ لأن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار[1]؛ أي: صاحبها.

وعودًا علىٰ العنوان، وهو دعوىٰ اليهود أنهم أولياء الله، يقول لهم أهل السنة كذبتم؛ لأن أولياء الله لهم علامتان:

الأولىٰ: الإيمان وقد فقدت من اليهود، ومن تشبه بهم حذو القُذَّة بالقُذَّة.

والثانية: التقوىٰ، وأين سلوك اليهود من سلوك أهل التقوىٰ؟!!

وربنا -عز شأنه- قد جعل ولايته محصورة في أهل الإيمان والتقوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

فكن -أيها المسلم- المكلَّف، من أهل الإيمان والتقوىٰ حقيقة، تنل ولاية الله لك.

* * *

(١) كما جاء صريحًا في الحديث الذي أخرجه النسائي (١٥٧٨)، وابن خزيمة (١٧٨٥) عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما.

المسألة التَّاسِعَةُ وَالسَّبعُونَ: دَعوَاهُم مَحَبَّةَ الله مَعَ تَركِهِم شَرعَهُ؛ فَطَالَبَهُمُ الله بِقَولِهِ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ الآيَةَ [آل عمران:٣١].

الشرح:

المسألة التاسعة والسبعون: دعواهم محبة الله مع تركهم شرعه، فطالبهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

وهذا في شأن اليهود الذين ادعوا محبة الله، غير أنهم لم يتابعوا رسوله -عليه الصلاة والسلام-، ولم يمتثلوا أمر الله بمتابعة رسوله ﷺ بهذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ صادقين؛ ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾؛ أي: أمرهم الله ﷻ أن يتبعوا محمدًا -عليه الصلاة والسلام- في كل قول وفعل وعمل ظاهرًا وباطنًا، أما مجرد دعوىٰ بأنهم يحبون الله ولم يمتثلوا أمره ويتابعوا رسوله، فدعواهم كاذبة لا يقيم الله لها وزنًا.

ولقد شابه اليهود في جاهليتهم وكذبهم في ادعاء محبة الله، وهم لم يمتثلوا أمره بمحبة رسوله ﷺ ومتابعته، شابههم كل مبتدع، كُلٌّ بحسب بدعته؛ إذ كل مبتدع يدعي محبة الله ومحبة رسله، ولكنهم تركوا متابعة الشرع الذي جاءت به الرسل أو بعضه، فهم كاذبون في دعواهم محبة الرسل مع إعلان مخالفتهم، لاسيما في العقيدة، وإذا فسد الاعتقاد تبعه السلوك العملي.

ولقد امتحن الله اليهود والنصارىٰ ومن تشبه بهم، في دعوىٰ محبة الله ومحبة شرعه، وهم مخالفون لشرعه، ولمن جاء به من رسل الله الكرام، إما مخالفة كلية أو جزئية، امتحنهم بقوله الحق: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ الآية.

فتبين أمرهم بعدم متابعتهم لخاتم الأنبياء والمرسلين إلىٰ يومنا هذا، وإلىٰ ما شاء الله أن يكون، والحمد لله الذي وفَّقَ أتباع الرسول حقيقة لمحبتهم والعمل بالذي جاءوا به، ودللوا علىٰ ذلك بأقوالهم وأفعالهم، فنالوا محبة الله لهم وإكرامهم بالفوز بالجنة والنجاة من النار، ومنحهم رضاه وجنبهم سخطهم، وما ذلك إلا لأنهم أتوا بأسباب رضاه وأسباب النجاة من سخطه، والله يهدي من يشاء إلىٰ الحق وإلىٰ طريق مستقيم.

* * *

المسألة الثَّمَانُونَ: تَمَنِّيهِمُ الأَمَانِيَّ الكَاذِبَةَ، كَقَولِهِم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠].

وَقَولِهِم: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١].

الشرح:

المسألة الثمانون: تمنيهم الأماني الكاذبة كقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ وقولهم: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾، فرد الله عليهم بذلك كله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٨١].

وهذا صنيع اليهود، فقد ثبت أن النبي ﷺ لما فُتحت خيبر، أهديت له شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: **«اجمعوا لي من كان من اليهود هاهنا؛** فقال لهم رسول الله ﷺ: **من أبوكم؟**

قالوا: فلان.

قال: **كذبتم! بل أبوكم فلان.**

فقالوا: صدقت وبررت.

ثم قال لهم: **هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟**

قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.

فقال لهم رسول الله ﷺ: **من أهل النار؟**

فقالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفون فيها!

فقال لهم رسول الله ﷺ: **اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبدًا.**

ثم قال لهم رسول الله ﷺ: **هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟**

قالوا: نعم يا أبا القاسم.

قال: هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا؟

فقالوا: نعم.

قال: فما حملكم علىٰ ذلك؟

قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرَّك[1]؛ فأنزل الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ﴾ [البقرة:٨٠]»[2].

يعني: هل اتخذتم بذلك عهدًا عند الله؟ فإنه لا يخلف عهده.

ولم يحصل وعد ولا عهد، وإنما الشأن أنكم تقولون علىٰ الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء بغير حق.

وأخبر الله ﷻ بالقول الفصل الذي نرد عليهم في هذه القضية:

من الأولىٰ بأن يَصْلَىٰ النار ويخلد فيها؟

ومن هو المستحق للجنة؟

وما فيها من النعيم المقيم؟

فجاءت الآية الأخرىٰ التي تتلو هذه الآية: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٨١]؛ يعني: الذي

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧٧).

(٢) عن عكرمة قال: «خاصمت اليهود رسول الله ﷺ، وأصحابه فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا إليها قوم آخرون -يعنون محمدًا وأصحابه-، فقال رسول الله ﷺ بيده علىٰ رءوسهم: **بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم فيها أحد**. فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ﴾ [البقرة:٨٠] الآية». أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٢٧٦) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٥٦).

وفىٰ ربه يوم القيامة وليست له حسنات؛ بل أعماله كلها سيئة كاليهود والنصارىٰ الذين تمنوا علىٰ الله الأماني الكاذبة كقولهم هذا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾.

وكقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾.

قال الله لهم: ليس الأمر كما تمنيتم!

ولا كما تريدون وتطلبون كذبًا وافتراءً!!

بل الشأن أن من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، بأن وافىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- يوم الجزاء علىٰ الأعمال بسيئات لا حسنات معها، فهذا هو من أهل النار والخلود فيها، كاليهود والنصارىٰ والوثنيين والمجوس، وكل من وقع في الشرك الأكبر، والكفر الأكبر، والنفاق الاعتقادي، والإلحاد المخرج من الملة.

والذين آمنوا وعملوا الصالحات، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون؛ لأن الله ﷻ حكم عدل يجازي كل عامل من جنس عمله، فأهل الإيمان الصادق والعمل الصالح لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا، لا يبغون عنها حولًا، بل كما وصفهم الله ووصف حال حياتهم، حياة النعيم الدائم الذي لا نهاية له، ونعيمهم في مزيد.

ولما قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾؛ أي: حصروا دخول الجنة عليهم، وهذا هو البغي والعدوان والكذب والافتراء، قال الله لهم: قل يا محمد ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، إن كنتم صادقين أنه لا يدخل الجنة إلا اليهود والنصارىٰ، فهاتوا برهانكم؛ أي: هاتوا حجتكم، ولا حجة لهم ولا برهان، بل البرهان الساطع أن من توجه بعمله إلىٰ الله، واستوفىٰ شروط قبول العمل؛ فهذا هو الذي يدخل الجنة ويخلد فيها لا يموت، لا يفنىٰ

شبابه، ولا تبلىٰ ثيابه؛ لذا قال المولىٰ الكريم: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١٢].

وإسلام الوجه لله ﷻ هو التوجه إلىٰ الله بكل عبادة افترضها الله علىٰ عباده وأوجبها، أو رغب في فعلها، ومثل ذلك الابتعاد عن المحارم والمآثم، ومع إسلام الوجه لله وهو محسن؛ أي: محسن في عقيدته، ومحسن في أعمال الشريعة التعبدية، ومحسن في أقواله: فأقواله سديدة، ومحسن في معاملاته فهي: معاملة شرعية حسنة لا ضرر فيها ولا ضرار.

ومحسن في خلقه وسلوكه وآدابه مع الله -جل شأنه- ومع عباد الله علىٰ نهج الله ومراد رسوله -عليه الصلاة والسلام-، فمن كان هذا وصفه؛ فهو الذي يدخل الجنة ويتنعم بنعيمها، ولا يطرأ عليه خوف، ولا يصيبه حزن، وإنما حياة السرور، وحياة السعادة، وحياة النعيم المقيم، الذي أعلاه رضا الرب الكريم، والنظر إلىٰ وجهه ﷻ حقيقة، كما وعد عباده المؤمنون في محكم التنزيل، وفي سنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، الذي لا يخفىٰ علىٰ طلاب العلم؛ إلا علىٰ أهل الانحراف من جهمية ومعتزلة ومن شابههم، وصوفية ملحدة وغيرهم من طوائف الضلال.

وأعقب هذه الآية الكريمة بتناقض اليهود والنصارىٰ وتباغضهم وخصوماتهم فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [البقرة:١١٣]؛ يعني: أن اليهود جحدت أن تكون النصارىٰ علىٰ شيء من الحق والصواب، كما جحدت النصارىٰ أن تكون اليهود علىٰ شيء من الحق والصواب، وهم مع ذلك يتلون الكتاب، فاليهود يتلون في كتابهم تصديق ما جاء به عيسىٰ، والنصارىٰ يتلون في كتابهم تصديق ما جاء به

موسىٰ؛ لأن الرسل لا تتناقض دعوتهم.

بل هم متفقون في أصل الإسلام، وإن اختلفت بعض شرائعهم من التخفيف إلىٰ الثقل، كما قضىٰ الله ﷻ بحكمته وعدله؛ لذا ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من مسائل الجاهلية -سواءً ما نسب إلىٰ اليهود أو النصارىٰ، أو ما نسب إلىٰ غيرهم من الوثنيين- تمنيهم الأماني الكاذبة، التي دلت عليها هذه الآيات الكريمات، التي تمت الإشارة إلىٰ إيضاحها علىٰ سبيل الاختصار.

* * *

المسألة الحَادِيَةُ وَالثَّمَانُونَ: اتِّخَاذُ قُبُورِ أَنبِيَائِهِم وَصَالِحِيهِم مَسَاجِدَ.

الشرح:

المسألة الحادية والثمانون: اتخاذ قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، وهذا هو الذي أشار إليه النبي ﷺ بقوله محذرًا أمته: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.** يحذر ما صنعوا»[(١)]. وقال: «**أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا علىٰ قبره مسجدًا**»[(٢)].

وذلك لتحذر أمة محمد ﷺ صنيعهم.

إن تتبع آثار الصالحين للصلاة فيها أو البناء عليها، بحجة أنها تذكر الناس بأعمال الصالحين ليقتدىٰ بهم، فعل باطل قائم علىٰ معتقد فاسد؛ إذ ما هلكت الأمم الماضية إلا بالغلو في الصالحين، والافتتان بالآثار التي لم تشرع عندها عبادة ولا تُسَنُّ لها زيارة، وإنما وافق أن نزل النبي ﷺ فيها لحاجة الراحة، أو صادف حضور فريضة فصلاها، ونحو ذلك ما كان يصنعه قبل نزول الوحي عليه في غار حراء، من التعبد في الليالي ذوات العدد، لا يجوز أن يرتاده الناس للزيارة والتبرك، فإن زيارة الجهال لذلك المكان من دين أهل الجاهلية أصحاب الغلو في الصالحين وآثارهم من بعدهم، ودين الله هو ما ثبت بالبرهان علىٰ سبيل الوجوب أو الاستحباب، لا بالتقليد للجاهلين والضالين.

فالحاصل -أيها المسلمون-: أن المسلم لا يجوز له أن يقلد أهل الجهل، ويتبعهم علىٰ أخطائهم في الدين، بل علىٰ المسلم أن يتفقه في أحكام الدين

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

الإسلامي، ويسأل العلماء عما يحل ويحرم، وعما هو عبادة للرحمن أو طاعة للشيطان، الذي زين للكثير من أمم الأرض المعتقدات الباطلة، ومنها دين الجاهلية تقديس آثار الصالحين، واتخاذها معابد لهم، وقصروا فيما شرع لهم، وبلغتهم الرسل الكرام والشياطين من عالم الإنس والجن، يدعون الناس إلىٰ الوقوع في مخالفة أحكام الشرع، وذلك هو طريق الهلاك وسبب الشقاء.

لذا فالواجب التنبه للعبادة التي جاء بها الشرع، وبلَّغها أهل العلم في كل زمان ومكان بأبلغ بيان وأوضح لسان، اقتداءً برسل الله الكرام وأنبيائه العظام -عليهم الصلاة والسلام-، والتنبه للبدع والخرافات والشركيات، التي تبثها شياطين الإنس والجن:

فكل خير في اتباع من سلف وكل شرٍّ في اتباع من خلف

وما ذلك إلا لأن السلف أتباع دين محمدﷺ بالفهم الصحيح، وأن الخلف هم أتباع دين الجاهلية التي خالفهم النبيﷺ وأصحابه وأتباعه فيها، وقد يطلق الخلف علىٰ أتباع السلف، والفرق بين هؤلاء وأولئك يعرف من المقام.

فكن -أيها المسلم-، عالمًا ربانيًّا وسلفيًّا مصيبًا صادقًا، وعاملًا بعلمك مخلصًا، فإن لم تكن عالمًا ربانيًّا سلفيًّا: فخذ العلم من العلماء ولازم حلقاتهم، وتَخَلَّق بأخلاقهم، وأَحِبَّهم لعلمهم وعملهم، وقد بَشَّرَ النبيُّ الكريم من أحب الأخيار أنه يحشر معهم، ويدخل الجنة معهم[1]، فاشكر المولىٰ الكريم علىٰ سعة فضله، وعظيم كرمه وإحسانه.

---

(١) روىٰ البخاري (٢١٦٩)، ومسلم (٢٦٤٠) عَن عَبدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيفَ تَرَىٰ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَومًا وَلَمَّا يَلحَق بِهِم؟ قَالَ رَسُولُ اللهِﷺ: **المَرءُ مَعَ مَن أَحَبَّ**».

المسألة الثَّانِيَةُ وَالثَّمَانُونَ: اتِّخَاذُ آثَارِ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ كَمَا ذُكِرَ عَن عُمَرَ.

الشرح:

المسألة الثانية والثمانون: اتخاذ آثار أنبيائهم مساجد، كما ذكر عن عمر ﷺ، وهو المعنىٰ الذي دلت عليه المسألة الحادية والثمانون، والفرق بين هذه المسألة والتي قبلها أن الأولىٰ الغلو في الأشخاص والثانية الغلو في آثار الأشخاص.

والذي ذكر عن عمر فيما أشار إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو ما جاء عن المعرور بن سويد أنه كان مع عمر في الموسم في خلافته حيث قال: «كنا مع عمر ﷺ، قال: فلما انصرفنا إلىٰ المدينة وانصرفت معه صلىٰ بنا صلاة الغداة قرأ فيها بسورة الفيل وسورة قريش، ثم رأىٰ ناسًا من أصحابه يذهبون إلىٰ مكان ما، فقال: عمر ﷺ أين يذهب هؤلاء؟

قال: يأتون مسجدًا هاهنا صلىٰ فيه النبي ﷺ، فقال لهم: إنما هلك من كان قبلكم بهذا، يتبعون آثار أنبيائهم، فاتخذوها كنائس وبيعًا، من أدركته الصلاة في شيء من هذه المساجد التي صلىٰ فيها الرسول ﷺ فليصلِّ فيها وإلا فلا يتعمدها»[1].

لأن النبي ﷺ لم يفعلها علىٰ وجه التعبد والتشريع، وهؤلاء يتتبعون آثار الأنبياء والصالحين ويتعبدون الله فيها اعتقادًا منهم أن لها مزية عن بقية الأماكن،

---

(١) أخرجه ابن وضاح في «البدع» (١٠٠) و(١٠١)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ١١٨)، وسعيد بن منصور كما في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٨٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ١٥١)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٢/ ٥٤٤)، وإسماعيل الصفار في «مسنده» (١/ ١٤٢-مسند الفاروق لابن كثير) من طرق عن الأعمش حدثني المعرور بن سويد بالقصة وذكره.

وهذا العمل لا يجوز؛ لأنه يؤدي إلىٰ الاعتقاد في الأشخاص، ومن ثمَّ عبادتهم من دون الله.

هذا؛ وإن المخرج من فساد أهل الجهل في كل زمان ومكان، هو التفقه في الدين علىٰ أيدي رجاله حقيقة لا ادعاء، فمن تفقه في الدين أبصر طريق الصواب فسلكه أفلح وفاز ونجا، ومن ألهته دنياه عن الفقه في الدين فعاش في حياة العمل جاهلًا مقلدًا أهل الجهل والضلال، فقد خاب وخسر، قال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧-٤١].

* * *

المسألة الثَّالِثَةُ وَالثَّمَانُونَ: اتِّخَاذُ السُّرُجِ عَلَىٰ القُبُورِ.

الشرح:

المسألة الثالثة والثمانون: اتخاذ السرج علىٰ القبور، وهذا من فعل الجاهلية، يوقدون السرج علىٰ قبور الأولياء كما يزعمون، غلوًّا فيهم واحترامًا كما يزعمون، لما في تلك القبور من الأولياء الذين يعتقدون فيهم جلب المصالح ودفع المضار واستجابة الدعاء وإغاثة الملهوفين.

ويتخذون المقابر أعيادًا بمعنىٰ يغدون إليها ويروحون، ويقدمون لها النذور، ويطوفون حولها، وينادون من فيها لجلب المنافع ودفع المضار، التي لا يقدر عليها إلا الله -تبارك وتعالىٰ-، ولو كانت المنافع والمضار مما يقدر عليه الخلق؛ فإنها لا تطلب من الميت أبدًا؛ إذ إن الميت لا يسمع ولا ينفع نفسه، فكيف ينفع غيره؟

وهذا قد نهىٰ عنه النبيُّ ﷺ في قوله الحق: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ القُبُورِ وَالمُتَّخِذِينَ عَلَيهَا المَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»[1].

فالواجب أن يتبع المسلمون طريقة الرسول ﷺ وهديه في القبور وغيرها، وسد الذرائع الموصلة إلىٰ الشرك كالبناء عليها، وإيقاد السرج عليها، احتفاءً بمن فيها.

والحقيقة أن القبور لها أحكامها في الإسلام ومنها: أنها لا يجوز رفعها عن

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٣٦)، والنسائي (٢٠٤٣)، والترمذي (٣٢٠) وحسنه، وابن ماجه (١٥٧٥)، وأحمد -الرسالة- (٢٠٣٠) و(٢٦٠٣) و(٢٩٨٤) و(٣١١٨) أخرجوه جميعًا باللفظ أعلاه، إلا ابن ماجه فلفظه: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زُوَّارَاتِ القُبُورِ».

الأرض إلا بقدر شبر ليعرف أنه قبر، فلا يمتهن، ولا تجوز الزيادة علىٰ ذلك اختيارًا، ولقد أمر النبي ﷺ علي بن أبي طالب بتسوية القبور إذ قال له: «**لا تدع قبرًا مشرفًا إلا سويته**»؛ أي: بالأرض، فيكون ارتفاعه قدر شبر فقط حتىٰ لا تكون به فتنة للناس علىٰ كَرِّ الدهور وممر العصور، فقد تكون أولًا وسائل للشرك ومن ضروب البدع، ثم يأتي زمان عليها يشتد فيه الجهل بالناس فتُعبد من دون الله، كما فعلت الجاهلية قبل مبعث النبي ﷺ؛ بل وبعد موته -عليه الصلاة والسلام-، جاءت أوقات قلَّ فيها العلم والعلماء، وفشا فيها جهل ذريع، فعُبِدَت المقابر، وذُبح عندها الذبائح تقربًا إلىٰ غير الله، وهذا هو الشرك الأكبر.

وفي بعض البلدان إلىٰ يومنا هذا توجد الأضرحة في المساجد وفي أماكن خاصة، لها سدنتها والمروجون لعبادتها، مع وضوح دعوة التوحيد، المحذرة من الشركيات والبدع، الدعوة التي تنطلق من بلاد الحرمين في كل وقت وحين، وتبلغ المشارق والمغارب، ولكن عند كثير من الناس ينطبق عليهم قول القائل:

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

ولو نارًا نفخت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ في رماد

* * *

المسألة الرَّابِعَةُ وَالثَّمَانُونَ: اتِّخَاذُهَا أَعيَادًا.

الشرح:

المسألة الرابعة والثمانون: اتخاذها أعيادًا؛ أي: العكوف عند القبور، والذبح عندها وهو من بدع الجاهلية، وهو -أي: العكوف- إما أن يكون وسيلة إلىٰ الشرك الأكبر.

وإما أن يكون عين الشرك.

فإن اتُّخِذ العكوفُ عند القبر للتبرك بالبقعة التي هي حول القبر، وتوجه المتبرك إلىٰ الله بالبقعة التي هي حول القبر، فهذا العمل بدعة ووسيلة إلىٰ الشرك الأكبر، وصاحبه مبتدع ضال.

وأما الاستغاثة بالصالحين في قبورهم ليطلب منهم أن يشفعوا للمستغيث به أو يذبح له: فهذا عين الشرك الأكبر، الذي لا يغفر الله لصاحبه إذا مات علىٰ اعتقاده وعمله؛ لهذا فقد قال النبيُّ ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**»[1]، فأجاب الله دعاء نبيه ﷺ، وأحاطه بثلاثة جدران[2].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ١٧٢/ ٨٥) عن عطاء بن يسار مرسلًا.

وتمامه: «**اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

ووصله أحمد (٧٣٥٨) من طريق حمزة بن المغيرة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**اللهُمَّ لَا تَجعَل قَبرِي وَثَنًا، لَعَنَ اللهُ قَومًا اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ**». وصحح إسناده الألباني في «تحذير الساجد» (ص٢٣).

(٢) قال الإمام ابن القيم رحمه الله في قصيدته «النونية» (ص٢٥٢):

ولقد نهانا أن نُصَيِّرَ قبره ... عيدًا حذار الشرك بالرحمن

=

فالأعياد نوعان:

نوع مشروع: وهو عيد الفطر وعيد الأضحىٰ، وهذان اليومان يجتمع فيهما المسلمون في أقطار الأرض؛ لأداء عبادة مخصوصة تقربًا إلىٰ الله ﷻ.

ويلحق بهما في الاجتماع علىٰ العبادة عيد الأسبوع، وهو عيد الجمعة، وأكرم به من عيد، وكم فيه من الفضل مما لم يوجد في سواه.

والنوع الثاني: أعياد الجاهلية المبتدعة التي يكون فيها من الضلال ما يغضب الله ﷻ، واجتماعهم فيها علىٰ الشرك واللهو واللعب، الذي يوافق أهواءهم الضالة وأنفسهم الظالمة، فهم فيها بين واقع في الشرك الأكبر، كأهل الذبح لها، وأهل الاستغاثة بأهلها، وبين متبرك بها علىٰ طرف غواية وضلال.

ولقد حذَّر النبي ﷺ أمته أن يتخذوا قبره عيدًا، مثل غيرهم من أهل الجاهلية ومن أهل الكتاب وغيرهم، لما في ذلك من الوقوع في وسائل الشرك ثم في الشرك نفسه، وقال لهم: «**صلُّوا عليَّ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»[1].

ولما أتاه رجل يسأله قال السائل: إني نذرت أن أنحر إبلًا ببوانة -وهو مكان معلوم للسائل-، فقال له النبيُّ ﷺ: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**

=

ودعـــا بـــألا يجعـــل القبـــر الـــذي ... قـــد ضـــمه وثـــنًا مـــن الأوثـــان

فأجـــاب رب العالمـــين دعـــاءه ... وأحاطـــه بـــثلاثة الجـــدران

حتـــىٰ اغـــتدت أرجـــاؤه بدعائـــه ... فـــي عـــزة وحمايـــة وصـــيان

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، وأحمد (٨٨٠٤-الرسالة)، وحسن الألباني إسناده في «أحكام الجنائز» (ص٢١٩).

قال: لا.

قال: **فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**

قال: لا.

قال: **أوفِ بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»**[1].

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٣٣١٣)، وصححه الألباني في تعليقه على «المشكاة» (٣٤٣٧).

المسألة الخَامِسَةُ وَالثَّمَانُونُ: الذَّبحُ عِندَ القُبُورِ.

الشرح:

المسألة الخامسة والثمانون: الذبح عند القبور كسابقتها، وهو من أفعال الجاهلية، إذ إنهم يذبحون عند قبور الأولياء الذين يسمونهم أولياء.

والذبح عند القبر لا يخلو من حالين:

الحالة الأولىٰ: أن يكون الذبح باسم الولي، وعلىٰ اسم الولي تقربًا إليه؛ ليشفع لهم في قضاء حاجاتهم لقربه من الله بزعمهم، فهذا شرك أكبر لأن الله ﷻ قال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦١-١٦٢].

وقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢].

فالذبح للمقبور سواء كان نبيًّا أو وليًّا أو غير ذلك فهو ذبح لغير الله؛ فهؤلاء جعلوا مع الله شركاء، فإن ذبحوا شيئًا لله ذبحوا مثله لغير الله فهم مشركون شركًا أكبر.

والحالة الثانية: أن يكون الذبح عند القبر لله، ولكن تبركًا بالولي، فهذا من البدع المضلة، التي يجب أن يحذرها المسلمون، وأما الجاهليون فإنهم يذبحون لغير الله -تبارك وتعالىٰ-، كما هي عقيدتهم وعقيدة آبائهم من قبلهم، ومن تشبه بهم في الاعتقاد الفاسد والغلو الممقوت، الذي هو ديدن المشركين في كل زمان ومكان.

وإن الذي يؤسف له في هذا العصر وجود الأضرحة في كثير من البلدان الإسلامية، التي يرفع فيها الأذان كل يوم وليلة خمس مرات بكلمات التوحيد، وهي الشهادتان والتكبير والتهليل، ومع ذلك فإن المستغيث بأصحاب الأضرحة

لا ينكر عليه أحد، والمتعبد عند الضريح والمتضرع بالدعاء إلىٰ الله، ولكنه معظِّم للبقعة التي وقف فيها داعيًا وباكيًا؛ لينال بركة صاحب الضريح، وهذا صنف وإن كانوا أخف جُرمًا من أهل الاستغاثة بصاحب الضريح، إلا أنهم منغمسون في شر البدع.

والحمد لله ثم الحمد لله، الذي وفَّق أهل السنة، فليسوا من أهل الشركيات والضلالات والبدع؛ بل من أهل التوحيد لله، في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، ومن أهل الدعوة إلىٰ ذلك بنصوص الكتاب والسنة، ولكن أكثر الناس لا يعقلون.

فيا أيها المسلمون أجمعون؛ كونوا من أهل السنة في كل شأن من شئونكم تفلحوا، وتنجوا من عذاب الله، وتظفروا بثوابه، ولا تكونوا مع أهل الشرك والبدع؛ فتكونوا بعد الموت من الخاسرين، ويا لها من خسارة لا يُرجىٰ بعدها جبران!

* * *

المسألة السَّادِسَةُ وَالثَّمَانُونَ: التَّبَرُّكُ بِآثَارِ المُعَظَّمِينَ كَدَارِ النَّدوَةِ، وَافتِخَارُ مَن كَانَت تَحتَ يَدِهِ بِذَلِكَ، كَمَا قِيلَ لِحَكِيمِ بنِ حِزَامٍ: بِعتَ مَكرُمَةَ قُرَيشٍ؟! فَقَالَ: ذَهَبَتِ المَكَارِمُ إِلَّا التَّقوَىٰ.

الشرح:

المسألة السادسة والثمانون: التبرك بآثار المعظمين، كدار الندوة، وافتخار من كانت تحت يده بذلك، كما قيل لحكيم بن حزام: بعت مكرمة قريش، فقال: ذهبت المكارم إلا التقوىٰ[1].

وذلك الافتخار من فعل الجاهلية يفتخرون بالأماكن، ويفتخرون بالآباء وما كان عليه الآباء من الخرافات وبالأنساب كما هو معلوم عنهم، فقال حكيم بن حزام: ذهبت المكارم الجاهلية، وبقيت مكرمة عظيمة، ألا وهي التقوىٰ وقد أوضحها القرآن بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ

(١) يشير إلىٰ ما أخرجه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٦/ ٥٧) بسنده عن الزبيري قال: باع حكيم ابن حزام دار الندوة من معاوية بن أبي سفيان بمائة ألف، فقال عبد الله بن الزبير: يا أبا خالد بعت مأثرة قريش وكريمتها؟

فقال: هيهات يا ابن أخي، ذهبت المكارم فلا مكرمة اليوم إلا الإسلام، قال: فقال: اشهدوا أنها في سبيل الله -تبارك وتعالىٰ- يعني الدراهم. وهذا سند منقطع.

وروىٰ القصة الطبراني (٣٠٧٢) و(٣٠٧٣) بإسنادين، حَسَّنَ أحدهما الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٣٨٤-القدسي)، ولفظه من الطريق الأولىٰ: عَن عُروَةَ، قَالَ: «بَاعَ حَكِيمُ بنُ حِزَامٍ دَارًا لَهُ بِمَكَّةَ مِن مُعَاوِيَةَ بنِ أَبِي سُفيَانَ -لَا أَعلَمُهُ إِلَّا قَالَ: بِمِائَةِ أَلفٍ-، فَقِيلَ لَهُ: أَبِعتَ دَارَكَ مِنهُ بِمِائَةِ أَلفٍ؟

قَالَ: وَاللهِ إِن أَخَذتُهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ إِلَّا بِزِقٍّ مِن خَمرٍ، وَاشهَدُوا أَنَّ ثَمَنَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ».

لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ [الحجرات:١٣].

وهذا هو الجواب المسدد الموفَّق، والموافق للنصوص من الكتاب والسنة المطهرة، لا ما يقوله أهل الجهل والغواية المحاربين للعلم والهداية.

وعليه: فلا ينبغي الاعتناء والاهتمام بالآثار وتعظيمها؛ لأن هذا من وسائل الشرك التي سدها ما جاء به نبينا الكريم -عليه الصلاة والسلام-، وقد يؤدي هذا العمل إلىٰ عبادتها وتعظيمها في مستقبل الزمان، كما حصل مع قوم نوح الذين أوقعهم إحياء آثار صالحيهم في أكبر ذنب عصي الله به، ألا وهو الشرك الأكبر الذي نُهوا عنه، فأبوا إلا البقاء عليه، تعظيمًا لآثار صالحيهم الذين ماتوا، وأمرهم الشيطان أن يصوروا صورهم، ويحتفوا بها حتىٰ عبدوها من دون الله؛ فحق عليهم العقوبات العاجلة والآجلة، كما لا يخفىٰ علىٰ كل عاقل موحد.

* * *

المسألة السَّابِعَةُ وَالثَّمَانُونَ: الفَخرُ بِالأَحسَابِ.
المسألة الثَّامِنَةُ وَالثَّمَانُونَ: الطَّعنُ فِي الأَنسَابِ.
المسألة التَّاسِعَةُ وَالثَّمَانُونَ: الاستِسقَاءُ بِالأَنوَاءِ.
المسألة التِّسعُونَ: النِّيَاحَةُ.

الشرح:

المسائل السابعة والثمانون إلىٰ التسعين: فهذه المسائل الجاهلية قد دل عليها ما جاء عن أبي مالك الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**»[1].

وهذه كانت من صفات أهل الجاهلية ومن أعمالهم:

١- **الافتخار بأحسابهم:** فيفتخر الفرد علىٰ غيره، والقبيلة علىٰ الأخرىٰ.

٢- **وبجانب ذلك الطعن في أنساب** غيرهم احتقارًا وغمطًا لهم.

٣- **وهكذا الاستسقاء بالنجوم:** نسبة السقيا إليها، إلىٰ مطالعها ومغاربها، وأنها الأثر البالغ في نزول الغيث.

٤- **والنياحة علىٰ الموتىٰ:** وهي رفع الصوت علىٰ الميت جزعًا وتسخطًا، وهي كبيرة من كبائر الذنوب، وفعل من أفعال الجاهلية، كما قال النبي ﷺ: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**»[2] الحديث.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٩٣٤).

(٢) جزء من الحديث السابق.

غير أن نوعًا من البكاء لا إثم فيه، إنما هو رحمة كما بينه النبيﷺ[١]، وذلك هو دمع العين وحزن القلب، فلا حرج في ذلك، يقول النبيﷺ: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[٢].

والوعيد الوارد في النائحة وعيد شديد، يدل علىٰ أن النياحة في المسلمين كبيرة من الكبائر، وأما أهل الجاهلية فأعظم الذنوب فيهم علىٰ الإطلاق الكفر الأكبر والشرك الأكبر.

والخلاصة: أن الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة التي هي من أعمال الجاهلية، باقية في بعض الناس ممن لم يحققوا التوحيد، غير أنه يجب أن يعلم، أنه قد يكون في بعض المسلمين شيء من أمور الجاهلية، فلا يكونون كفارًا به، كالطعن في الأنساب، والفخر بالأحساب، والنياحة، ولكن ذلك من الكبائر التي يجب التوبة منها.

* * *

(١) في قولهﷺ -وقد احتضر ابن إحدىٰ بناته، ففاضت عيناهﷺ فقال له سعد بن عبادة: ما هذا يا رسول الله-: «**هَذِهِ رَحمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرحَمُ اللهُ مِن عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**». أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

المسألة الحَادِيَةُ وَالتِّسعُونَ: أَنَّ أَجَلَّ فَضَائِلِهِمُ: البَغيُ، فَذَكَرَ الله فِيهِ مَا ذَكَرَ.

الشرح:

المسألة الواحدة والتسعون: من مسائل الجاهلية أن أجل فضائلهم البغي، وهذا في زعمهم ومفهومهم أن البغي فضيلة، فتراهم يبغي بعضهم علىٰ بعض بالظلم في الأعراض والدماء والأموال، فذكر الله -تبارك وتعالىٰ- ذم البغي في غير ما آية، كما في قوله الحق: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورىٰ: ٤٢]. وقوله ﷻ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

فالله حرم البغي واعتبره من المثالب ومن المآثم الكبار، وهم يعتبرونه من المناقب والفضائل، وما ذلك إلا لجهلهم وضلالهم.

واتفقت النصوص الكريمة علىٰ ذم البغي الذي كانوا يفتخرون به في منظوم كلامهم ومنثوره، كما في الآية الكريمة من سورة النحل، وكما في الآية الكريمة من سورة الأعراف التي اشتملت علىٰ تحريم موبقات ومن جملتها البغي قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الأعراف:٣٣].

وقال النبي الكريم -عليه الصلاة والسلام- في خطبة الوداع: «**فإن دماءكم وأموالكم** -قال محمد: وأحسبه قال: **وأعراضكم- عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب ...**»[1].

وإذ كان الأمر كذلك، فإن الحياة لا تطيب إلا بإقامة العدل، لا بالبغي وفساد الجاهلية عبر الزمان والمكان.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٥)، ومسلم (١٦٧٩).

المسألة الثَّانِيَةُ وَالتِّسعُونَ: أَنَّ أَجَلَّ فَضَائِلِهِمُ: الفَخرُ وَلَو بِحَقٍّ، فَنَهَىٰ عَنهُ.

الشرح:

المسألة الثانية والتسعون: إن أجل فضائلهم الفخر ولو بحق، فنهىٰ عنه، وهذا في زعمهم وفي مفهومهم وعرفهم الجاهلي، وقد تقدم أن الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب من أمور الجاهلية، التي حذر منها النبي الكريم -عليه الصلاة والسلام-.

فالفخر -ولو كان بحق- منهي عنه، اللهم إلا في مواضع لمصلحة شرعية، منها:

١- إذا صدر من بعض المسلمين في مواضع كالجهاد مثلًا، فأظهر الفارس شجاعته كأبي دجانة ﷺ الصحابي المشهور[١]، الذي كان يختال في المعركة يمشي متبخترًا؛ ليحتقر الأعداء، ويظهر عزة الإسلام، وقد ورد أن الرسول ﷺ قال له: «**إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموقف**»[٢].

---

(١) هو الصحابي الجليل سماك بن خرشة، وقيل: ابن أوس بن خرشة، متفق علىٰ شهوده بدرًا. وقيل: إنه ممن شارك في قتل مسيلمة.

وثبت ذكره في الصحيح لمسلم: أنَّ النبيَّ ﷺ أخذ سيفًا يوم أحد، فقال: «**من يأخذ هذا السَّيف بحقِّه؟!** فأخذه أبو دجانة ففلق به هام المشركين.

قال عليٌّ: إنه استشهد باليمامة». «الإصابة في تمييز الصحابة» (٧/ ٩٩-١٠٠).

(٢) رواه ابن إسحاق في «السيرة» (٢/ ٦٧-السقا)، ومن طريقه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٥١١) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٣٣-٢٣٤) بإسناد ضعيف.

ورواه الطبراني (٦٥٠٨)، وعنه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣/ ١٤٣٧) من وجه آخر. قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٠٩): «فيه من لم أعرفه».

=

٢- والصدقة إذا أظهر الإنسان فيها فضله في بعض الأحيان؛ ليحث الناس علىٰ عمل الخير، فهذا لا بأس به، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة:٢٧١].

فالفخر علىٰ العموم مذموم، لاسيما الفخر الصادر من أهل الجاهلية في كل زمان ومكان، وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ أَوحَىٰ إِلَيَّ أَن تَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لَا يَفخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ**»(١).

فأمر بالتواضع وحذر من البغي، الذي يكون من أسبابه الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب.

ومما لا شك فيه أن الافتخار بالأعمال التي يعملها المسلمون علىٰ سبيل الإيجاب أو الاستحباب أمر مذموم؛ لأنه يجر إلىٰ الإعجاب بالنفس، ومن ثمَّ احتقار الآخرين، وذلك صنيع الجاهلية ومن تشبه بهم، وإن من صفات أهل الإيمان الاعتراف بتقصيره في أداء الحقوق سواء فيما بينه وبين خالقه، أو فيما بينه وبين ذوي الحقوق من الخلق، وإنه مهما بذل من جهد فإن النقص لابد أن يكون، فلا مسوغ للافتخار، بل إنه من أخلاق الجاهلية ومن تشبه بهم.

=

وروىٰ أبو داود (٢٦٥٩)، والنسائي (٢٥٥٨)، وأحمد -الرسالة- (٢٣٧٤٧) و(٢٣٧٤٨)، وابن حبان (٢٩٥) و(٤٧٦٢) عَن ابنِ جَابِرِ بنِ عَتِيكٍ، عَن جَابِرِ بنِ عَتِيك، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**مِنَ الغَيرَةِ مَا يُحِبُّ اللهُ وَمِنهَا مَا يُبغِضُ اللهُ، فَأَمَّا الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ فَالغَيرَةُ فِي الرِّيبَةِ، وَأَمَّا الغَيرَةُ الَّتِي يُبغِضُهَا اللهُ فَالغَيرَةُ فِي غَيرِ رِيبَةٍ، وَإِنَّ مِنَ الخُيَلَاءِ مَا يُبغِضُ اللهُ، وَمِنهَا مَا يُحِبُّ اللهُ، فَأَمَّا الخُيَلَاءُ الَّتِي يُحِبُّ اللهُ فَاختِيَالُ الرَّجُلِ نَفسَهُ عِندَ القِتَالِ، وَاختِيَالُهُ عِندَ الصَّدَقَةِ، وَأَمَّا الَّتِي يُبغِضُ اللهُ فَاختِيَالُهُ فِي البَغيِ**».

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

وحينما أراد النبي ﷺ أن يتحدث بنعمة الله عليه ليكون لها شاكرًا ولتعرف أمته ما له من حق عليهم قال قولته المشهورة: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[1]. وحاشاه أن يفتخر بذلك بدون غاية شرعية، بل ليخبر الأمة بفضل الله عليه ونعمته التي أسداها إليه، وهو المعصوم من الخطأ والزلل، فقد حفظه الله من ذلك، وأعطاه من الرفعة والمنزلة في الدنيا والآخرة ما دلت عليه النصوص.

* * *

(١) أخرجه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد (١٠٩٨٧-الرسالة) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال الترمذي: حديث حسن.

قلت: في سنده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف كما في «التقريب».

وللحديث شواهد: عن أبي بكر الصديق وعبد الله بن سلام وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع رضي الله عنهم. وانظر: «الصحيحة» للألباني (١٥٧١).

وفي البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) عن أبي هريرة مرفوعًا في حديث الشفاعة الطويل: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَومَ القِيَامَةِ**».

المسألة الثَّالِثَةُ وَالتِّسعُونَ: أَنَّ تَعَصُّبَ الإِنسَانِ لِطَائِفَتِهِ عَلَىٰ الحَقِّ وَالبَاطِلِ أَمرٌ لَا بُدَّ مِنهُ عِندَهُم، فَذَكَرَ الله فِيهِ مَا ذَكَرَ.

الشرح:

المسألة الثالثة والتسعون: أن تعصب الإنسان لطائفته علىٰ الحق والباطل أمر لابد منه عندهم، فذكر الله فيه ما ذكر، وهذا ثابت عنهم بأن بعضهم ينصر بعضًا من قرابته، أو من بينهم وبينه حِلف، أو له عليهم رئاسة ووجاهة، فإنه ينصر مطلقًا سواءً كان محقًّا أو مبطلًا، وهذا أمر يتنافىٰ مع قواعد الشريعة التي تدعو إلىٰ الحق دائمًا ونصرة أهله، وتحذر من الباطل وتحذر من الظلم وكف أهله عنه، وفي الحديث: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»[1].

وتفسيره الشرعي عند المحدِّثين، أنه ينصره إذا كان مظلومًا حتىٰ يستوفي حقه، بكل وسيلة من الوسائل الممكنة، وينصره إذا كان ظالمًا بالأخذ علىٰ يديه، وكفه عن الظلم وردعه، سواء كان ظلمه في الأعراض أو الأموال أو الدماء.

وأما في مفهوم الجاهلية: فانصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا؛ فإنهم ينصرونه علىٰ خصمه سواء كان خصمه مظلومًا أو كان خصمه ظالمًا، وسواء كان محقًّا، أو كان مبطلًا؛ لأنهم لا يتقيدون بشرع.

وما أشبه الليلة بالبارحة، فإن الأحزاب والجماعات الموجودة والمتعددة في هذا العصر التي لها رؤساء، ولها قواد، ولها أمراء، ولها تنظيم سري، رأينا أن بعضهم ينصر بعضًا علىٰ الباطل.

وقد صرح لي بعض طلبة العلم الذين عاشوا في ضيق الحزبية وقتًا مديدًا،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٣) و(٢٤٤٤)، ولمسلم (٢٥٨٤) نحوه.

ثم تركهم بفضل الله ﷻ.

ثم بإقباله علىٰ دروس العقيدة والتفسير والحديث، قائلًا: «والله إننا كنا في حزب الإخوان نرىٰ الباطل باطلًا، ولكن نمضي فيه ولا نستطيع أن نرجع إلىٰ الحق؛ لأن بنود الحزب ونظام العمل فيه، يحتم علينا أن ننصر الباطل وننصر الظلم».

فقلت له: استغفر ربك كثيرًا مما مضىٰ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، واحمد ربك الذي أنقذك من ضيق الحزبية والتحزب والتنظيم السري، في دولة مسلمة تُحَكِّم شرع الله، وتقيم شعائر الله، وتسعىٰ في مصالح العباد داخل البلاد وخارجها.

والأمر هذا لا يحتاج مني إلىٰ بينات وبيان فهو في غاية الوضوح، والكمال لله لا ندعي لهم الكمال، ولا لأنفسنا، ولا لأحد، إلا من منحهم الله الكمال بعصمته لهم، وهم رسله وأنبياؤه الذين وإن وقعوا في مخالفة فيما لم ينزل عليهم فيه وحي؛ فإن الله يوجههم إلىٰ ما يريد، ولكن نحمد الله ﷻ علىٰ الخير الذي نراه، وانتشاره، والدعوة إليه، والمسارعة في تحقيقه، هذا أمر معلوم.

فنرىٰ أن الجماعات المتعددة سواء جماعة التبليغ، أو جماعة الإخوان، أو جماعات متفرعة من جماعة الإخوان وما أكثرها كالقطبية[1]، .....

(١) نسبة إلىٰ الأديب المصري سيد قطب (١٩٦٥م)، إذ كان ينادي بالحاكمية وغلا فيها حتىٰ أكفر المسلمين المصلين بغير حق، هذا إلىٰ جمعه ضلالات كبرىٰ من عقائد الجهمية والرافضة والمعتزلة وغيرها، إلا أنه وجد أتباعًا يقدسونه ويرفعونه إلىٰ مصاف الأئمة المجددين وينشرون كتبه وضلالاته بلا حياء ولا خوف من الله -جل وعلا-، ثم يزعمون أنهم سنيون أثريون.

=

والسرورية[1] القطبية، وحزب التحرير، وجماعات أخرىٰ، هؤلاء ديدنهم أنهم يتعصبون لرؤسائهم وقادتهم ومناهجهم، وإن خالفت المنهج الحق الذي هو سبيل الله، والذي هو الصراط المستقيم، نهج السلف الصالح، الذي مصدره كتاب الله وسنة النبي ﷺ.

ومن هنا وجبت علينا النصيحة، لمن هم منخرطون في التنظيمات وفي الجماعات وفي الأحزاب، فكم من أخطاء في بنود أحزابهم وجماعاتهم، وجبت علينا النصيحة لهم أن يتقوا الله ويتركوا ذلكم التحزب، الذي شره أكثر من خيره، وخطؤه أكثر من صوابه، ويعودوا إلىٰ سماحة الإسلام، وسعة المنهج السلفي المستمد من كتاب الله، وصحيح سنة رسول الله ﷺ، في كل باب من أبواب العلم

=

وقد كشف علماء السنة زيف هؤلاء الأدعياء.

انظر: «منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله فيه الحكمة والعقل»، و«العواصم مما في كتب سيد قطب من القواصم»، و«أضواء إسلامية علىٰ عقيدة سيد قطب وفكره»، كلها للعلامة ربيع بن هادي المدخلي، وكتاب «القطبية هي الفتنة فاعرفوها» لأبي إبراهيم سلطان العدناني، و«براءة أهل السنة من تزكية أهل البدعة والمذمة» للسيناني، و«المورد العذب الزلال» للعلامة النجمي (٢٢٦-٢٢٧).

(١) نسبة إلىٰ محمد بن سرور بن نايف زين العابدين، نزيل إنجلترا، لجأ إلىٰ المملكة السعودية إبان اضطهاد النظام السوري للإخوان المسلمين، وعمل مدرسًا ببريدة بالمعهد العلمي حيث نشر فكره التحريضي الخارجي، ثم فر إلىٰ ديار الكفر وأنشأ مجلة «السنة» التي كان يسميها العلامة مقبل الوادعي مجلة «البدعة»، وله نيل وتهوين من دعوة الأنبياء التي سار عليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، وسخرية وحط علىٰ علماء السنة.

انظر: «الأجوبة المفيدة علىٰ أسئلة المناهج الجديدة» للشيخ صالح الفوزان -حفظه الله-.

والعمل، والدعوة والجهاد، إلىٰ غير ذلك مما هو معهود لطلاب العلم؛ لأن التعصب للرؤساء وللقادة ولكتبهم ومناهجهم وتنظيمهم، والدعوة إليه والدفاع عنه، هذا من أمر الجاهلية.

وما أقر به من هذه المسائل الجاهلية، التي ذكرها المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ إذ تعصب الإنسان لطائفته علىٰ الحق والباطل أمر لابد منه عندهم، وهو يذمهم بذلك، فذكر الله عَزَّوَجَلَّ التحذير من التعصب بالباطل وللباطل والانضمام إلىٰ أهله، لاسيما إذا اتخذوا أئمة واتخذوا قادة؛ فإن هذا من البلية ومن المصائب العظام.

والخلاص منها -بارك الله فيكم-: أن نرجع إلىٰ كتب العلم ككتب التفسير، وكتب السنة، وكتب العقائد، وكتب الردود، فإن البدع متشابهة، وأهلها كذلك يتشابهون في مقولاتهم، وفي مؤلفاتهم، وفي منشوراتهم، وفي أساليبهم، وأنتم عندكم الشيء الكثير من هذا الذي أعدده وأذمه، ولكن من باب التأكيد، ومن باب أن يبذل كل واحد منا جهده في حدود الشرع، وفي حدود الأدب، أدب الأمر والنهي، والدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وتبليغ هذه الرسالة، والتحذير من أولئك المتحزبين والمجتمعين علىٰ الحق والباطل.

والاجتماع -بارك الله فيكم- يجب أن يكون علىٰ الحق دون سواه؛ امتثالًا لأمر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة:٢].

هذا ما أحببت تبيانه لشباب الإسلام، والدعاة إلىٰ المعتقد الصحيح، والمنهج السليم، والسلوك المستقيم؛ ليكونوا دعاة إلىٰ ذلك ظاهرًا وباطنًا، محبين الخير للغير، ناصحين أمناء، أسوتهم الرسل الكرام، والأنبياء العظام،

والصالحين من أئمة العلم الأعلام، الوارثين لخير الأنام، محمد بن عبد الله ورسوله، عليه من ربه أزكىٰ التحية، وأتم الصلاة والسلام.

المسألة الرَّابِعَةُ وَالتِّسعُونَ: أَنَّ مِن دِينِهِم أَخذَ الرَّجُلِ بِجَرِيمَةِ غَيرِهِ، فَأَنزَلَ الله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء:١٥].

الشرح:

المسألة الرابعة والتسعون: أن من دينهم أخذ الرجل بجريمة غيره، فلا شك في أن هذا العمل من أمر الجاهلية، لا من أمر الشرائع السماوية بأن يؤخذ الرجل بجريمة غيره، بحيث إذا قتل واحد من قبيلة من القبائل شخصًا آخر من قبيلة أخرىٰ؛ فإن أهل الجاهلية لا يكتفون بقتل القاتل، بل يقتلون القاتل ومن استطاعوا من القبيلة.

وقد يختارون الرأس في القبيلة أو من ظفروا به فيقتلونه، وقد يكون القاتل في أمان، وهذا هو الظلم بعينه.

والسبب واضح في أن القوم بعيدين كل البعد عن منهج الله ومراده، ومنهج رسوله -عليه الصلاة والسلام-، الذي فيه الحياة الطيبة المباركة، حياة الأمن والإيمان، وحياة العدل ومحاربة الظلم.

وأنا أذكر بأن الجزيرة العربية قبل الدعوة الإصلاحية التجديدية، -التي وفق الله ﷻ لها الإمامَ محمدَ بن عبد الوهاب، صاحبَ هذه المسائل- كان يؤخذ الرجل بجريمة غيره بين القبائل سواء كان في بلادنا، أو كان في غيرها من دول الخليج، أو كان في غيرها من دول أقطار الدنيا.

فلما انتشرت كلمة التوحيد، وانتشرت شريعة الله، وفقهها الناس بواسطة الدعاة إلىٰ الله من حكام صالحين، وعلماء ربانيين، فهم الناس أن هذا خطأ، وأن الأمر كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤]. فلا يجوز أن يؤخذ أحد بذنب غيره.

وبعد ذلك نحمد الله ﷻ فقد فتحت المحاكم الشرعية في المملكة العربية السعودية، التي لا تحكم إلا بالشريعة الإسلامية، في جميع الحقوق والحدود وغيرها والحمد لله، فالقاتل هو الذي يؤخذ بجريمته لا غيره، والسارق هو الذي يؤخذ بجريمته، والزاني هو الذي يؤخذ بجريمته، وقاطع الطريق هو الذي يؤخذ بجريمته.

وهكذا كل من جنا فإنما يجني علىٰ نفسه، كما قال الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام- لرجل كان آخذًا بيد ولده قال له: «**أرأيت ولدك هذا، إنك لا تجني عليه ولا يجني عليك**»[1].

هكذا حرم الله الظلم بجميع صوره، وأمر بالعدل بشتىٰ صوره ومعالمه، والحمد لله القائل: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٩٥)، والنسائي (٤٨٣٢)، وأحمد -الرسالة- (٧١٠٥ و٧١٠٦- ٧١٠٩)، وابن حبان (٥٩٩٥)، والحاكم (٣٥٩٠)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

المسألة الخَامِسَةُ وَالتِّسعُونَ: تَعيِيرُ الرَّجُلِ بِمَا فِي غَيرِهِ فَقَالَ: «أَعَيَّرتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امرؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ».

الشرح:

المسألة الخامسة والتسعون: تعيير الرجل بما في غيره فقال: **«أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية».**

هذا حديث قاله النبي الكريم -عليه الصلاة والسلام- لصاحبه أبي ذر لما عيَّر رجلًا بأمه فقال له: يا ابن السوداء فقال له النبي ﷺ: **«يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يكد بهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم».** فكان بعد ذلك أبو ذر لا يرىٰ إلا عليه حلة وعلىٰ غلامه مثلها[1]، وهكذا يطعم معه، ويلبس معه.

أما أهل الجاهلية فإنهم لا يبالون بالتعيير، وقد حذر الله -تبارك وتعالىٰ- من ذلك بقوله الحق: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات:١١].

والذي يجب التنبه إليه: وجوب هجر أقوال أهل الجاهلية المنكرة، وأفعالهم القبيحة، وكذا مما يجب التنبيه عليه أنه ليس كل خصلة من أعمال الجاهلية أو أقوالهم تكون كفرًا، بل يجب أن توزن بميزان الشرع الشريف قبل الحكم عليها بكفر أو بدونه، فالشرع هو الحاكم علىٰ جميع الأعمال من حيث صحتها وبطلانها، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة:٤٩] الآية.

(١) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

المسألة السَّادِسَةُ وَالتِّسعُونَ: الافتِخَارُ بِوِلَايَةِ البَيتِ، فَذَمَّهُمُ الله بِقَولِهِ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٧].

الشرح:

المسألة السادسة والتسعون: الافتخار بولاية البيت، نعم كان الكفار يفتخرون بأنهم أهل البيت الحرام وأنهم حماته، وأنهم أهله، وأولىٰ الناس به، فذمهم الله ﷻ وأخبرهم بأن ذلك لا ينفعهم، وإنما الذي ينفعهم هو الإيمان بالله ﷻ وإقامة دينه وشرعه، بمتابعة كتابه ورسوله -عليه الصلاة والسلام-؛ فقال ﷻ عنهم: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالبيت الحرام والقيام بخدمته، وخدمة الوافدين إليه ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾؛ فذمهم الله ﷻ بذلك.

يهجرون ما فيه من العلم والعمل ويسمرون مفتخرين ومتحدثين بأنهم أهل البيت، لهم الفضل ولهم المزية عن غيرهم، وقد قال الله ﷻ: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة:١٩].

فلا ينبغي للإنسان أن يقتصر علىٰ عمل، ويظن أنه يكفيه عن غيره من الأعمال؛ لأن هذا من استدراج الشيطان وتزيينه؛ ليثبطه عن عمل الصالحات الذي به تتضاعف الحسنات، وترتفع الدرجات، وتكفر الخطيئات، وبعد ذلك المقيل الدائم في روضات الجنات.

وليعلم المسلمون أن الأماكن -وإن كانت مقدسة- لا تنفع ساكنيها بدون عمل صالح يكون فيها وفي غيرها، وافتخار أهل الحرم بقيامهم بخدمة البيت والحجاج، ورؤيتهم أنفسهم أفضل من غيرهم، هو مكر من الشيطان بهم، عافىٰ الله منه المسلمين العقلاء، أتباع الحق وحماة العقيدة الصحيحة.

المسألة السَّابِعَةُ وَالتِّسعُونَ: الافتِخَارُ بِكَونِهِم ذُرِّيَّةَ الأَنبِيَاءِ؛ فَأَتَىٰ اللهُ بِقَولِهِ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ الآيَةَ [البقرة:١٣٤].

الشرح:

والمسألة السابعة والتسعون: الافتخار بكونهم ذرية الأنبياء فأتىٰ الله بقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾، وهذا ينطبق علىٰ صنيع اليهود الذين لعنهم الله وغضب عليهم، بل قالوا أكثر من ذلك، قالوا: إنهم أبناء الله وأحباؤه.

وعلىٰ هذا فلا ينبغي الافتخار بالقرابة من الأنبياء أو الصالحين؛ لأن ذلك لا ينفع صاحبه يوم القيامة، إذا لم يقم بما أمر الله وأمر رسوله -عليه الصلاة والسلام-، ولذلك حذرنا نبينا ﷺ في قوله: «**يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس عم رسول الله، يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئًا**»[1].

إذا عُلِمَ هذا، فكن علىٰ يقين أن القرب من الصالحين بنسب، أو سبب غير الإسلام، لا ينفع إذا لم يكن معه عمل صالح، ترتفع به الدرجات، وتمحىٰ به الخطيئات، ويكون سببًا في رضا رب الأرض والسموات، وزادًا يقربك من ربك زلفىٰ فتسعد مع السعداء يوم القيامة، اليوم الذي يجزي فيه كل عامل بعمله، الذي لا أنساب فيه ولا يتساءلون.

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

المسألة الثَّامِنَةُ وَالتِّسعُونَ: الافتِخَارُ بِالصَّنَائِعِ كَفِعلِ أَهلِ الرِّحلَتَينِ عَلَىٰ أَهلِ الحَرثِ.

الشرح:

المسألة الثامنة والتسعون: الافتخار بالصنائع كفعل أهل الرحلتين علىٰ أهل الحرث، والمراد بالرحلتين: رحلة الشتاء إلىٰ اليمن، ورحلة الصيف إلىٰ الشام، التي كان يعملهما الجاهليون.

فهم يفتخرون بصنائعهم وحرفهم علىٰ غيرهم، مع أنها لا تقربهم عند الله شيئًا، وهذا نوع من الافتخار علىٰ الآخرين، واحتقار ما هم عليه من الصنائع الأخرىٰ، وهذا العمل لا يجوز؛ إذ المسلم مأمور بالتواضع في جميع أقواله وأفعاله، الظاهرة والباطنة.

وشبيه الافتخار من أهل الجاهلية بما ذكر، من يفتخر علىٰ بعض الناس إما بوظيفته، وإما بجاهه ونسبه وحسبه، وتراه يطعن في الآخرين الذين يعتبرهم أقل منه منزلة وهو أعلىٰ منهم منزلة، بما حباه الله بشيء من النعم، وإن المؤمن الصادق الذي خالط الإيمان بشاشة قلبه، إذا أنعم الله عليه من نعمه التي هي ابتلاء، يظل شاكرًا متواضعًا لعباد الله، محسنًا إليهم، غير مفتخر، ولا مستكبر، ولا محتقر لأحد، فيزيده الله من فضله، ويعينه علىٰ عمله الطيب، ويجعله مقبولًا عند الناس بسبب حسن خلقه، وقيامه بحقوق ذوي الحقوق عليه، طاعة لله ولرسوله، وقيامًا بما عليه من حقوق، ابتغاء رضوان الله، ورجاء رحمته، وخشية عقوبته.

* * *

المسألة التَّاسِعَةُ وَالتِّسعُونَ: عَظَمَةُ الدُّنيَا فِي قُلُوبِهِم؛ كَقَولِهِم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١].

الشرح:

المسألة التاسعة والتسعون: عظمة الدنيا في قلوبهم، كقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

جرتهم عظمة الدنيا في قلوبهم ونفوسهم إلىٰ الاعتراض علىٰ الله -عز شأنه، وتعالىٰ علوًّا كبيرًا-، وذلك في تخصيص محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ بالرسالة من عند الله، وهو الرجل اليتيم الفقير، وجزموا أن الأحق بها أهل المال والشهرة، وهما رجلان أحدهما في مكة وهو الوليد بن المغيرة، والثاني في الطائف وهو عروة بن مسعود الثقفي، فأنكر الله عليهم ورَدَّ مكرهم في نحورهم، فقال سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

وما ذلك إلا أن هذا الفضل والشرف بإنزال الوحي علىٰ محمد ﷺ، فكان بذلك سيد الثقلين، وخاتم النبيين والمرسلين.

ثم قال سبحانه مبينًا عظمته وقدرته وحكمته: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف:٣٢].

فذهب اعتراضهم هباء، وبقي وثبت ما اختاره الله بالظواهر والبواطن وهو بكل شيء عليم.

* * *

المسألة المِائَةُ: التَّحَكُّمُ عَلَىٰ الله، كَمَا فِي الآيَةِ.

الشرح:

المسألة المائة: التحكم علىٰ الله، وذلك بسبب أن الدنيا عَظُمت في قلوبهم لأنهم نظروا إلىٰ أهل الجاه والسلطان والمال، فاعترضوا علىٰ حكم الله الذي بعث محمدًا ﷺ، الرجل اليتيم الذي كان يرعىٰ الغنم علىٰ قراريط تبذل له، فاختاره الله واجتباه وفضله علىٰ العالمين، فأنزل عليه الرسالة وكلفه بإبلاغها، وهو الكفء لها وهو المستحق لها، ورب العزة سبحانه يعلم حيث يجعل رسالته ويودِع فضله، فاختار الله محمدًا -عليه الصلاة والسلام-؛ ليكون نبيًّا رسولًا إلىٰ الإنس والجن كافة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

فقال المشركون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

والمراد بالقريتين مكة والطائف -وهذا الرجل هو الوليد بن المغيرة في مكة، أو حبيب بن عمرو الثقفي، وقيل: عروة بن مسعود في الطائف كما تقدم ذكره-، وهذا منهم اعتراض علىٰ الله ﷻ، ولكن الله رد عليهم بقوله الحق: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؛ لأن الرسالة رحمة مهداة لله علىٰ عبيده، وليس فوقها نعمة لولا الله ﷻ، ثم تلك البعثة الميمونة والرسالة التي رحم الله بها الأمة، ما أبصر الناس طريق الهدىٰ من طريق الضلال، ولا طريق الجنة من طرق النار، قال الله ﷻ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف:٣٢].

ولقد تدخل أهل الجهل والضلال في تدبير الرب -تبارك وتعالىٰ- للأمور بقدرته وحكمته، كما قص الله ذلك عنهم علىٰ سبيل الذم لهم؛ إذ قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان:٣٢]؛ أي: ولم ينزله مفرقًا كما هو الحال، وهو اعتراض يدل علىٰ غاية سفههم وجهلهم، ولقد رد الله عليهم في اعتراضهم لعلهم يعقلون فقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾؛ أي: أنزلناه مفرقًا ولم يكن جملة واحدة لتقوية قلب الرسول الكريم وأتباعه المؤمنين، فقد نزل مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة، بحسب الحوادث والوقائع وفرض الأحكام وهم يعلمون به، وفي ذلك من الحكم العظيمة ما يبهر العقول ويريح نفوس المؤمنين.

ولقد وعد الله نبيه بدحض شبهاتهم، وكسر تعنتهم؛ إذ قال -وقوله الحق-: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: الذي يزهق باطلهم ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣]؛ أي: أبين وأفصح تفسيرًا من تعنتهم وشبههم.

ونسوا الذين أخبرونا بقسط من الناس وهذا صنيع الكافرين علىٰ اختلاف مللهم من يهود ونصارىٰ ووثنيين ومجوس وغيرهم، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران:٢١-٢٢].

* * *

المسألة الحَادِيَةُ بَعدَ المِائَةِ: ازدِرَاءُ الفُقَرَاءِ؛ فَأَتَاهُم بِقَولِهِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢].

الشرح:

المسألة الواحدة بعد المائة: ازدراء الفقراء، فأتاهم بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢].

لا ريب أن ازدراء المؤمنين الفقراء من دين الجاهلية البغيضة، والذي يحملهم علىٰ ذلك، حقدهم الشهير وبغضهم الشنيع للإيمان وأهله بجميع طبقاتهم، وقد كانوا يأنفون من الجلوس عند النبي ﷺ عندما يدعوهم؛ ليعرض عليهم السلام؛ فيطلبون منه أن يقيم مَن عنده مِن أولياء الله لأنهم فقراء.

فلما فعل -عليه الصلاة والسلام- طمعًا في إسلام بعضهم عاتبه الله بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس:١-٤].

ونهىٰ الله نبيه عن طرد المؤمنين الضعفاء من مجلسه، طمعًا في إسلام أولئك الطغاة المتكبرين فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٥٢].

فامتثل النبي ﷺ أمر ربه، ثم أنزل الله ﷻ قوله الحق توجيهًا لرسول الحق، وبيانًا لواقع الكفار المعاندين الصادين عن سبيل الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٣-٥٤].

فيفهم من النصوص أن المنقاد للحق المحب له، علمًا وعملًا، ودعوة وجهادًا، هو المستحق لأن يكرم بالقول والفعل، وعكسه المعرض عن الحق المتكبر علىٰ الخلق، لا يستحق من التكريم شيئًا، لا بالقول ولا بالفعل؛ بل يستحق الطرد والإبعاد والهجر، ما دام علىٰ كفره وعناده وجاهليته.

* * *

المسألة الثَّانِيَةُ بَعدَ المِائَةِ: رَميُهُم أَتبَاعَ الرُّسُلِ بِعَدَمِ الإِخلَاصِ وَطَلَبِ الدُّنيَا، فَأَجَابَهُم بِقَولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ الآيَةَ [الأنعام: ٥٢]. وَأَمثَالُهَا.

الشرح:

المسألة الثانية بعد المائة: رميهم أتباع الرسل بعدم الإخلاص وطلب الدنيا، فأجابهم بقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ الآية وأمثالها.

وذلك لعظم بغض الكفار المتقدمين منهم والمتأخرين للرسل وأتباعهم، ولما جاءت به الرسل من النور المبين؛ فإنهم يرمون الرسل بقصد الزعامة والرياسة علىٰ الخلق كما قال فرعون وقومه للنبيين الكريمين موسىٰ وهارون ما قصه الله علينا في سورة يونس: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٧٨].

وكذلك يرمون أتباع الرسل علىٰ اختلاف طبقاتهم، بأنهم لا يريدون من وراء متابعة الرسل، والإيمان بما جاءوا به إلا متاع الحياة الدنيا، واشتد بغضهم لهم؟

وذلك التصرف لا يستغرب من أهل دين الجاهلية في أزمنتها وأمكنتها، وأهل الإيمان بالرسل في كل زمان ومكان بَرَاءٌ من كل قصد سيئ ومن كل جاهلية ضالة مضلة؛ بل إن الرسل وأتباعهم باطنًا وظاهرًا في كل زمان ومكان، هم أولياء الله حقًّا، وأهل الصلاح والإصلاح في الأرض، وبوجودهم في الأرض يرتفع علم الحق، وتسقط رايات الجاهليات الظالمة.

وتأمل أيها المسلم العاقل حالات الناس قبل بعثة النبي الكريم محمدﷺ، وحالات الناس بعد أن استجابوا لدعوة الرسول -عليه الصلاة والسلام- إلىٰ

الإسلام وشريعته، فإنك متىٰ تأملت وجدت أن حياة أهل الجاهلية كانت شرًّا مستطيرًا لا خير فيه، وأن حياة أهل الإسلام الصادق الصحيح، حياة خير وفير في دنياهم وبرزخهم وآخرتهم، وهذا أمر لا يقبل الجدل ولا الشك ولا التردد، لأدلة العقل والنقل الدالة عليه، فالحمد لله علىٰ انتصار الحق علىٰ جهل الجاهلين وضلال الضالين.

* * *

المسألة الثَّالِثَةُ بَعدَ المِائَةِ: الكُفرُ بِالمَلَائِكَةِ.

الشرح:

المسألة الثالثة بعد المائة: الكفر بالملائكة، فلا شك ولا تردد عند أهل السنة في وجوب الإيمان بالملائكة الكرام، الذين خلقهم الله تعالىٰ من نور، وجعلهم علىٰ وظائف متعددة ومتنوعة، لا يطيق العمل بها سواهم من مخلوقات الله؛ إذ منهم الموكل بنزول الوحي علىٰ الرسل الكرام والأنبياء العظام وهو جبريل عليه السلام.

ومنهم: الموكل بالقطر والنبات وتصريف ذلك، كما قضىٰ الله وقدر وهو ميكائيل عليه السلام.

ومنهم: الموكل بالنفخ في الصور في أوقاته المحددة له من لدن أرحم الراحمين.

ومنهم: الكرام الكاتبون الموكلون بكتابة أعمال بني آدم؛ الذين قال الله في حقهم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

ومنهم: خزان الجنة وهم رضوان وأعوانه.

ومنهم: خزنة جهنم وهم مالك وأعوانه.

ومنهم: الموكلون بحفظ بني آدم من الشرور إلا ما أذن الله فيه مما قد قضاه وقدَّره فلابدَّ من نفوذه.

ومنهم: السياحون في الأرض لتتبع مجالس الذكر، كما ثبت بذلك النص الصحيح الصريح، إلىٰ غير ذلك مما يدخل في عموم قول الله -عز شأنه-: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

ويدخل في عموم قول النبي الكريم -عليه من ربه أزكىٰ الصلاة، وأتم التسليم-: «**أطَّت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيها ملك ساجد لله**»(١).

هذا؛ وإن الإيمان بالملائكة أصل من أصول الإيمان، وركن من أركانه الستة كما في حديث جبريل المشهور(٢)، وأهل السنة -علماؤهم وعوامهم- يؤمنون بجميع أصول الدين وفروعه، ومن ذلك الإيمان بالغيب الذي هو من أصول الدين، بينما أهل الجاهلية في كل زمان ومكان لا يؤمنون بالغيب، الذي منه الإيمان بالملائكة، الذين جاء القرآن والسنة بوجوب العلم بهم والإيمان بوجودهم، سواء من ذكر باسمه ومن لم يذكر باسمه.

ومن لم يؤمن بهم فهو كافر بالله العظيم، كما هو معتقد أهل الجاهلية، الذين أعرضوا عن دعوة المرسلين، وصدوا عن سواء السبيل؛ فضلوا وأضلوا، وماتوا وهم كافرون، ولم ينجُ منهم إلا من هُدِيَ إلىٰ اتباع المرسلين في كل زمان ومكان وعصر وبادية ومصر، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وأحمد (٢١٥١٦-الرسالة).

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَيُروَىٰ مِن غَيرِ هَذَا الوَجهِ أَنَّ أَبَا ذَرٍّ، قَالَ: «لَوَدِدتُ أَنِّي كُنتُ شَجَرَةً تُعضَدُ». وَيُروَىٰ عَن أَبِي ذَرٍّ مَوقُوفًا».

(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٨) عن عمر رضي الله عنه.

المسألة الرَّابِعَةُ بَعدَ المِائَةِ: الكُفرُ بِالرُّسُلِ.

الشرح:

المسألة الرابعة بعد المائة: الكفر بالرسل، وهذه المسألة من مسائل أهل الجاهلية، التي حذر وأنذر منها نبينا محمدﷺ، فمن المعلوم لدىٰ أتباع الرسل أن الكفر بالرسل أو بواحد منهم من أنواع الكفر الأكبر الموجب للعنة الله والخلود في عذاب الله؛ إذ الإيمان بالرسل من أعظم أصول الدين، وركن جليل من أركان الإيمان، لا إيمان لمن جحد أو شك فيه، كما فعلت الجاهلية الظالمة ذات المعتقدات الفاسدة، التي حاربت بها مراتب الدين الثلاث، الإسلام والإيمان والإحسان.

ولقد وفَّق الله أهل السنة والجماعة -علماءهم، وعوامَّهُم التابعين لهم- إلىٰ معرفة معنىٰ الإيمان، والاستنارة بنوره، والعيش في ظله، فقالوا: الإيمان بالرسل هو الاعتقاد الجازم بأن لله رسلًا بعثهم الله مبشرين ومنذرين، وأنزل عليهم الكتب، أولهم نوح عليه السلام وآخرهم محمدﷺ، فوجب الإيمان بهم لأن الإيمان بهم ركن من أركان الإيمان وأساس متين من أُسُس العقيدة من أنكره فقد كفر، ومن كفر برسول واحد أو بنبي واحد؛ فقد كفر بجميع الأنبياء والمرسلين.

والفرق بين الرسول والنَّبِي: هو أن الرسول رجل من بني آدم أُوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنَّبِي من أوحي إليه ليجدد شريعةً قبله، ويبين للناس وجه الصواب والخطأ مِمَّا اختلفوا فيه من أحكام تلك الشريعة[1]؛ لذا قالوا: كل رسول نبِي وليس كل نبِي رسول[2].

---

(١) انظر: «النبوات» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٧١٤-٧٢٠).

(٢) ذكر كثير من المؤلفين أن الفرق بين الرسول والنَّبِي، هو أن الرسول من أوحي إليه بشرع

وما من أمة من الأمم، من لدن آدم أبي البشر إلىٰ آخر الأمم، أمة محمد ﷺ إلا وبعث الله إليها رسولًا أو نبيًّا يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده، ويحذرهم وينهاهم عن عبادة ما سواه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

وقال أيضًا: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]. وما ذلك إلا:

١- ليدعو الناس إلىٰ عبادة الله وحده، وهذه هي المهمة الكبرىٰ والوظيفة العظمىٰ الَّتِي أرسل من أجلها الرسل وأنزلت الكتب وشرع الجهاد فِي سبيل الله.

٢- ولكي يبلغوا رسالات الله إِلَىٰ البشر كافة كما وصفهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩].

وهذه الآية وإن كانت عامة فِي أهل التبليغ لرسالات الله إلا أن الرسل يدخلون فيها دخولًا أوليًّا.

٣- وليكونوا قدوة صالحة للبشر فيقتدون بأقوالهم وأفعالهم ويستنون بسننهم ويهتدون بهديهم؛ لأنهم أكمل البشر علمًا وعملًا وآدابًا وسلوكًا، وأعظمهم نصحًا وحكمة وإخلاصًا.

٤- ولئلا يبقىٰ للناس حجة بعد الرسل، كما قال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

ومِمَّا لا شك فيه أن الأنبياء والرسل من البشر، بل من خيرة البشر، فهم

=

وأمر بتبليغه، بينما النَّبِي من أوحي إليه، ولَم يؤمر بالتبليغ، وقد اقتنعت بالتعريف الذي كتبته؛ إذ كل رسول وكل نبي مبلغ عن الله علىٰ تفاضل بينهم فِي الرتبة والفضل (ش).

يحتاجون إلىٰ ما يحتاج إليه سائر البشر من الأكل والشرب واللباس والسكن والزواج، كما يعتريهم من الضعف والعوارض ما يعتري بقية البشر، فيعتريهم الضعف والشيخوخة والمرض والفقر والموت، بَيْدَ أنَّهم يَمتازون عن سائر البشر بصفات عظيمة لا تتوفر علىٰ سبيل الكمال إلا فيهم، منها:

١- الصدق.

٢- الأمانة.

٣- التبليغ.

٤- الخُلُق.

٥- السلامة من العيوب الخِلْقيَّة والخُلُقية.

٦- العصمة من الوقوع فِي الخطأ المتعمد.

٧- الصبر.

وهذه الصفات وإن كان سائر البشر مطالبون بِها فِي شريعة من الشرائع، وقد تتوفر فِي بعضهم ما عدا العصمة من الخطأ والسلامة من العيوب، إلا أنَّها لا تتوفر فِي بقية البشر، كما توفرت فِي أنبياء الله ورسله، ورغم جلالة قدر الأنبياء والرسل وتكريم الله لَهم بالنبوة والرسالة وشهادته لَهم بالصدق والعفاف والنصح والأمانة، ورغم تشريفه لهم بالقرب منه والوساطة بينه وبين خلقه فِي تبليغ الشرائع وغير ذلك كثير، إلا أنهم لا يستحقون من صفات الإلهية أو الربوبية شيئًا، وحاشاهم ثُمَّ حاشاهم أن يدَّعوا لأنفسهم شيئًا من ذلك أو يرضوا عمن يعتقد فيهم القدرة علىٰ ما لا يقدر عليه إلا الله أو يرفعهم فوق منزلتهم الَّتِي حددها لَهم ربُّهم وارتضاها لَهم، وقد قال لأفضلهم وخاتمهم مُحَمَّدﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠].

*** ما يقتضيه الإيمان بالرسل:**

يقتضي الإيمان بالرسل أمورًا عدة منها:

١- الإيمان بأن رسالتهم حق وصدق فيجب الإيمان بها والتصديق لها كما أراد الله من عباده إذ قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٥٢].

وقال سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء:١٧١].

ومن أنكر رسالتهم أو رسالة بعضهم، فقد كفر بكل ما تَحمله كلمة الكفر من معنىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

فالآيات صريحة في الحكم علىٰ من أنكر رسالات المرسلين، أو صدق ببعض الرسالات وأنكر بعضها؛ فإنه كافر بنص القرآن الكريم، وبهذا الاعتبار الحق فإن أهل الكتابين اليهود والنصارىٰ ومن استن بسنتهم ممن كفروا برسالة النبي محمد ﷺ بدعوىٰ اتباع موسىٰ أو عيسىٰ كفارٌ؛ إذ إن دعواهم تلك باطلة، وقد قال الله لنبيه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨].

فالآيتان وما فِي معناهما تدل علىٰ شمول رسالة النَّبي ﷺ لكافة البشر علىٰ

اختلاف أجناسهم وتباين لغاتهم، ويؤكد هذا الشمول قول النَّبيﷺ: «**والله لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثُمَّ يموت ولَم يؤمن بالذي جئت به إلا كان من أصحاب النار**».

٢- ومنها الإيمان بمن علمنا اسمه منهم، وقد ذكر في القرآن خمسة وعشرون وهم: آدم، نوح، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، داود، سليمان، أيوب، يوسف، موسىٰ، هارون، زكريا، يحيىٰ، إدريس، يونس، هود، شعيب، صالح، لوط، إلياس، اليسع، ذو الكفل، عيسىٰ، مُحَمَّد -صلىٰ الله وسلم عليهم أجمعين-.

وقد جَمعهم الشاعر فِي هذين البيتين:

فِي (تلك حجتنا) منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقىٰ سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

فهؤلاء الأنبياء والرسل يجب الإيمان بهم تفصيلًا؛ بمعنىٰ: أنه يتعين علينا التصديق برسالاتهم، بأشخاصهم، وأسمائهم؛ إذ إنهم ذكروا في القرآن الكريم علىٰ أساس التفصيل، أما بقية الأنبياء والرسل فيجب الإيمان بهم جملة، وذلك بأن نصدق بأن هناك أنبياء ورسلًا غير هؤلاء المذكورين، أخبر عنهم ربهم بقوله الحق: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ﴾ [النساء:١٦٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي تفسير هذه الآية(١): «وقد اختلف فِي عدد الأنبياء والمرسلين، والمشهور في ذلك حديث أَبِي ذر الطويل، وذلك فيما رواه ابن مردويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي تفسيره عن أَبِي ذر قال: «قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (١/ ٥٨٦).

قال: **مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا.**

قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟

قال: **ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير.**

قلت: يا رسول الله، مَن كان أولُهم؟

قال: **آدم.**

قلت: يا رسول الله، نبي مرسل؟

قال: **نعم خلقه الله بيده، ثُمَّ نفخ فيه من روحه ثُمَّ سواه قبيلًا»...»**[1].

إلىٰ أن قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد روي هذا الحديث من وجه آخر عن صحابِي آخر، فقال ابن أبِي حاتم عن أبِي أمامة قال: «قلت: يا نبي الله، كم الأنبياء؟

قال: **مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، والرسل من ذلك ثلثمائة وخَمسة عشر جَمًّا غفيرًا»**[2]...».

---

(١) **قال الحافظ ابن كثير معلقًا علىٰ الحديث:** «قَد رَوَىٰ هَذَا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم ابن حِبَّانَ البُستِيُّ فِي كِتَابِهِ: «الأَنوَاعُ وَالتَّقَاسِيمُ»، وَقَد وَسَمَه بِالصِّحَّةِ، وَخَالَفَهُ أَبُو الفَرَجِ بنُ الجَوزِيِّ، فَذَكَرَ هَذَا الحَدِيثَ فِي كِتَابِهِ «المَوضُوعَاتِ»، وَاتَّهَمَ بِهِ إِبرَاهِيمَ بنَ هِشَامٍ هَذَا، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ قَد تَكَلَّمَ فِيهِ غَيرُ وَاحِدٍ مِن أَئِمَّةِ الجَرحِ وَالتَّعدِيلِ مِن أَجلِ هَذَا الحَدِيثِ. فَاللهُ أَعلَمُ». «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٧٠-سلامة).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٨٢)، ورواه أحمد (٢٢٢٨٨-الرسالة)، والطبراني (٧٨٧١) كلهم من طريق مُعَانِ بنِ رِفَاعَةَ عَن عَلِيِّ بنِ يَزِيدَ عَنِ القَاسِمِ عَن أَبِي أُمَامَةَ به.

قال الحافظ ابن كثير معلقًا علىٰ هذا الحديث (٢/ ٤٧٠): «مُعَان بنُ رِفَاعَةَ السَّلامي ضَعِيفٌ، وَعَلِيُّ بنُ يَزِيدَ ضَعِيفٌ، وَالقَاسِمُ أَبُو عَبدِ الرَّحمَنِ ضَعِيفٌ أَيضًا».

ورواه الحاكم (٣٠٣٩) من وجه آخر عن أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَبِيًّا كَانَ آدَمُ؟

=

٣- ومنها إلزام كل أمة بالعمل بالشريعة التي جاء بِها نبيها؛ إذ إن كل أمة مطالبة بالطاعة والمتابعة لنبيها، ونحن أمة محمد ﷺ مطالبون بالعمل بشريعته السمحة التي ختمت بها جميع الشرائع السماوية، ولا يسع أحد الخروج عنها أيًّا كان لسانه أو لونه أو جنسه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧].

وبمناسبة ختم الشرائع السابقة بالشريعة المحمدية الخالدة، أحب أن أتحدث بإيجاز عن سماحة هذه الشريعة العظيمة، وعن صاحبها خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد بن عبد الله، الصادق الأمين.

فأقول: إن هذه الشريعة الإسلامية جاءت من لدن حكيم خبير، تحمل اليسر والسهولة، والأمن والاطمئنان، والسعادة في الدارين، لعالم الإنس والجن، وترفع الأغلال والآصار التي كانت علىٰ الأمم الماضية في الشرائع السابقة

=

قَالَ: **نَعَم، مُعَلَّمٌ مُكَلَّمٌ.**

قَالَ: كَم بَينَهُ وَبَينَ نُوحٍ؟

قَالَ: **عَشرُ قُرُونٍ.**

قَالَ: كَم بَينَ نُوحٍ وَإِبرَاهِيمَ؟

قَالَ: **عَشرُ قُرُونٍ.**

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَم كَانَتِ الرُّسُلُ؟

قَالَ: **ثَلثمِائَةٍ وَخَمسَ عَشْرَةَ جَمًّا غَفِيرًا**». وصححه علىٰ شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

قال الألباني تحت الحديث (٦٠٩٠) من «الضعيفة»: «...لكن عدد الرسل صحيح؛ جاء من طريق أخرىٰ عن أبي أمامة بسند صحيح، وعدد الأنبياء صحيح لغيره، وقد حققت ذلك كله في «الصحيحة» (٢٦٦٨)». اهـ

حكمة من الله ورحمة.

جاءت هذه الشريعة فحررت الإنسان كل الإنسان، حررت قلبه وعقله وجوارحه من الذل والخضوع لمخلوق مثله أيًّا كانت منزلته، وأمرته أن يتوجه بكل عبادة مالية أو بدنية، لله الخالق المحيي المميت، الذي بيده الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله.

والمعلوم لكل مسلم أن هذه الشريعة البيضاء النقية، جاءت والدماء تسفك ظلمًا وعدوانًا، والأعراض تنتهك زورًا وبُهتانًا، والأموال تنتهب جورًا وطغيانًا، والعقول تغتال فخرًا وجهلًا وعصيانًا، وفلذات الأكباد تُوأَدُ خشية الفقر والعار سفهًا وخذلانًا.

فحقنت الدماء وصانت الأعراض وحمت الأموال وحفظت العقول، ومن أراد برهانًا علىٰ ذلك؛ فليسمع إلىٰ قول النبي الحق وهو ينادي: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام؛ كحرمة يومكم هذا فِي شهركم هذا فِي بلدكم هذا**»[1].

حقًّا لقد جاءت هذه الشريعة الغراء، والمحجة السنية البيضاء، والناس لا يعرفون لهم غاية صحيحة يسعون لتحقيقها، ولم يعلموا طريقًا مستقيمًا يوصلهم إلىٰ بر السلامة ومقام النجاة، فعرفتهم بغاياتهم التي خلقوا لتحقيقها، وأرتهم طريق الحق التي توصلهم إلىٰ رضا ربهم وإلىٰ دار كرامته، ألا وهي جنته التي أعد فيها لأوليائه من المآكل والمشارب والمساكن والزوجات الحسان والخدم والغلمان والملك الكبير، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر

(١) سبق تخريجه (ص٢١٧).

علىٰ قلب أحد من البشر، نعم لقد جاءت هذه الشريعة الجليلة القدر العظيمة الشأن، تدعو بني الإنسان إلىٰ فعل الخير وترغبهم فيه، وتعد عليه جزيل الأجر والثواب في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وتنهىٰ عن الشر بحذافيره، وتحذر منه أشد التحذير، وتنذر الناس من مغبته، وتتوعد فاعله بالخزي الدنيوي والعذاب الأخروي.

حقًّا لقد أوضحت هذه الشريعة السماوية الحقة للإنس والجن: الحلال والحرام والحق والباطل والهدىٰ والرشاد بكل صراحة ووضوح، فمن اهتدىٰ فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وبالتالي فشريعة هذا شأنها، وتلك أغراضها ومبادئها وغاياتُها، لجدير بالمكلفين بها أن يعتزوا بِمبادئها وأغراضها، ويتشرفوا باتباعها والتمسك بها علمًا وعملًا، وأن يعضوا عليها بالنواجذ كي يعيشوا فِي ظلالها آمنين وفِي سبيل إحيائها مجاهدين، ولأعدائها محاربين، وعنها بأقوىٰ الأسلحة ذابين في كل وقت وحين.

وأما الحديث عمن جاء بها من عند الله، ودعا الثقلين -بأمر ربه- إلىٰ التمسك بها والعمل بمقتضاها؛ فَقُلْ عنه ما شئت من علم وحلم وصدق ونصح وشجاعة وأمانة وفطانة وفصاحة ورأفة ورحمة وثبات وجهاد ودعوة وقيادة، وغير ذلك من الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة الجليلة، ولا غرابة أن يوصف النبي الكريم بِهذه الصفات وغيرها من صفات الكمال، كالعبودية والنبوة والرسالة؛ فإن الله قد أحاطه برعايته قبل البعثة وبعدها، كما هو معروف في تاريخ حياته المباركة، وسيرته الطاهرة المضيئة.

وحيث إن لكل موضع فوائده وثمراته، فإن ثمرات الإيمان بالرسل كثيرة، نذكر منها ما يلي:

١- العلم القطعي برحمة العزيز الرحيم، حيث لم يكل عباده إلىٰ عقولهم

وفطرهم فقط، بل أرسل إليهم رسلًا كرامًا، يهدونهم بوحي من عنده إلىٰ طريق الحق، وإلىٰ صراط مستقيم، ويبينون لهم كيف يعبدون الله، فيحوزوا ثوابه ورضاه في جنات النعيم، وينجوا من غضب الله وعذابه الأليم.

٢- اعتبار رسالاتهم نعمة كبرىٰ ومنة عظمىٰ، أسداها الغني الحميد علىٰ عباده الضعفاء الفقراء؛ ليذكروه ذكرًا مباركًا كثيرًا، ويشكروه آناء الليل والنهار بكرة وأصيلًا.

٣- محبة أولئك الرسل أجمعين وتعظيمهم في حدود ما يليق بهم؛ لأنهم رسل الله وأولياؤه، ولأنهم صفوة البشر وأزكاهم وأتقاهم، لما خصهم الله به من رسالاته وكلامه، ولأنهم أنصح الخلق للخلق، كما ورد في قصصهم، الذي يعتبر جانبًا عظيمًا من الجوانب التي جاء لإيضاحها القرآن: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

* * *

المسألة الخَامِسَةُ بَعدَ المِائَةِ: الكُفرُ بِالكُتُبِ.

الشرح:

المسألة الخامسة بعد المائة: الكفر بالكتب؛ فمن غير شك أنه من المسائل العظام من مسائل أهل الجاهلية كفرهم بما أنزل الله من كتاب كما كفروا بكل نبي ورسول، واستهزءوا بهم، وردوا دعوتهم، وفي عصر نبوة سيد المرسلين محمد ابن عبد الله الصادق الأمين، ومن معه من أصحابه الغر الميامين، احتدمت المعارك وتعددت الوقائع مع أهل الجاهلية البغيضة، الذين يدعون الناس إلىٰ النار، والنبي وأصحابه يدعون إلىٰ الجنة والمغفرة.

ولقد هدىٰ الله أتباع الأنبياء في العقيدة والشريعة ووارثي علمهم إلىٰ صحيح الاعتقاد، وأشرف المناهج والسلوك والعمل، فآمنوا بأصول الإيمان، وكل ما جاء به الأنبياء والمرسلون، علىٰ مراد ومنهج رسول الله ﷺ.

ألا وإن من أصول الإيمان، الإيمان بالكتب المنزلة من عند الله، فما حقيقة الإيمان بذا الأصل العظيم؟

والجواب ما ستراه -أيها القارئ المستفيد- فيما يلي من الصفحات المشرقة:

فتعريف الإيمان بالكتب المنزلة من عند الله هو: الاعتقاد الجازم بأنَّها كلام الله، منزلة من عنده -تبارك وتعالىٰ- تَكَلَّم بها قولًا، وأنزلها علىٰ رسله وحيًا، وآمن بها ذوو الإيمان برسلهم حقًّا وصدقًا، ولا عبرة بمن كفر بها وأعرض عنها.

وقد أمر الله الأمة المحمدية كلها، أن تعلن إيمانًا باطنًا وظاهرًا، بما أنزله علىٰ الأنبياء السابقين، حيث قال سبحانه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ

مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦].

كما أمر نبيها من قبل -وهم تبع له في ذلك- حيث قال سبحانه: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ [الشورىٰ:١٥].

وقد سمىٰ الله من الكتب السماوية المنزلة: التوراة الَّتِي أنزلها علىٰ موسىٰ عليه السلام، والَّتِي وصف ما أودع فيها بأجمل الأوصاف وأكملها، بقوله الحق: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ﴾ [المائدة: ٤٤].

والإنجيل علىٰ عيسىٰ عليه السلام، ولقد أثنىٰ الله عليه بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٤٦].

والزبور علىٰ داود عليه السلام وهو الذي امتن الله به عليه فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء:١٦٣].

وصحف إبراهيم وموسىٰ المنصوص علىٰ ذكرها في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلىٰ:١٨-١٩].

والفرقان علىٰ مُحَمَّد -عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه- كما قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ ﴾ [آل عمران:١-٤].

فما ذكره الله لنا من هذه الكتب الإلهية تفصيلًا، وجب الإيمان به علىٰ وجه التفصيل، وما ذكره لنا إجمالًا، وجب علينا الإيمان به علىٰ سبيل الإجمال، امتثالًا لأمره سبحانه: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ [الشورىٰ:١٥].

أما كتاب هذه الأمة المحمدية فهو الفرقان، وقد تعبدنا الله به تلاوة وفهمًا

وتحليلًا وتحريمًا وتحكيمًا، واعتبره سبحانه مهيمنًا على جميع الكتب السماوية السابقة بدليل قوله سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨].

ولميزات جليات وجليلات لهذا القرآن؛ لكونه آخر كتاب سماوي، نزل على آخر رسول أرسل، فقد تكفل الله بحفظه بكل ما تحمل كلمة الحفظ من معنى، فهو يُتلى في كل بقعة من بقاع الأرض كاملًا غير منقوص، وهذا تحقيق لوعده سبحانه حيث قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

ولقد امتن الله به على هذه الأمة في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠].

وجعله شرفًا لها ومفخرة من مفاخرها، إن هم عظموه وائتموا به قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:٤٤].

كما جعله -عز شأنه- ميراثًا باقيًا لها، لا يختص به ذكر دون أنثى، ولا حر دون عبد، ولا طبقة دون طبقة، ولا جيل دون جيل، إلا من أعرض عن نصيبه منه، وفي هذا المعنى يقول -جل وعلا-: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر:٣٢].

وكم من آية قرآنية، قد جاءت ترغب في تعلم هذا القرآن الكريم، والإكثار من تلاوته، تارة بصيغة الأمر، ومرة بلفظ الخبر كما قال سبحانه: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾[الكهف:٢٧].

وقال -جل وعلا-: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤].

وقال -جل ثناؤه-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر:٢٩]. وغير ذلك كثير، وكم من حديث شريف صح متنه وعلا سنده، قد ورد في الترغيب في تلاوة هذا الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

من ذلك قول النَّبِي ﷺ: **«اقرءوا القرآن؛ فإنه يأتِي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران؛ فإنَّهما تأتيان يوم القيامة كأنَّهما غمامتان أو غيايتان أو كأنَّهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابِهما يوم القيامة...**

ثُمَّ قال: اقرءوا البقرة؛ فإن أخذها بركة وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة»(١).

وقوله ﷺ: **«يؤتىٰ يوم القيامة بالقرآن، وأهله الذين كانوا يعملون به فِي الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما»**(٢).

وقوله ﷺ: **«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»**(٣).

وقوله أيضًا: **«المَاهِرُ بِالقُرآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقرَأُ القُرآنَ وَيَتَتَعتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجرَانِ»**(٤).

وفي حديث عمر بن الخطاب ﷺ أن النَّبِي ﷺ قال: **«إن الله يرفع بِهذا**

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (٨٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٢٧).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨).

الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين»[١].

وجاء فِي حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالِها، ولا أقول (ألم) حرف؛ ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف**»[٢].

وفِي «سنن أبي داود»، و«جامع الترمذي» عن عبد الله بن عمرو ﷺ عن النَّبِي ﷺ قال: «**يقال لصاحب القرآن اقرأ ورتل كما كنت ترتل فِي الدنيا؛ فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها**»[٣]. وغير ذلك كثير.

ومن عجائب هذا القرآن أن سورة قصيرة منه قال فيها النبيُّ ﷺ: «**والذي نفسي بيده؛ إنَّها لتعدل ثلث القرآن**» وهي ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[٤].

وسورة قصيرة أخرىٰ هي سورة العصر، قال فيها الإمام الشافعي: «لو ما أنزل الله حجة علىٰ خلقه إلا هذه السورة لكفتهم»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩١٠)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، وأحمد (٦٧٩٩-الرسالة).

قال الترمذي: «حسن صحيح».

(٤) روىٰ ذلك البخاري (٥٠١٣) عن أبِي سعيد الخدري ﷺ: «أن رجلًا سَمع رجلًا يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها فلما أصبح جاء إلَىٰ النَّبِي ﷺ فذكر ذلك له وكان الرجل يتقالها، فقال رسول الله ﷺ: **والذي نفسي بيده إنَّها لتعدل ثلث القرآن**».

وله ألفاظ أخرىٰ عند أبِي داود والنسائي وغيرهما ولذا قال ابن القيم: «والأحاديث بكون قل هو الله أحد، تعدل ثلث القرآن كثيرة جدًّا».

(٥) أورده الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره» (١/ ٢٠٣-سلامة) بلفظ: «لَو تَدَبَّرَ النَّاسُ

فسبحان من أنزله وقال فيه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، وحينما قال الكفار: إنه سحر، إنه كهانة، إنه شعر، إنه أساطير الأولين، إلىٰ غير ذلك من أكاذيبهم رد الله عليهم بآيات مُحكمات أفحمتهم؛ إذ قال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس:٦٩-٧٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

وقال -عز من قائل-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

وقال -عز شأنه-: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة:٧٧-٨٠].

وما في معنىٰ هذه الآيات كثير، ولقد قالت المعتزلة: إن القرآن مخلوق كغيره من المخلوقات، حيث ظهرت هذه الفتنة في آخر عهد المأمون، فاقتنع بها وألزم الأمة باعتناقها، ومن أبىٰ فسيكون عرضة لضرب عنقه بالسيف، أو بالسياط إلىٰ الموت، فقال بها كثير من الناس خوفًا من أقبية السجون وضرب السياط، وفي النهاية ضرب الأعناق.

أضف إلىٰ ذلك حب المناصب في جهاز الدولة والحرص علىٰ رضاها؛

= هَٰذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُم: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر]».

ليكتسب من وراء ذلك المال العريض، بيد أن رجالًا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فثبتوا علىٰ القول الحق في هذه المسألة، وأعلنوها صريحة في كل موقف من المواقف العامة والخاصة، أن القرآن كلام الله مُنَزَّل غير مخلوق، من الله بدأ وإليه يعود، وأن الله تكلم به قولًا وأنزله علىٰ رسوله وحيًا، وبلغه الرسول ﷺ حقًا وصدقًا.

ومن هؤلاء: الإمام أحمد الذي صُبَّ عليه سوطُ العذاب ابتداء من خلافة المأمون -الذي سلك طريقًا غير مأمون- إلىٰ خلافة المتوكل؛ أي: مدة ثمانية عشر عامًا.

ومنهم: مُحَمَّد بن نوح[1] الذي صحب الإمام أحمد، وثبت معه علىٰ الحق فمات فِي الطريق، وهو مكبَّلٌ بالحديد.

ومنهم: أحمد بن نصر[2] الذي تأثر بموقف الإمام أحمد، وكان يعلن

---

(١) هو محمد بن نوح بن ميمون بن عبد الحميد بن أبي الرجال، العجلي، المعروف والده بالمضروب، كان أحد المشهورين بالسنة، أخرج هو وأحمد بن حنبل في المحنة من بغداد إلىٰ المأمون بالرقة فمات في الطريق، وصلىٰ عليه أحمد، وذلك سنة ثماني وعشرين ومائتين (٢٢٨هـ)، قال أحمد: ما رأيت أحدًا علىٰ حداثة سِنه وقله علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح، وأني لأرجو أن يكون الله قد ختم له بخير.

انظر: «تاريخ بغداد» للخطيب (٤/ ٩١-٩٢)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (١١/ ٢٤٢).

(٢) هو أَحمَد بن نصر بن مالك بن الهيثم بن عوف بن وهب بن عميرة بن هاجر بن عمير بن عَبد العزىٰ بن قمير بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو، أَبُو عَبد اللهِ الخزاعي، كان من أهل الفضل وَالعلم، مشهورًا بالخير أمارًا بالمعروف، قوَّالًا بالحق.

قتله الواثق سنة إحدىٰ وثلاثين ومائتين (٢٣١هـ)؛ لامتناعه عن القول بخلق القرآن، ذكره =

اعتقاده فِي مسألة القرآن مؤيدًا الإمام أحمد، فدعاه الخليفة وطلب منه أن يقول بخلق القرآن فأبَىٰ، فأمر بضرب عنقه، وأرسل رأسه إلىٰ بغداد فعلق في جانبها الشرقي برهة من الزمن، ثُمَّ نقل إلىٰ الجانب الغربي فَعُلِّقَ برهة من الزمن أخرىٰ، وأما جسده فقد صلب في مدينة سامراء؛ ليكون عبرة لغيره من الخلق، كما أراد الواثق آنذاك، وفي الواقع أن هذا الذي أقدم عليه الواثق، وسَنَّه قبله المأمون ومؤيدوه، من أعظم الجرأة علىٰ الله، سلفهم في ذلك الحجاج بن يوسف، الذي قتل أكثر من مائة ألف رجل، منهم -بل أتقاهم- سعيد بن جبير الذي ختمت حياة الحجاج بقتله -وعند الله تجتمع الخصوم-.

وما أشبه الليلة بالبارحة؛ فكم اليوم من جبارين وعلمانيين فِي معظم ديار الإسلام والمسلمين، عرفوا بِموقفهم المشين من شريعة رب العالمين، منهم مَن قد وافته منيته فانتقل من دار العمل إلىٰ دار الجزاء علىٰ العمل، ومنهم من ينتظر غير معتبر بمن مضىٰ، ويا ليته يأخذ العظة والعبرة من حال قوم تشبهوا بمن قَصَّ الله خبرهم بقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٥٢].

أعود فأقول: ومن أعجب ما نقل عن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ حينما قال له عمه إسحاق بن حنبل[1]: «يا أبا عبد الله، قد أجاب أصحابك، وقد أعذرت

=

الإمام أحمد، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: لَقَد جَادَ بِنَفسِهِ.

انظر: «تاريخ بغداد» (٥/ ٣٨٢-٣٨٨)، و«السير» (١١/ ١٦٦-١٦٩).

(١) هو إِسحَاق بن حنبل بن هلال بن أسد أبو يَعقُوب الشيباني، ولد سنة إحدىٰ وستين ومائة، سمع يزيد بن هارون والحسين بن محمد المروذي، روىٰ عنه ابنه حنبل ومحمد بن

=

فيما بينك وبين الله، وبقيت فِي السجن والضيق.

فقال الإمام أحمد: يا عم إذا أجاب العالم تقية والجاهل يَجهل فمتىٰ يتبين الحق؟»[١].

ثم ذكر حديث خباب الذي قال فيه: «شكونا إلىٰ رسول الله ﷺ -وهو متوسد بردة فِي ظل الكعبة-، فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟!

فقال: **قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فِي الأرض؛ فَيُجعل فيها، ثُمَّ يؤتىٰ بالمنشار، فيوضع علىٰ رأسه فيجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حَتَّىٰ يسير الراكب من صنعاء إلىٰ حضرموت، لا يخاف إلَّا الله، والذئب علىٰ غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[٢].

وهكذا يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فِي الحياة الدنيا وفِي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء.

ولقد استمرت تلك الفتنة العمياء التي أيقظها المعتزلة ما يقارب ستة عشر عامًا، حيث بدأت فِي آخر عهد المأمون سنة ٢١٨، وانتهت فِي عهد المتوكل سنة ٢٣٤، فالحمد لله علىٰ كل حال، ونعوذ بالله من أحوال أهل النار.

=

يوسف الجوهري وكان ثقة.

قال حنبل: ومات أبي إسحاق بن حنبل سنة ثلاث وخمسين ومائتين وهو ابن أربع وتسعين، وكان بينه وبين أبي عبد الله أقل من ثلاث سنين هذا في أول السنة وهذا في آخرها. «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلىٰ (١/ ١١١).

(١) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٢/ ٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩١٣).

كلمة خاتمة لهذا الأساس من أسس العقيدة الإسلامية:

ولقد وصف الله هذا القرآن العظيم بالهداية إلىٰ الرشد، كما قال سبحانه إخبارًا عن الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:١-٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، كما وصفه سبحانه بالحسن والجودة والكمال؛ فقال -عز شأنه-: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣].

كما رفع من شأنه وعظم أمره بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

وبقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة:٧٧-٨٠].

كما وصفه سبحانه بأنه معجزة خالدة تتحدىٰ عالم الإنس والجن فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

كما أشاد -جل وعلا- بفصاحته وبلاغته حيث قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

ولقد عُرف هذا القرآن بأنه أسهب في شرح الفرائض والحدود، وبيان الحلال والحرام وذكر الآداب والسلوك، بما لا يتسع هذا المقام لذكره، إلا علىٰ سبيل الإشارة والتنبيه.

فلقد أمر بالصدق والوفاء والعدل والأمانة والإحسان إلىٰ القريب والبعيد، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، والسعي فِي الصلاح والإصلاح، وغير ذلك من الأوامر التي تحقق السعادة في الدارين.

وبجانب هذه الأوامر فقد نهىٰ عن الشرك بِجميع صوره، والفحشاء والمنكر والبغي والظلم والفساد فِي الأرض، ونهىٰ عن القتل والسرقة والغش والخيانة وسوء الظن والغيبة والنميمة وشهادة الزور، وغير ذلك من المحرمات، التي تكون سببًا في هلاك العبد وشقائه الدنيوي والأخروي، ثم لقد شهد بكماله وجودته بعض أئمة الكفر فقال: «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مورق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلىٰ عليه، وإنه ليحطم ما تحته».

وقديمًا قيل:

شهد الأنام بفضله حتىٰ العدا ... والفضل ما شهدت به الأعداء

ورحم الله شيخنا[1] إذ قال في وصفه نظمًا:

هو الكتاب الذي من قام يقرؤه ... كأنما خاطب الرحمن بالكلم

هو الصراط هو الحبل المتين هو ... والعروة الوثقىٰ لمعتصم

هو البيان هو الذكر الحكيم هو ... التفصيل فاقنع به فِي كل منبهم

هو البصائر والذكرىٰ لمدكر ... هو المواعظ والبشرىٰ لغير عمي

هو المنزل نورًا بَيِّنًا وهدىٰ ... وهو الشفاء لما فِي القلب من سقم

---

(١) حافظ بن أحمد بن علىٰ الحكمي المتوفىٰ عام ١٣٧٧هـ، بِمكة المكرمة نور الله منزله، وأمطر عليه شآبيب الرحمة والغفران، وهذه الأبيات من المنظومة الميمية تحت عنوان: «الوصية بكتاب الله» (ش).

لكـــنه لأولـــي الإيمـــان إذ عملـــوا بمـــا أتـــىٰ فـــيه مـــن علـــم ومـــن حكـــم

أمـا علـىٰ مـن تولـىٰ عـنه فهـو عمـىٰ لكـونه عـن هـداه المـستنير عمـي

وبالتالي: فلا غرابة ولا عجب أن يوصف هذا القرآن الكريم والذكر الحكيم بهذه الصفات الكاملة الحسنة؛ إذ هو من كلام ربنا الذي قال فيه: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان:٢٧].

وأكد هذا المعنىٰ بقوله الحق: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف:١٠٩].

فسبحان من أنزل هذا الكتاب فأحكمه، وجعله معجزة قائمة دائمة، ولقد وقف أمامه أرباب الفصاحة والبلاغة، حيارىٰ مشدوهين من جمال تركيبه، وحسن أسلوبه، وبديع معانيه، ودقة أحكامه، وقوة حججه، وسمو مقاصده: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٦].

فاللهم يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب هُمومنا وغمومنا، وذكرنا منه ما نُسِّينا، وعلمنا منه ما جهلنا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، والعمل به علىٰ الوجه الذي يرضيك عنا يا كريم.

* * *

المسألة السَّادِسَةُ بَعدَ المِائَةِ: الإعرَاضُ عَمَّا جَاءَ عَنِ اللهِ.

الشرح:

المسألة السادسة بعد المائة: الإعراض عما جاء عن الله؛ فإن من أسوء الأعمال: موقف أهل الجاهلية مما جاءت به الرسل الكرام، وهو الإعراض عن الوحي المنزل من عند الله علىٰ صفوة الخلق الرسل الكرام؛ ليخرجوا الناس من الظلمات إلىٰ النور بإذن ربهم إلىٰ صراط العزيز الحميد، فأعرض أهل الاعتصام بما كان عليه آباؤهم من الجهل والبغي والعدوان، أعرضوا عن الوحي الذي في الاعتصام به الحياة بعد الموت، والعلم بعد الجهل، والنور بعد الظلمة، كما بين الله أمرهم وحذر من معتقدهم وسلوكهم فقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف:٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٩].

قال ابن سعدي في تفسير هذه الآيات: «يخبر تعالىٰ عن عقوبته البليغة، لمن أعرض عن ذكره، فقال: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾؛ أي: يعرض ويصد ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي هو القرآن العظيم، الذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده، فَمَنْ قَبِلَهَا فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والرغائب، ومن أعرض عنها وردها فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبدًا، وقيض له الرحمن شيطانًا مريدًا، يقارنه ويصاحبه، ويعده ويمنيه، ويؤزه إلىٰ المعاصي أزًّا.

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾؛ أي: الصراط المستقيم، والدين القويم.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا.

فإن قيل: فهل لهذا من عذر، من حيث إنه ظن أنه مهتدٍ، وليس كذلك؟

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله، الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله، مع تمكنهم علىٰ الاهتداء، فزهدوا في الهدىٰ مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل، فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم.

فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله في الدنيا مع قرينه، وهو الضلال والغيّ، وانقلاب الحقائق.

وأما حاله إذا جاء ربه في الآخرة، فهو شر الأحوال، وهو: إظهار الندم والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبرِّي من قرينه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾.

كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف:٣٩]؛ أي: ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، أنتم وقرناؤكم وأخلاؤكم؛ وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم، فاشتركتم في عقابه وعذابه.

ولن ينفعكم أيضًا روح التسلي في المصيبة؛ فإن المصيبة إذا وقعت في الدنيا، واشترك فيها المعاقبون، هان عليهم بعض الهون، وتسلَّىٰ بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة، فإنها جمعت كل عقاب، ما فيه أدنىٰ راحة، حتىٰ ولا هذه

الراحة، نسألك يا ربنا العافية، وأن تريحنا برحمتك».

ولقد هدىٰ الله من خلقه من أتىٰ بأسباب الهداية؛ بأن قَبِلَ الحق الذي جاء به الرسل، ونبذ ما عليه أهل الجهل والضلال في كل زمان ومكان: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

فتبًّا لأهل الجاهلية في كل زمان ومكان؛ لقد اشتروا الضلالة بالهدىٰ والعذاب بالمغفرة، فما أصبرهم علىٰ النار.

وطوبىٰ لأتباع المرسلين في كل زمان ومكان؛ لقد هدوا إلىٰ الحق، وإلىٰ طريق مستقيم، فاستقامت أمورهم وصلح حالهم ومآلهم.

* * *

المسألة السَّابِعَةُ بَعدَ المِائَةِ: الكُفرُ بِاليَومِ الآخِرِ.

الشرح:

المسألة السابعة بعد المائة: الكفر باليوم الآخر، هو الأصول العظيمة التي أنكرها أهل الجاهلية المفسدين في الأرض؛ إذ أنكروا البعث والنشور والجنة والنار والجزاء علىٰ الأعمال، وقالوا ما أخبر الله به عن عقيدتهم الباطلة بقوله الحق: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام:٢٩].

فصارت هذه العقيدة الفاسدة ميراثًا لأهل الجاهلية، يرثها اللاحق عن السابق، ويحاربون الله ورسله؛ فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، وهدىٰ الله أتباع الرسل -في كل زمان ومكان- إلىٰ الإيمان بكل ما جاء به المرسلون الكرام، والأنبياء العظام، والوارثون لهم من أهل الإحسان والإيمان والإسلام.

أَلَا وإن من أصول الإيمان العظيمة الإيمان باليوم الآخر، وبكل ما سيجري فيه مما أتىٰ ذكره مفصلًا في الثقلين العظيمين، الكتاب العزيز والسنة المطهرة.

وقبل الحديث عن هذا الأساس المتين، والركن المهم العظيم، أحب أن أقول كلمة قصيرة بين يديه؛ لِمَا لها من العلاقة به، فأقول مستعينًا بالله:

قضىٰ الله العليم الحكيم، والرب الخالق العظيم أن يَخلق دارين، دار الدنيا ودار الآخرة، فجعل سبحانه الأولىٰ دار عمل، وجعل الثانية دار جزاء[1]، وقد كلف سبحانه الإنس والجن بتكاليف تتجلىٰ في الأوامر والنواهي، وعلىٰ أساسها يكون الجزاء يوم القيامة: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

(١) ودار البرزخ هي الحاجز بينهما.

حقًّا -أيها القارئ الكريم-: إن الله الذي خلقك من نطفة من ماء مهين، خرج من بين الصلب والترائب، ثُمَّ حفظك في بطن أمك في تلك الأطوار المتعاقبة المشار إليها فِي قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤].

نعم؛ إن الله الذي أتقن هذا الصنع، هو الذي حباك بنعم لا تعد ولا تحصىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ [إبراهيم:٣٤].

ولكن الإنسان لا يفقه معنىٰ هذه النعمة إلا إذا هداه الله ففكر فِي نفسه وفيما بين يديه وما حوله، وما بلغ إلىٰ علمه مِمَّا ينبغي التفكير فيه كنعمة الحواس، مثل: حاسة السمع والبصر والفؤاد والشم والذوق، وهناك نعمة الأعضاء المتحركة، وهناك ممَّا لا يدخل تحت الحصر، ممَّا لا تحيط به العقول، أو تسطره الأقلام.

وأجلُّ نعم الله علىٰ الإطلاق، نعمة الرسالة والنبوة، التي أنعم الله بِها علىٰ الأمم فِي الأرض: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر:٢٤].

فمن الخلق من شكر تلك النعمة، فقبل ما جاء به الأنبياء والرسل باطنًا وظاهرًا، فامتثل الأوامر واجتنب النواهي، فعاش فِي هذه الدنيا قوي القلب، قرير العين بإيمانه الصادق الصحيح، في ظل شريعة الله القائمة العادلة، مستثمرًا أوقاته في ليله ونهاره طيلة حياته فيما يرضي ربه عنه، حتىٰ يوافيه الأجل وهو محب للقاء الله، وقد تلقىٰ البشرىٰ من ملائكة الله: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

فجعل الله قبره روضة من رياض الجنة، وفسح له فيه مد البصر، كما هو ثابت في الأحاديث الصحيحة الواردة فِي الحياة البرزخية[١]، حَتَّىٰ إذا وقعت الواقعة وحقت الحَّاقة، وجاءت الصَّاخة، وقام الناس لرب العالمين وانقسموا إِلَىٰ فريقين، سعداء وأشقياء، كان ذلك الشاكر من السعداء الذين يقال لهم: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم، ولا أنتم تحزنون، فيدخل دار النعيم المقيم، دار الكمال والصحة والجمال، دار السرور والبهجة والحبور، يتمتع بِمآكلها الشهية، ومشاربِها الصافية النقية، وقصورها العالية المتلألئة البهية، وخيراتِها الحسان اللاتِي أنشأهن إنشاء ربُّ البرية، وغير ذلك مِمَّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر[٢].

وفوق ذلك إنجاز الوعد الربانِي الكريم بالنظر إلىٰ وجهه العلي العظيم، الذي ينسي كل لذة ونعيم، فاللهم لا تحرمنا خير ما عندك من الفضل والإحسان بِشَرِّ ما عندنا من التقصير والعصيان.

---

(١) إشارة إلىٰ حديث البراء بن عازب ﷺ في عذاب القبر ونعيمه، وفيه: «فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَن قَد صَدَقَ عَبدِي، فَأَفرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ الجَنَّةِ، وَأَلبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ.

قَالَ: فَيَأتِيهِ مِن رَوحِهَا وَطِيبِهَا.

قَالَ: وَيُفتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ». أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم (١٠٧-١١١)، وصححه؛ ووافقه الذهبي.

(٢) ورد ذلك في حديث يقول فيه الله تعالىٰ: «أَعدَدتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَينٌ رَأَت، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَت، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلبِ بَشَرٍ، فَاقرَءُوا إِن شِئتُم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾». وقد أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

ومنهم من كفر بتلك النعمة الدينية والدنيوية، حيث أعرض عما جاء به الأنبياء والمرسلون، واشترىٰ الضلالة بالهدىٰ، واختار لنفسه طريق الهلاك والشقاء والردىٰ، فإنه يعيش فِي هذه الحياة الدنيا عيشة معقدة ضنكًا، ويحشر إِلَىٰ ربه يوم القيامة أعمىٰ، فيقول: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٥-١٢٦].

نعم؛ يعيش عيشة بهيمية، ليس له غرض صحيح ولا غاية حميدة، بل همه كله تحقيق رغبات نفسه الأمارة بالسوء من أكلة لذيذة، وشهوة جسدية جامحة، وجمع مال عريض، وهوىٰ متبع معبود، فما جزاء من هذا شأنه، وتلك مقاصده إلا كما قيل:

فكيف حال من عليه تؤصد ... يهبط تارة وأخرىٰ يصعد(١)

وحينما يتلطفون قائلين لخزنة جهنم: ادعوا ربكم يخفف عنا يومًا من العذاب، يُجيبونَهم علىٰ سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر:٥٠]، فنعوذ بالله من سوء الحال والمنقلب والمصير.

وبعد، فما المراد باليوم الآخر؟ وما وجه تسميته بذلك؟ وما حكم الإيمان به؟ وبِما يقع فيه؟ وما حكم من أنكره؟ وما أدلة ثبوته؟

والجواب: أما المراد باليوم الآخر: فهو يوم القيامة الذي يبعث الله فيه الخلق أجمعين، الأولين والآخرين، للجزاء علىٰ أعمالِهم، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومن إلا نفسه ولا يظلم ربك أحدًا، وأما

(١) من منظومة السبل السوية في فقه السنن المروية، للعلامة حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وجه تسميته بذلك، فلأنه لا يوم بعده؛ إذ يستقر السعداء في منازلهم في دار النعيم المقيم في جوار الرب الرحيم، ويستقر أهل النار الذين هم أهلها في منازلهم في دار الجحيم، يأكلون من الضريع ويشربون من الحميم.

وأما حكم الإيمان به فهو واجب؛ لأنه ركن من أركان الإيمان، ومن أنكره أو أنكر شيئًا مِمَّا سيكون فيه، من الجنة والنار، والجزاء علىٰ الأعمال، والمرور علىٰ الصراط، والميزان وتطاير الصحف في الأيدي، والحوض والشفاعة، وغير ذلك مِمَّا هو معلوم من الشرع بالضرورة؛ فقد ضل سواء السبيل، قال الله تعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٥-١٦].

وقال -تبارك وتعالىٰ- إخبارا عن أولئك المنكرين: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَينْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء:٤٩-٥١].

وقال عنهم كذلك: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات:١٥-١٩]، وغير ذلك كثير.

وأما أدلة السنة فمنها: قوله ﷺ في الصحيحين: «**يحشر الناس يوم القيامة حُفاة عُراة غُرلًا**»[1].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٥٢٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨٥٩) واللفظ له.

وأما الإجماع: فقد أجمع المسلمون قاطبة علىٰ مجيئه ووقوعه وثبوت ما سيكون فيه؛ إذ إن الله قضىٰ أن يكون للخليقة أولاها وأخراها معادًا يردون إليه، ويُجازون علىٰ ما كلفوا به علىٰ ألسنة رسل الله، الذين جاءوا بالحق وبه كانوا يعملون وفِي سبيله يُجاهدون.

ومِمَّا هو جدير بالعلم واليقين: أن تكليف الخليقة بالأوامر والنواهي، من غير أن يترتب علىٰ ذلك جزاء ضرب من العبث، الذي يتنَزه عنه ربُّ العزة والجلال القائل فِي مُحكم تنزيله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦].

ومن ثَمرات الإيمان بِهذا الأساس:

أ- الإقبال علىٰ فعل الخيرات، والحرص علىٰ كسب الحسنات من أقوال وأفعال ومعتقدات، وما ذلك الإقبال إلا لأن فاعلها يرجو ثوابَها الذي وُعِدَ به فِي مُحكم التنزيل وصحيح السنة المطهرة.

ب- الكف عن المعاصي أقوالِها وأفعالِها باطنها وظاهرها؛ إذ إن اقترافها سبب فِي عقوبة الله الَّتِي توعد بِها العصاة الذين تعدوا حدوده، وأضاعوا فرائضه، وأعرضوا عما جاء به المرسلون، المشتمل علىٰ الأمر بكل برٍّ وفضيلة، والنهي عن كل شرٍّ ورذيلة.

* * *

المسألة الثَّامِنَةُ بَعدَ المِائَةِ: التَّكذِيبُ بِلِقَاءِ الله.

الشرح:

المسألة الثامنة بعد المائة: التكذيب بلقاء الله يوم القيامة، فهذا من أقبح الذنوب؛ لما فيه من التكذيب بنصوص الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، وغيرهم من أهل الكتاب الكفرة الفجرة، بينما أهل الجاهلية منهم من ينكره جملة وتفصيلًا، ومنهم من ينكر بعضه ويشك في بعض ويصدق ببعض، غير أن تصديق من يصدق منهم ببعض منه لا ينفعه ذلكم التصديق؛ لأن الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعض لا ينفع صاحبه، ولا يغني عنه من عذاب الله الدائم السرمدي شيئًا، كما قال الله ﷻ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ﴾ [البقرة:٨٥] الآية.

وحقًّا إن الإيمان بلقاء الله من الأصول العظيمة، التي يدخل في الإيمان بالغيب، وآمن به من آمنوا بالغيب وهم أتباع الرسل حقيقة، وأما أهل الجاهلية فإنهم لا يؤمنون بالغيب، الذي منه الإيمان بلقاء الله يوم القيامة، والجزاء علىٰ الأعمال خيرها وشرها، وغير ذلك مما جاءت به الكتب، وأرسلت به الرسل، وسلم به المسلمون، لوروده عمن لا ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلا وحي يوحىٰ.

فتبًّا للجاهلية وأهلها ما أشنع كفرهم، وما أخبث أعمالهم، ولقد وَفَّقَ الله المسلمين الذين فهموا الإسلام فهمًا صحيحًا فعملوا بمقتضىٰ علمهم بدين الإسلام أصولًا وفروعًا، ومن الأصول الإيمان بلقاء الله يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ﴾ [آل عمران:٣٠]. الآية.

وذلكم الإيمان العام والخاص فضل من الله ورحمة، كما أن ضلال أهل الجاهلية ومحبتهم له، واستهزاؤهم بالرسل والمسلمين، وتكذيبهم بلقاء الله الحق يوم القيامة كان بعدل الله وحكمته، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وسوف يعلمون أَيَّ منقلب ينقلبون.

* * *

المسألة التَّاسِعَةُ بَعدَ المِائَةِ: التَّكذِيبُ بِبَعضِ مَا أَخبَرَت بِهِ الرُّسُلُ عَنِ اليَومِ الآخِرِ، كَمَا فِي قَولِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ [الكهف:١٠٥].

وَمِنهَا: التَّكذِيبُ بِقَولِهِ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤].

وَقَولِهِ: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤].

وَقَولِهِ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦].

الشرح:

المسألة التاسعة بعد المائة: التكذيب ببعض ما أخبرت به الرسل عن اليوم الآخر، وهذه المسألة من أظهر مسائل الجاهلية، وما ذلك إلا لأنهم يكذبون بأصول الدين بدون خوف من الله ولا ورع عن محارم الله، فمن الأصول التي يكذبون بها رغم دعوة الرسل إليها، وبيان الكتب المنزلة لها الإيمان باليوم الآخر، وقد سبق الحديث عن هذا الركن العظيم الذي ينكره أهل الجاهلية بالكلية، أو ينكرون كثيرًا مما يكون فيه، كالحساب ونصب الموازين، ووزن الأعمال، والجزاء بالجنة لأهل الطاعات، وبالنار لأصحاب المعاصي.

ومن أنكر شيئًا من هذه الأمور كمن أنكر البعث والنشور، فلا ينفعه هناك مال ولا بنون، لأن يوم الدين كل عبد مكلف يجازىٰ من جنس عمله، كما قال تعالىٰ عن يوم الدين: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤]. فيمن مات علىٰ الكفر الأكبر، أو الشرك الأكبر، أو النفاق الاعتقادي، وإنما الشفاعة في أهل (لا إله إلا الله)، الناطقين بها في حياة العمل، والعالمين بمعناها، والعاملين بمقتضاها، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ [الزخرف:٨٦]. بأن قال (لا إله إلا الله) عالمًا بمعناها، عاملًا بمقتضاها.

ولهذه الكلمة العظيمة أركان وشروط وفضائل، انظرها في كتاب «الشروق علىٰ الفروق» لراقم هذه الأسطر.

وقُصارىٰ القول: يا أيها المكلفون من الثقلين حققوا مراتب الدين الإسلامي علمًا وعملًا، ومراتب الدين هي مرتبة الإسلام بأركانه الخمسة، ومرتبة الإيمان بأركانه الستة، ومرتبة الإحسان بركنه العظيم ومقاماته الرفيعة، وما تقتضيه هذه المراتب من أصول الدين وفروعه وحقوقه، فمن قام بذلك ظفر بسعادة الدنيا والآخرة:

ومن قلاها فلنفسه ظلم وباء بالخسران ثم بالندم[1]

* * *

(١) من منظومة للمؤلف، وهي مخطوطة ولم تطبع بعد.

المسألة العَاشِرَةُ بَعدَ المِائَةِ: قَتلُ الَّذِينَ يَأمُرُونَ بِالقِسطِ مِنَ النَّاسِ.

الشرح:

المسألة العاشرة بعد المائة: قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس.

فإن من أعمال أهل الكفر والصد عن سبيل الله قتل الأنبياء وأتباعهم، فإن لم يقدروا علىٰ ذلك نصبوا لهم العداوة والبغضاء لذواتهم ولما جاءوا به من عند الله، وقد ذكر الله ذلك عن أشد الناس عداوة، وهم صنفان من الكفرة الفجرة: اليهود والمشركين الوثنيين؛ الذين قال الله ﷻ عنهم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة:٨٢].

وقال سبحانه عن اليهود: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١].

وكل من تشبه بهم ممن استكبروا عن الانقياد للحق الذي دعا إلىٰ الالتزام به الأنبياء وأتباعهم؛ فإنه سينال جزاءه بقدر ما جنىٰ من رد الحق وأذىٰ الصالحين بغير حق، وكل صد عن سبيل الله وبغض للحق وأهله، وإلحاق الأذىٰ بهم، فهو من أعمال الجاهلية، وكل من درس سير الأنبياء والصالحين مع أممهم علم بوضوح نصح الأنبياء وأتباعهم لأهل الأرض، وعلم عداوة أهل الجاهلية للرسل والأنبياء والداعين بدعوتهم في كل زمان ومكان.

فالحمد لله الذي هدانا للإيمان، ونجَّانا من أعمال الجاهلية أهل الفساد والمكر والطغيان.

* * *

المسألة الحَادِيَةَ عَشرَةَ بَعدَ المِائَةِ: الإِيمَانُ بِالجِبتِ وَالطَّاغُوتِ.

الشرح:

المسألة الحادية عشرة بعد المائة: فيها توضيح إيمان أهل الجاهلية بالجبت والطاغوت؛ وهذا صنيع الكافرين أجمعين، الإيمان بأصنامهم وشياطينهم الذين يزينون لهم عبادتها، وقد ذم الله -تبارك وتعالىٰ- صنيعهم بقوله الحق: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝٥١ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء:٥١-٥٢].

فالجبت قيل فيه: إنه السحر. **والطاغوت قيل فيه:** إنه الشيطان. ذكر ذلك ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)].

وقيل في الطاغوت: إنه اسم عام لكل ما تجاوز العبد فيه حده من معبود أو متبوع أو مطاع[(٢)].

وقد جاء في سبب نزول الآية المذكورة أن النبيَّ ﷺ عقد معاهدة بينه وبين اليهود الذين كانوا في المدينة قبل قدومه ﷺ المدينة عهدًا، يتضمن حفظ أنفسهم وكف أيديهم عن أصحاب النبي ﷺ، **هذا أولًا.**

وثانيًا: أن يدافعوا عن المدينة ممن أراد أهلها بسوء، غير أنهم لم يوفوا بما أخذ عليهم، بل ذهب بعض كبرائهم إلىٰ مكة، وهوَّن من شأن الرسول ﷺ وحثوا قريشًا علىٰ قتاله معهم، فتوجهت إليهم قريش بالسؤال قائلين لهم: أينا علىٰ الحق

---

(١) في «تفسيره» (٨/ ٤٦٢).

(٢) قاله ابن القيم في «إعلام الموقعين» (١/ ٥٠).

نحن أم محمد؟ قالوا: ما أنتم عليه وما عليه محمد؟ قالوا لهم: أهل البيت نكرم الضيف، ونرعىٰ الحجيج، وعددوا لهم محاسنهم مفتخرين بها علىٰ غيرهم.

وأما محمد فإنه سب آلهتنا، وعاب ديننا، وخالف دين أجداده، فأصدرت اليهود حكمهم الجائر الفاجر بأن قريشًا علىٰ الحق ومحمدًا علىٰ الباطل، فجاروا وهم يعلمون أن محمدًا رسول من عند الله، وأن قريشًا ومن تحزب معهم علىٰ أشنع الباطل، الذي يتجلىٰ في عبادة الأصنام والأوثان علىٰ اختلاف أنواعها، فأنزل الله فيهم قوله الحق: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء:٥١][(١)].

والجدير بالعلم: أن اليهود إنما وافقوا الكفار علىٰ وثنيتهم في الظاهر، مما يدل علىٰ أن الموافقة لأهل الكفر والشرك في الظاهر من غير إكراه، إيمان بما هم عليه، والحمد لله الذي أبطل كيدهم ومكرهم جميعًا، وآل أمرهم إلىٰ هزيمة، فمزقهم الله شر ممزق، وملَّك محمدًا وأصحابه رقابهم وأموالهم وديارهم، وصاروا غنيمة للمؤمنين، إلا من عفا عنهم النبيُّ ﷺ عام الفتح وقال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[(٢)].

* * *

(١) انظر: «تفسير ابن جرير الطبري» (٨/ ٤٦٦-٤٧١).

(٢) ذكره ابن إسحاق في «السيرة» (٢/ ٤١٢-السقا) عن بعض أهل العلم عن النبيِّ ﷺ، معضلًا.
ورواه الطبري في «تاريخه» (٣/ ٦١) بسند ضعيف عن قتادة مرسلًا.
وذكره البيهقي في «سننه الكبرىٰ» (٩/ ١٩٩) عن القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة بغير إسناد.

المسألة الثَّانِيَةَ عَشرَةَ بَعدَ المِائَةِ: تَفضِيلُ دِينِ المُشرِكِينَ عَلَىٰ دِينِ المُسلِمِينَ.

الشرح:

المسألة الثانية عشرة بعد المائة: فيها بيان تفضيلهم دين المشركين علىٰ دين المسلمين، وهذا صنيع الكافرين في كل زمان ومكان، يفضلون ما هم عليه من الإشراك وترك عبادة الله الكريم الحكيم، ويمدحون ما هم عليه ويذمون ما عليه أهل الإسلام من توحيد رب العالمين، وقد أكذبهم الله -تبارك وتعالىٰ- في آيات متعددات وأنكر عليهم بقوله الحق: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥-٣٦].

وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨]؟

والجواب: لا يستوي الفريقان فالمتقون أولياء الرحمن في جنات ونهر، والفجار هم أولياء الشيطان في جهنم وبئس المقر.

وهذه المسألة تتناول الذين يدعون إلىٰ وحدة الأديان، وأنها كلها أديان سماوية، وهذه دعوة باطلة؛ لأن النبي ﷺ قال: «**والله لا يسمع بي يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بالذي جئت به إلا كان من أهل النار**»[1].

وإذ كان الأمر كذلك فإنه يجب أن يعلم أنه لا نجاة لأحد بعد بعثة محمد ﷺ إلا باتباعه، وأما من لم يتبعه ومن لم يصدق برسالته، سواء من الإنس أو الجن، وسواءً من العرب أو العجم؛ فإنه من الهالكين الخاسرين، الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، أَلَا ذلك هو الخسران المبين، فتبًّا وسحقًا لمن

(١) أخرجه مسلم (١٥٣).

أعرض عن الإسلام، الذي أتىٰ به سيد الأنام محمد بن عبد الله، النبي الهاشمي، عليه من ربه أكمل تحية، وأزكىٰ صلاة وسلام، وطوبىٰ ثم طوبىٰ لمن صدقه واتبعه فيما جاء به باطنًا وظاهرًا، اعتقادًا وقولًا وفعلًا حتىٰ أتاه من ربه اليقين.

* * *

المسألة الثَّالثَةَ عَشرَةَ بعدَ المِائَةِ: لَبسُ الحَقِّ بِالبَاطِلِ.

الشرح:

والمسألة الثالثة عشرة بعد المائة: لبس أهل الجاهلية في كل زمان ومكان الحق بالباطل، وقد ذم الله اليهود الذين يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون غشًّا منهم لأنفسهم وغشًّا لغيرهم كما قال الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧١].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

والمعلوم أن خلط اليهود وأشياعهم من الكفرة والمنافقين الحق بالباطل من أجل التلبيس علىٰ من قلَّ نصيبهم من علم الشريعة الغراء؛ فإنهم هم الذين يروج عليهم هذا الخداع، وأما أهل البصيرة؛ فإنهم يميزون الحق عن الباطل فيقبلون الحق لأنه أحق أن يقبل ويتبع، ويرفضون الباطل ويذمونه ويذمون من أتىٰ به أو دعا إليه لأنه أحق أن يرفض ويجتنب، كما قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

إذ كان الأمر كما علمت؛ فإن الواجب علىٰ العلماء أن يقوموا ببيان الحق ودعوة الناس إليه؛ لأنه يفضي بأهله إلىٰ رضا الله ودخول جنته، وببيان الباطل وتحذير الناس من الوقوع فيه؛ لأنه يفضي بأهله إلىٰ سخط الله وأليم عقابه.

* * *

المسألة الرَّابِعَةَ عَشرَةَ بَعدَ المِائَةِ: كِتمَانُ الحَقِّ مَعَ العِلمِ بِهِ.

الشرح:

والمسألة الرابعة عشرة بعد المائة: فيها إيضاح كتمان الحق من أهل الجاهلية مع العلم به، وقد ذم الله فاعلي ذلك من اليهود والنصارىٰ والوثنيين وغيرهم وتوعدهم بأشد الوعيد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٥٩-١٦٠].

فاشترط لتوبتهم البيان؛ أي: بيان الحق من الباطل فذلك هو منهج الأنبياء والمصلحين المجددين.

وقد تشبه أهل البدع -علىٰ اختلاف بدعهم- باليهود والنصارىٰ في هذه الصفة؛ حيث إنهم يكتمون ما يكون ضد أقوالهم الباطلة من الحق الذي يعلمونه، ويوضحون للناس ما كان في صالحهم؛ أي: موافقًا لبدعهم، ولا شك أن هذا العمل مذموم وخيانة، وصاحبه معرض للعنة الله وغضبه.

وأشد من ذلك من كتم علمًا وهو يعرفه؛ وإنما منعه من البيان الخوفُ من الناس، أو مداهنتهم، أو الركون إلىٰ الدنيا، أو غير ذلك من الأسباب الواهية؛ فقد عرض نفسه للوعيد الشديد المذكور في قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [آل عمران:١٨٧] الآية.

وقول النبي ﷺ: «**من كتم علمًا ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**»[1].

(١) أخرجه ابن حبان (٩٦)، والحاكم (٣٤٦)، وصححه، ووافقه الذهبي.

وقوله ﷺ: «**من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضىٰ عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**»[(١)].

وإذ كان الأمر كما علمت من تحريم كتمان العلم وأنه خيانة؛ فاعلم أن الذين عندهم علم بوجوب التوحيد وتحريم الشرك وما يلحق بذلك من الأوامر والنواهي، ثم إنهم يرون كثيرًا من الناس يعبدون أصحاب الأضرحة في الرخاء والشدة لهم ويقعون في المنكرات علنًا كالبدع والخرافات ولم يبينوا لهم بطلان ما هم عليه من المنكرات؛ فإنهم قد تشبهوا باليهود الذين كتموا ما عندهم من الحق، ودعوا الناس إلىٰ ضده حسدًا ومكرًا وسوف يسألون ويجزون بما كانوا يكتمون.

فالحذرَ الحذرَ من الكتمان بالسكوت عمن ينشر الشر، ممن يخلط الحق بالباطل ويروجه، لمن قلَّ نصيبهم من العلم والتقوىٰ؛ فيوقعهم في موجبات العذاب بدون خوف من الله.

* * *

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وابن حبان في صحيحه (٢٧٦) و(٢٧٧)، واللفظ له.

المسألة الخَامِسَةَ عَشرَةَ بَعدَ المِائَةِ: قَاعِدَةُ الضَّلَالِ وَهِيَ القَولُ عَلَىٰ الله بِلَا عِلمٍ.

الشرح:

المسألة الخامسة عشرة بعد المائة: فيها بيان قاعدة الضلال وهي القول علىٰ الله بلا علم؛ أي: أن القول علىٰ الله بلا علم، هو قاعدة أهل الجهل والضلال، وهو صنيع الجاهليين من بني آدم، ومن تشبه بهم من أهل المكر بأنفسهم وبغيرهم.

ولذلك لما حرم الله ﷻ الموبقات ونهىٰ عنها نهيًا صريحًا في كتابه، جعل سبحانه أعظم الذنوب علىٰ الإطلاق القولَ عليه بغير علم؛ فقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣]. فجعل القول عليه بغير علم الذي هو من صفات الجاهليين فوق الشرك بالله.

لذا لا يجوز للعبد أن يفتري علىٰ الله الكذب، ليس له أن يحرم ويحلل بدون دليل أو مستند شرعي؛ لأن هذا كذب علىٰ الله ﷻ، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر:٣٢].

إذا علم ما سبق؛ فإن كل من قال قولًا في التحليل والتحريم مخالفًا فيه شرع الله المطهر؛ فإنه متأسٍ في ذلك بأهل الجاهلية، ولو كان من جملة المسلمين، وكان بذلك في خطر عظيم.

وإذ كان الأمر كذلك؛ فإن الواجب علىٰ أمة الإسلام أن يعتصموا بالثقلين

العظيمين، كتاب الله وسنة النبي الكريم، ويعيشوا في ظلهما الظليل، ويوم القيامة يظفرون بشفاعة القرآن الكريم، وشفاعة النبي الصادق الأمين، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، وعلىٰ المعتصمين بالثقلين أن ينبذوا شرك المشركين، وبدع المبتدعين وخرافات الصوفية، وانفلات العلمانيين والعقليين الضالين.

* * *

المسألة السَّادِسَةَ عَشرَةَ بَعدَ المِائَةَ: التَّنَاقُضُ الوَاضِحُ لَمَّا كَذَّبُوا بِالحَقِّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥].

الشرح:

المسألة السادسة عشرة بعد المائة: بيان التناقض الواضح؛ فإنهم لما كذبوا بالحق وقعوا في التناقض، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥].

والأمر المريج هو: الأمر المفترق المختلف المتناقض؛ ولذلك تجد أهل الباطل مختلفون دائمًا ومتعادون، وأما أهل الحق فإنهم لا يختلفون وخاصة في أمور العقيدة؛ فإن قولهم واحد في كل زمان ومكان وهذه ميزة تميز بها أهل السنة والجماعة السائرين علىٰ منهج السلف الصالح عن غيرهم من أهل البدع والضلال.

وقد يختلفون في مسائل تتعلق بالفرعيات من الأحكام، وهذا أمر لابد منه، ولكن متىٰ تبين لهم الحق بدليله رجعوا إليه؛ لأن الدليل بالفهم الصحيح مرجع الجميع، وهم في ذلك يستندون إلىٰ نصوص قرآنية كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]؛ أي: إلىٰ كتاب الله وإلىٰ سنة رسول الله ﷺ بعد وفاته، ومتىٰ وُجِدَ الدليل أَخَذَ به جميعهم، ولم يردوه تعصبًا لآرائهم أو لمتبوعيهم، بخلاف أهل الباطل؛ فإن الاختلاف ميراث لهم، يرثه اللاحق عن السابق، وهذا أمر معلوم لطلاب العلم السائرين علىٰ نهج أهل السنة والجماعة، وليس لأهل السنة مرجع إلا الكتاب والسنة بفهم العلماء الربانيين، فذلك ميراثهم وأكرم به من ميراث.

المسألة السَّابِعَةَ عَشرَةَ بَعدَ المِائَةِ: الإِيمَانُ بِبَعضِ المُنَزَّلِ دُونَ بَعضٍ.

الشرح:

والمسألة السابعة عشرة بعد المائة: فيها بيان إيمان أهل الجاهلية ببعض المنزل دون بعض، وقد أنكر الله ﷻ هذا المعتقد الفاسد، والصنيع الأثيم، بقوله الحق: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥].

وهذا جزاء كل من يأخذ ما يوافق هواه ويدع ما يخالفه؛ لأنه لم يتبع ما جاء عن الله ولا عن رسوله ﷺ؛ فاستحق هذا الجزاء والوعيد الشديد.

ألا وإن الواجب علىٰ المسلمين أن يتبرءوا من جميع خصال الجاهلية؛ وذلك بأن يأخذوا بكل ما أنزل الله من الكتاب والسنة عقيدة وشريعة، علمًا وعملًا، ودعوة وجهادًا، لا كما يفعل أهل الجاهلية، مِن أخذ ما يوافق أهواءهم، والإعراض عما يخالف عاداتهم في العقيدة والسلوك، كما هو معروف عنهم من محكمات القرآن، التي فضح الله فيها اليهود المغضوب عليهم؛ إذ قال تعالىٰ - وهو يخاطبهم ويتوعدهم-: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧].

هذا فعل اليهود مع رسلهم وأنبيائهم، ومع رسول الله محمد ﷺ كانت مواقفهم ظالمة أقبح من مواقف الأميين الجاهلين؛ فمكن الله رسوله من الجميع، وحاق بهم جميعًا سوء العذاب، في الدنيا ويوم يبعثون.

المسألة الثَّامِنَةَ عَشرَةَ بَعدَ المِائَةِ: التَّفرِيقُ بَينَ الرُّسُلِ.

الشرح:

المسألة الثامنة عشرة بعد المائة: التفريق بين الرسل معتقد الجاهليين فهم يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض، فإيمانهم ببعض الرسل ليس إيمانًا حقيقيًّا؛ لأن من آمن برسول واحد لزمه أن يؤمن بجميع المرسلين، هذه عقيدة المؤمنين، الإيمان بالمرسلين أجمعين، ومن كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع المرسلين؛ لذا قال الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥].

ونوح أول رسول إلىٰ أهل الأرض لما وقع الشرك بالله ﷻ، ولكن الله -تبارك وتعالىٰ- جعل تكذيبهم تكذيبًا لجميع المرسلين؛ إذ إن دعوة المرسلين واحدة إلىٰ عبادة الله وحده دون سواه، وإن اختلفت الشرائع العملية؛ لذا قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

بينما المؤمنون قال الله في حقهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٥٢].

وقال سبحانه موجهًا الأمة كلها إلىٰ الإيمان بكل ما يجب الإيمان به: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦].

ولقد شهد الله لنبيه محمد -عليه الصلاة والسلام- والمؤمنين به من أمته

بالإيمان بجميع كتبه ورسله؛ فقال ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

بخلاف من اختاروا عقائد أهل الجاهلية، من اليهود والنصارىٰ والوثنيين، الذين ضلوا عن سواء السبيل.

* * *

المسألة التَّاسِعَةَ عَشرَةَ بَعدَ المِائَةِ: مُخَاصَمَتُهُم فِيمَا لَيسَ لَهُم بِهِ عِلمٌ.

الشرح:

المسألة التاسعة عشرة بعد المائة: في بيان مخاصمتهم فيما ليس لهم به علم، وهذه صنعة اليهود، الفخر بما هم عليه من الباطل، والعناد لأهل الحق، ولقد أنعم الله عليهم بالتوراة فيه هدىٰ ونور، فأبوا إلا الإعراض عنها، وقتل الأنبياء، وتحريف الكتاب، وعبادة الهوىٰ والشيطان، فذمهم الله ﷻ بذلك حيث قال: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران:٦٥-٦٦].

وكما قال تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧].

فالجدل لا يكون بالباطل أو بدون علم، إنما يكون بالعلم والحجة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥].

والجدل لا يكون إلا لغرض سامٍ أَلَا وهو نصرة الحق والمحق، ودحض الباطل والمبطل، لا كما فعل أهل الملل الكافرة وفي مقدمته أهل الكتاب الذين يلبِّسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون، ولقد هدىٰ الله أتباع الرسل والأنبياء في كل زمان ومكان، إلىٰ الإيمان بما أنزل الله من كتاب، وبما أرسل من رسول؛ فتلقوا ذلك بالقبول والتسليم علمًا وعملًا، ودعوة وجهادًا، ففازوا برضا الله وعقبىٰ الدار، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من الثقلين ويختار.

المسألة العِشرُونَ بَعدَ المِائَةِ: دَعوَاهُمُ اتِّبَاعَ السَّلَفِ مَعَ التَّصرِيحِ بِمُخَالَفَتِهِم.

الشرح:

والمسألة العشرون بعد المائة: دعواهم اتباع السلف مع التصريح بمخالفتهم، وهذا ينطبق علىٰ كل مبتدع، وعلىٰ كل ضال يدعي دعوىٰ الإسلام ولم يقم عليها برهانًا بالعمل، فأعماله وأفعاله تخالف أقواله، وذلك من أمر الجاهلية ومن أسلوب المنافقين الذين قال الله ﷻ عنهم: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤].

فليست كل دعوىٰ مقبولة حتىٰ تعرض علىٰ منهج السلف الصحيح، أهل التمسك بالكتاب والسنة، والذين فهموا قول الرسول الكريم ﷺ -لما سئل عن الطائفة الناجية المنصورة- قال: «**هي علىٰ ما أنا عليه وأصحابي**»[1]، فمن وافقهم قبلت دعواهم، وإن خالفهم ردت عليه دعواه.

هذا وجميع أهل البدع المخالفين لمعتقد السلف ومنهجهم، يُطالَبون بتصحيح معتقدهم ومناهجهم، وذلك برفض ما عندهم من أخطاء ومبتدعات، حتىٰ لا يبقىٰ معهم إلا الحق عقيدة وعملًا، وحينئذٍ يزول الخلاف الذي بينهم وبين السلف الصالح وأتباعهم، وبدون تنازل منهم عن الفاسد من معتقداتهم ومناهجهم؛ فسيظل الخلاف بينهم وبين أهل السنة؛ حتىٰ يحكم الله بينهم، ويقضي أمرًا كان مفعولًا.

* * *

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وقال: غريب.
ورواه الطبراني في «الصغير» (٧٢٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

المسألة الحَادِيَةُ وَالعِشرُونَ بَعدَ المِائَةِ: صَدُّهُم عَن سَبِيلِ الله مَن آمَنَ بِهِ.

الشرح:

المسألة الواحدة والعشرون بعد المائة: فيها بيان صدهم عن سبيل الله من آمن به، وقد بين الله ﷻ صنيعهم هذا في آيات متعددات حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:١].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:٣٢].

واليهود والنصارىٰ وسائر الكفار يسعون جادين ومجتهدين في الصد عن سبيل الله، وذلك إما بإثارة الشبهات بين الناس لتشكيكهم في دينهم، أو بإثارة الشهوات التي يفتنون الناس عن دينهم.

ولا شك أن أهل البدع قد سلكوا هذا المسلك الخبيث في إثارة الشبهات علىٰ أهل الحق والسنة، ولكن هذا العمل سيندم عليه صاحبه يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتىٰ الله بقلب سليم.

والمعروف عن أهل الملل الباطلة دعوة الناس إلىٰ التمسك بمللهم، وصدهم عن الدين الحق دين الإسلام الذي يعتبر أعظم نعمة أنعم الله بها علىٰ عالم الإنس والجن، فمنهم من شكر، ومنهم من انساق وراء الكفار فنبذوا الإسلام وراء ظهورهم، واستمروا في مكرهم بأهل الإسلام وغيرهم كما قال الله عنهم: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء:٨٩]؛ أي: علىٰ ملة الكفر، حتىٰ لا يبقىٰ الإسلام ولا دعاة إلىٰ الإسلام؛ لأن الإسلام أقلقهم، وزلزل أقدامهم؛ فأخذوا يتربصون به وبأهله، وينتظرون ضعف الإسلام وأهله، قاتل الله الصادين عن سبيله أنىٰ يؤفكون.

المسألة الثَّانِيَةُ وَالعِشرُونَ بَعدَ المِائَةِ: مُوَدَّتُهُم الكُفرَ وَالكَافِرِينَ.

الشرح:

المسألة الثانية والعشرون بعد المائة: فيها بيان ذكر مودتهم الكفر والكافرين، فأهل الجاهلية يحبون الكفر والكافرين؛ لذا فضَّلوا الإقامة علىٰ كفرهم، وبالمقابل أبغضوا الإيمان والمؤمنين، وهذا كفر صريح لا يمكن أن يصدر من مؤمن، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة:١] الآيات.

وقال تعالىٰ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧].

بخلاف أهل الإيمان فإن الله مدحهم وأثنىٰ عليهم بقوله الحق: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

وملل الكفر يجمعهم العداوة للإسلام وأهله، فترىٰ بعضهم راضيًا عن بعض، وتراهم مجتمعين علىٰ بعض دين الإسلام وأهله، وقد عرف المسلمون عقائد جميع الكافرين من يهود ونصارىٰ ووثنيين وملاحدة، ونادوا جميعهم ليدخلوا في الدين الحق دين الإسلام؛ فأبىٰ الظالمون إلا كفورًا.

ألا وإن كل من أبغض عقيدة السلف ومنهجهم؛ ونبز أهل السنة المتمسكين بها علمًا وعملًا؛ فقد تشبه بالمبغضين لدين الإسلام دين الحق؛ الذي هو أحق أن يتبع.

❋ ❋ ❋

المسألة الثَّالِثَةُ وَالعِشرُونَ بَعدَ المِائَةِ، وَالرَّابِعَةُ، وَالخَامِسَةُ، وَالسَّادِسَةُ، وَالسَّابِعَةُ، وَالثَّامِنَةُ وَالعِشرُونَ بَعدَ المِائَةِ: العِيَافَةُ، وَالطَّرقُ، وَالطِّيَرَةُ، وَالكِهَانَةُ، وَالتَّحَاكُمُ إِلَىٰ الطَّاغُوتِ، وَكَرَاهَةُ التَّزوِيجِ بَينَ العِيدَينِ، وَاللهُ أَعلَمُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ.

الشرح:

المسائل الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والعشرون بعد المائة: العيافة، والطرق، والطيرة، والكهانة، والتحاكم إلىٰ الطاغوت، وكراهية التزويج بين العيدين.

وقال: والله أعلم، وصلىٰ الله علىٰ محمد، وعلىٰ آله وصحبه وسلم .

١ - **العيافة من أمر الجاهلية:** وهي زجر الطيور والتشاؤم منها عند رؤيتها.

٢ - **والطرق** كذلك من أمر الجاهلية مما يفعله أهل الشعوذة، وهو الخط في الرمل وادعاؤهم الغيب معها.

٣ - **والطيرة** معروف وهو التشاؤم، وهو بمعنىٰ العيافة.

٤ - **والكهانة عمل الكهان،** وهو ادعاء علم الغيب، الذي هو من خصائص الله، كما قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

٥ - **والتحاكم إلىٰ الطاغوت** هو شأن الكافرين ومن تشبه بهم ممن يتحاكمون إلىٰ القوانين الوضعية، التي قننها البشر بدون إذن من الشرع، وأما المؤمنون؛ فإنهم يتحاكمون إلىٰ ما أنزل الله علىٰ رسله؛ لشموله لمصالح الدنيا والآخرة، وأما البشر فلا يجوز أن يؤخذ بقوانينهم، ولو ادُّعِيَ فيها شيء من المصالح.

٦- **وكراهية التزويج بين العيدين**[1]؛ أي: بين عيد الفطر وعيد الأضحىٰ، وهو منهي عنه؛ لأنه تشاؤم بالأيام وذلك من أمر الجاهلية، ولا يكره التزويج في يوم ويحسن في آخر، أو في شهر ويفضل في شهر آخر، كل ذلك لا أصل له.

بهذا الشرح المختصر الذي بدأناه من أول مسألة إلىٰ آخر مسألة من مسائل الجاهلية يكون قد انتهينا من هذا الكتاب المبارك أعني: «مسائل الجاهلية»، لمؤلفه المجدد لما اندرس من أحكام الإسلام، محمدِ بن عبدِ الوهاب -رحمنا الله وإياه-.

فنحمد الله -تبارك وتعالىٰ- الذي يسَّر وسهَّل، فلا يسير إلا ما يسره، ولا سهل إلا ما جعله سهلًا.

والحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

(١) وفي بعض النسخ (وكراهة التزويج بين العبدين)، ولعل المراد: ما كان عليه أهل الجاهلية من جعل الإماء تزني بأجر، ولذلك لا يزوجونها ويمنعون ذلك الزواج، والله أعلم.

الفهرس

فهرس الموضوعات

مقدمة الشارح ٥
ترجمة مختصرة للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٩
مقدمة المؤلف ٢١
أُمُورٌ خَالَفَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا عَلَيهِ أَهلُ الجَاهِلِيَّةِ الكِتَابِيِّينَ وَالأُمِّيِّينَ، مِمَّا
لَا غِنَىٰ لِلمُسلِمِ عَن مَعرِفَتِهَا ٢١
المَسأَلَةُ الأُولَىٰ: أَنَّهُم يَتَعَبَّدُونَ بِإِشرَاكِ الصَّالِحِينَ فِي دُعَاءِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ ٢٣
الثَّانِيَةُ: أَنَّهُم مُتَفَرِّقُونَ فِي دِينِهِم ٢٧
الثَّالِثَةُ: أَنَّ مُخَالَفَةَ وَلِيِّ الأَمرِ وَعَدَمَ الانقِيَادِ لَهُ فَضِيلَةٌ، وَالسَّمعُ وَالطَّاعَةُ لَهُ
ذُلٌّ وَمَهَانَةٌ، فَخَالَفَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَ بِالصَّبرِ عَلَىٰ جَورِ الوُلَاةِ ٢٩
الرَّابِعَةُ: أَنَّ دِينَهُم مَبنِيٌّ عَلَىٰ أُصُولٍ أَعظَمُهَا: التَّقلِيدُ، فَهُوَ القَاعِدَةُ الكُبرَىٰ
لِجَمِيعِ الكُفَّارِ أَوَّلِهِم وَآخِرِهِم ٣١
الخَامِسَةُ: أَنَّ مِن أَكبَرِ قَوَاعِدِهِم الاغتِرَارُ بِالأَكثَرِ، وَيَحتَجُّونَ بِهِ عَلَىٰ صِحَّةِ
الشَّيءِ، وَيَستَدِلُّونَ عَلَىٰ بُطلَانِ الشَّيءِ بِغُربَتِهِ وَقِلَّةِ أَهلِهِ ٣٤

السَّادِسَةُ: الاحتِجَاجُ بِالمُتَقَدِّمِينَ كَقَولِهِ: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ٣٦
السَّابِعَةُ: الاستِدلَالُ بِقَومٍ أُعطُوا قُوًى فِي الأَفهَامِ وَالأَعمَالِ وَفِي المُلكِ وَالمَالِ وَالجَاهِ، فَرَدَّ اللهُ ذَلِكَ بِقَولِهِ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ ٣٧
الثَّامِنَةُ: الاستِدلَالُ عَلَىٰ بُطلَانِ الشَّيءِ بِأَنَّهُ لَم يَتَّبِعهُ إِلَّا الضُّعَفَاءُ ٣٩
التَّاسِعَةُ: الاقتِدَاءُ بِفَسَقَةِ العُلَمَاءِ وَالعُبَّادِ ٤٠
العَاشِرَةُ: الاستِدلَالُ عَلَىٰ بُطلَانِ الدِّينِ بِقِلَّةِ أَفهَامِ أَهلِهِ وَعَدَمِ حِفظِهِم ٤١
الحَادِيَةَ عَشرَةَ: الاستِدلَالُ بِالقِيَاسِ الفَاسِدِ ٤٢
الثَّانِيَةَ عَشرَةَ: إِنكَارُ القِيَاسِ الصَّحِيحِ ٤٢
الثَّالِثَةَ عَشرَةَ: الغُلُوُّ فِي العُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ ٤٣
الرَّابِعَةَ عَشرَةَ: أَنَّ كُلَّ مَا تَقَدَّمَ مَبنِيٌّ عَلَىٰ قَاعِدَةٍ، وَهِيَ: النَّفيُ وَالإِثبَاتُ، فَيَتَّبِعُونَ الهَوَىٰ وَالظَّنَّ، وَيُعرِضُونَ عَمَّا جَاءَت بِهِ الرُّسُلُ ٤٥
الخَامِسَةَ عَشرَةَ: اعتِذَارُهُم عَنِ اتِّبَاعِ مَا آتَاهُمُ اللهُ بِعَدَمِ الفَهمِ ٤٦
السَّادِسَةَ عَشرَةَ: اعتِيَاضُهُم عَمَّا أَتَاهُم مِنَ اللهِ بِكُتُبِ السِّحرِ ٤٨
السَّابِعَةَ عَشرَةَ: نِسبَةُ بَاطِلِهِم إِلَىٰ الأَنبِيَاءِ كَقَولِهِ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ ٥٠
الثَّامِنَةَ عَشرَةَ: تَنَاقُضُهُم فِي الانتِسَابِ، يَنتَسِبُونَ إِلَىٰ إِبرَاهِيمَ مَعَ إِظهَارِهِم تَركَ اتِّبَاعِهِ ٥٢
التَّاسِعَةَ عَشرَةَ: قَدحُهُم فِي بَعضِ الصَّالِحِينَ بِفِعلِ بَعضِ المُنتَسِبِينَ إِلَيهِم؛ كَقَدحِ اليَهُودِ فِي عِيسَىٰ، وَقَدحِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ ٥٤

العِشرُونَ: اعتِقَادُهُم فِي مَخَارِيقِ السَّحَرَةِ وَأَمثَالِهِم أَنَّهَا مِن كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ ٥٦
الحَادِيَةُ وَالعِشرُونَ: تَعَبُّدُهُم بِالمُكَاءِ وَالتَّصدِيَةِ ٥٨
الثَّانِيَةُ وَالعِشرُونَ: أَنَّهُمُ اتَّخَذُوا دِينَهُم لَهوًا وَلَعِبًا ٥٩
الثَّالِثَةُ وَالعِشرُونَ: أَنَّ الحَيَاةَ الدُّنيَا غَرَّتهُم؛ فَظَنُّوا أَنَّ عَطَاءَ الله مِنهَا يَدُلُّ عَلَىٰ رِضَاهُ..... ٦١
الرَّابِعَةُ وَالعِشرُونَ: تَركُ الدُّخُول فِي الحَقِّ إِذَا سَبَقَهُم إِلَيهِ الضُّعَفَاء تَكَبُّرًا وَأَنَفَةً ٦٣
الخَامِسَةُ وَالعِشرُونَ: الاستِدلَالُ عَلَىٰ بُطلَانِهِ بِسَبقِ الضُّعَفَاءِ ٦٥
السَّادِسَةُ وَالعِشرُونَ: تَحرِيفُ كِتَابِ الله مِن بَعدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُم يَعلَمُونَ ٦٧
السَّابِعَةُ وَالعِشرُونَ: تَصنِيفُ الكُتُبِ البَاطِلَةِ وَنِسبَتُهَا إِلَىٰ الله ٦٨
الثَّامِنَةُ وَالعِشرُونَ: أَنَّهُم لَا يَقبَلُونَ مِنَ الحَقِّ إِلَّا الَّذِي مَعَ طَائِفَتِهِم؛ كَقَولِهِ: ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ الآيَةَ..... ٧٠
التَّاسِعَةُ وَالعِشرُونَ: أَنَّهُم مَعَ ذَلِكَ لَا يَعلَمُونَ بِمَا تَقُولُهُ طَائِفَتُهُم، كَمَا نَبَّهَ الله تَعَالَىٰ عَلَيهِ بِقَولِهِ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾..... ٧٣
المسألة الثَّلَاثُونَ: وَهِيَ مِن عَجَائِبِ آيَاتِ الله: أَنَّهُم لَمَّا تَرَكُوا وصِيَّةَ الله بِالاجتِمَاعِ، وَارتَكَبُوا مَا نَهَىٰ الله عَنهُ مِنَ الافتِرَاقِ ٧٤
الحَادِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: مُعَادَاتُهُم الدِّينَ الَّذِي انتَسَبُوا إِلَيهِ غَايَةَ العَدَاوَةِ، وَمَحَبَّتُهُم دِينَ الكُفَّارِ الَّذِينَ عَادَوهُم وَعَادَوا نَبِيَّهُم وَفِئَتَهُم غَايَةَ المَحَبَّةِ..... ٨٠
الثَّانِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: كُفرُهُم بِالحَقِّ إِذَا كَانَ مَعَ مَن لَا يَهوَونَهُ ٨٤

الثَّالِثَةُ وَالثَّلَاثُون: إِنكَارُهُم مَا أَقَرُّوا أَنَّهُ دِينُهُم، كَمَا فَعَلُوا فِي حَجِّ البَيت؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ ٨٦

الرَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ: أَنَّ كُلَّ فِرقَةٍ تَدَّعِي أَنَّهَا النَّاجِيَةُ فَأَكذَبَهُمُ الله بِقَولِهِ: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ٨٧

الخَامِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ: التَّعَبُّدُ بِكَشفِ العَورَاتِ..... ٨٩

السَّادِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ: التَّعَبُّدُ بِتَحرِيمِ الحَلَالِ كَمَا تَعَبَّدُوا بِالشِّركِ ٩١

السَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونُ: التَّعَبُّدُ بِاتِّخَاذِ الأَحبَارِ وَالرُّهبَانِ أَربَابًا مِن دُونِ اللهِ..... ١١٠

الثَّامِنَةُ وَالثَّلَاثُونَ: الإِلحَادُ فِي الصِّفَاتِ..... ١١٢

التَّاسِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ: الإِلحَادُ فِي الأَسمَاءِ؛ كَقَولِهِ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ .. ١١٢

المسألة الأَربَعُونَ: التَّعطِيلُ، كَقَولِ آلِ فِرعَونَ ١١٥

المسألة الحَادِيَةُ وَالأَربَعُونَ: نِسبَةُ النَّقَائِصِ إِلَيهِ سُبحَانَهُ؛ كَالوَلَدِ وَالحَاجَةِ وَالتَّعَبِ مَعَ تَنزِيهِ رُهبَانِهِم عَن بَعضِ ذَلِكَ ١١٧

الثَّانِيَةُ وَالأَربَعُونَ: الشِّركُ فِي المُلكِ كَقَولِ المَجُوسِ ١٢٠

المسألة الثَّالِثَةُ وَالأَربَعُونَ: جُحُودُ القَدَرِ ١٢١

المسألة الرَّابِعَةُ وَالأَربَعُونَ: الاحتِجَاجُ عَلَىٰ الله بِهِ ١٢١

المسألة الخَامِسَةُ وَالأَربَعُونَ: مُعَارَضَةُ شَرعِ الله بِقَدَرِهِ..... ١٢١

السَّادِسَةُ وَالأَربَعُونَ: مَسَبَّةُ الدَّهرِ، كَقَولِهِم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ ١٣١

المسألة السَّابِعَةُ وَالأَربَعُونَ: إِضَافَةُ نِعَمِ الله إِلَىٰ غَيرِهِ ١٣٣

المسألة الثَّامِنَةُ وَالأَربَعُونَ: الكُفرُ بِآيَاتِ الله ١٣٥
المسألة التَّاسِعَةُ وَالأَربَعُونَ: جَحدُ بَعضِهَا..... ١٣٧
المسألة الخَمسُونَ: قَولُهُم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ ١٤٠
المسألة الحَادِيَةُ وَالخَمسُونَ: قَولُهُم فِي القُرآنِ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ ١٤٢
المسألة الثَّانِيَةُ وَالخَمسُونَ: القَدحُ فِي حِكمَةِ الله تَعَالَىٰ ١٤٤
المسألة الثَّالِثَةُ وَالخَمسُونَ: إِعمَالُ الحِيَلِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ فِي دَفعِ مَا جَاءَت بِهِ الرُّسُلُ؛ كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ ١٤٥
المسألة الرَّابِعَةُ وَالخَمسُونَ: الإِقرَارُ بِالحَقِّ لِيَتَوَصَّلُوا بِهِ إِلَىٰ دَفعِهِ ١٤٨
المسألة الخَامِسَةُ وَالخَمسُونَ: التَّعَصُّبُ لِلمَذهَبِ..... ١٤٩
المسألة السَّادِسَةُ وَالخَمسُونَ: تَسمِيَةُ اتِّبَاعِ الإِسلَامِ شِركًا ١٥٣
المسألتان السَّابِعَةُ وَالخَمسُونَ وَالثَّامِنَةُ وَالخَمسُونَ: تَحرِيفُ الكَلِمِ عَن مَوَاضِعِهِ، وَلَيُّ الأَلسِنَةِ بِالكِتَابِ ١٥٥
المسألة التَّاسِعَةُ وَالخَمسُونَ: تَلقِيبُ أَهلِ الهُدَىٰ بِالصُّبَاةِ وَالحَشوِيَّةِ ١٥٧
المسألتان الستون والحادية والستون: افتِرَاءُ الكَذِبِ عَلَىٰ اللهِ، والتَّكذِيبُ بِالحَقِّ. ١٥٩
المسألة الثَّانِيَةُ وَالسِّتُّونَ: كَونُهُم إِذَا غُلِبُوا بِالحُجَّةِ فَزِعُوا إِلَىٰ الشَّكوَىٰ لِلمُلُوكِ..... ١٦١
المسألة الثَّالِثَةُ وَالسِّتُّونَ: رَمِيُهُم إِيَّاهُم بِالفَسَادِ فِي الأَرضِ..... ١٦٣
المسألة الرَّابِعَةُ وَالسِّتُّونَ: رَمِيُهُم إِيَّاهُم بِانتِقَاصِ دِينِ المَلِكِ ١٦٤

المسألة الخَامِسَةُ وَالسِّتُّونَ: رَميُهُم إِيَّاهُم بِانتِقَاصِ آلِهَةِ المَلِكِ ١٦٤
المسألة السَّادِسَةُ وَالسِّتُّونَ: رَميُهُم إِيَّاهُم بِتَبدِيلِ الدِّينِ ١٦٤
المسألة السابعة والستون: رميهم لعباد الله الصالحين بتبديل الدين ١٦٦
المسألة الثَّامِنَةُ وَالسِّتُّونَ: دَعوَاهُم العَمَلَ بِمَا عِندَهُم مِنَ الحَقِّ ١٦٧
المسألة التَّاسِعَةُ وَالسِّتُّونَ: الزِّيَادَةُ فِي العِبَادَةِ كَفِعلِهِم يَومَ عَاشُورَاءَ ١٦٨
المسألة السَّبعُونَ: نَقصُهُم مِنهَا، كَتَركِهِم الوُقُوفَ بِعَرَفَاتٍ ١٧٠
المسألة الحَادِيَةُ وَالسَّبعُونَ: تَركِهِم الوَاجِبَ وَرَعًا ١٧١
المسألة الثَّانِيَةُ وَالسَّبعُونَ: تَعَبُّدُهُم بِتَركِ الطَّيِّبَاتِ مِن الرِّزقِ ١٧٢
المسألة الثَّالِثَةُ وَالسَّبعُونَ: تَعَبُّدُهُم بِتَركِ زِينَةِ اللهِ ١٧٢
المسألة الرَّابِعَةُ وَالسَّبعُونَ: دَعوَتُهُم النَّاسَ إِلَىٰ الضَّلَالِ بِغَيرِ عِلمٍ ١٧٣
المسألة الخَامِسَةُ وَالسَّبعُونَ: دَعوَتُهُم إِيَّاهُم إِلَىٰ الكُفرِ مَعَ العِلمِ ١٧٥
المسألة السَّادِسَةُ وَالسَّبعُونَ: المَكرُ الكُبَّارُ كَفِعلِ قَومِ نُوحٍ ١٧٦
المسألة السَّابِعَةُ وَالسَّبعُونَ: أَنَّ أَئِمَّتَهُم إِمَّا عَالِمٌ فَاجِرٌ، وَإِمَّا عَابِدٌ جَاهِلٌ ١٧٨
المسألة الثَّامِنَةُ وَالسَّبعُونَ: دَعوَاهُم أَنَّهُم أَولِيَاءُ اللهِ مِن دُونِ النَّاسِ ١٨١
المسألة التَّاسِعَةُ وَالسَّبعُونَ: دَعوَاهُم مَحَبَّةَ اللهِ مَعَ تَركِهِم شَرعَهُ؛ فَطَالَبَهُمُ
اللهُ بِقَولِهِ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ الآيَةَ ١٨٣
المسألة الثَّمَانُونَ: تَمَنِّيهِمُ الأَمَانِيَّ الكَاذِبَةَ، كَقَولِهِم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ
أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ ١٨٥

المسألة الحَادِيَةُ وَالثَّمَانُونَ: اتِّخَاذُ قُبُورِ أَنبِيَائِهِم وَصَالِحِيهِم مَسَاجِدَ..... ١٩٠
المسألة الثَّانِيَةُ وَالثَّمَانُونَ: اتِّخَاذُ آثَارِ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ كَمَا ذُكِرَ عَن عُمَرَ ١٩٢
المسألة الثَّالِثَةُ وَالثَّمَانُونَ: اتِّخَاذُ السُّرُجِ عَلَىٰ القُبُورِ ١٩٤
المسألة الرَّابِعَةُ وَالثَّمَانُونَ: اتِّخَاذُهَا أَعيَادًا ١٩٦
المسألة الخَامِسَةُ وَالثَّمَانُونُ: الذَّبحُ عِندَ القُبُورِ ١٩٩
المسألة السَّادِسَةُ وَالثَّمَانُونَ: التَّبَرُّكُ بِآثَارِ المُعَظَّمِينَ..... ٢٠١
المسألة السَّابِعَةُ وَالثَّمَانُونَ: الفَخرُ بِالأَحسَابِ ٢٠٣
المسألة الثَّامِنَةُ وَالثَّمَانُونَ: الطَّعنُ فِي الأَنسَابِ ٢٠٣
المسألة التَّاسِعَةُ وَالثَّمَانُونَ: الاستِسقَاءُ بِالأَنوَاءِ ٢٠٣
المسألة التِّسعُونَ: النِّيَاحَةُ ٢٠٣
المسألة الحَادِيَةُ وَالتِّسعُونَ: أَنَّ أَجَلَّ فَضَائِلِهِمُ: البَغيُ، فَذَكَرَ الله فِيهِ مَا ذَكَرَ.. ٢٠٥
المسألة الثَّانِيَةُ وَالتِّسعُونَ: أَنَّ أَجَلَّ فَضَائِلِهِمُ: الفَخرُ وَلَو بِحَقٍّ، فَنَهَىٰ عَنهُ ... ٢٠٦
المسألة الثَّالِثَةُ وَالتِّسعُونَ: أَنَّ تَعَصُّبَ الإِنسَانِ لِطَائِفَتِهِ عَلَىٰ الحَقِّ وَالبَاطِلِ
أَمرٌ لَا بُدَّ مِنهُ عِندَهُم، فَذَكَرَ الله فِيهِ مَا ذَكَرَ..... ٢٠٩
المسألة الرَّابِعَةُ وَالتِّسعُونَ: أَنَّ مِن دِينِهِم أَخذَ الرَّجُلِ بِجَرِيمَةِ غَيرِهِ، فَأَنزَلَ الله:
﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ٢١٤
المسألة الخَامِسَةُ وَالتِّسعُونَ: تَعيِيرُ الرَّجُلِ بِمَا فِي غَيرِهِ فَقَالَ: «أَعَيَّرتَهُ بِأُمِّهِ؟
إِنَّكَ امرؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ» ٢١٦

المسألة السَّادِسَةُ وَالتِّسعُونَ: الافتِخَارُ بِوِلَايَةِ البَيتِ ٢١٧
المسألة السَّابِعَةُ وَالتِّسعُونَ: الافتِخَارُ بِكَونِهِم ذُرِّيَّةَ الأَنبِيَاءِ؛ فَأَتَىٰ اللهُ بِقَولِهِ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ الآيَةَ ٢١٨
المسألة الثَّامِنَةُ وَالتِّسعُونَ: الافتِخَارُ بِالصَّنَائِعِ كَفِعلِ أَهلِ الرِّحلَتَينِ عَلَىٰ أَهلِ الحَرثِ ٢١٩
المسألة التَّاسِعَةُ وَالتِّسعُونَ: عَظَمَةُ الدُّنيَا فِي قُلُوبِهِم؛ كَقَولِهِم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ٢٢٠
المسألة المِائَةُ: التَّحَكُّمُ عَلَىٰ الله ٢٢١
المسألة الحَادِيَةُ بَعدَ المِائَةِ: ازدِرَاءُ الفُقَرَاءِ؛ فَأَتَاهُم بِقَولِهِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ ٢٢٣
المسألة الثَّانِيَةُ بَعدَ المِائَةِ: رَمِيُهُم أَتبَاعَ الرُّسُلِ بِعَدَمِ الإِخلَاصِ وَطَلَبِ الدُّنيَا، فَأَجَابَهُم بِقَولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ الآيَةَ ٢٢٥
المسألة الثَّالِثَةُ بَعدَ المِائَةِ: الكُفرُ بِالمَلَائِكَةِ ٢٢٧
المسألة الرَّابِعَةُ بَعدَ المِائَةِ: الكُفرُ بِالرُّسُلِ ٢٢٩
ما يقتضيه الإيمان بالرسل ٢٣٢
المسألة الخَامِسَةُ بَعدَ المِائَةِ: الكُفرُ بِالكُتُبِ ٢٣٩
المسألة السَّادِسَةُ بَعدَ المِائَةِ: الإِعرَاضُ عَمَّا جَاءَ عَنِ اللهِ ٢٥١
المسألة السَّابِعَةُ بَعدَ المِائَةِ: الكُفرُ بِاليَومِ الآخِرِ ٢٥٤

المسألة الثَّامِنَةُ بَعدَ المِائَةِ: التَّكذِيبُ بِلِقَاءِ الله ٢٦٠
المسألة التَّاسِعَةُ بَعدَ المِائَةِ: التَّكذِيبُ بِبَعضِ مَا أَخبَرَت بِهِ الرُّسُلُ عَنِ اليَومِ الآخِرِ، كَمَا فِي قَولِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ ٢٦٢
المسألة العَاشِرَةُ بَعدَ المِائَةِ: قَتلُ الَّذِينَ يَأمُرُونَ بِالقِسطِ مِنَ النَّاسِ ٢٦٢
المسألة الحَادِيَةَ عَشرَةَ بَعدَ المِائَةِ: الإِيمَانُ بِالجِبتِ وَالطَّاغُوتِ ٢٦٥
المسألة الثَّانِيَةَ عَشرَةَ بَعدَ المِائَةِ: تَفضِيلُ دِينِ المُشرِكِينَ عَلَىٰ دِينِ المُسلِمِينَ.... ٢٦٧
المسألة الثَّالِثَةَ عَشرَةَ بعدَ المِائَةِ: لَبسُ الحَقِّ بِالبَاطِلِ ٢٦٩
المسألة الرَّابِعَةَ عَشرَةَ بَعدَ المِائَةِ: كِتمَانُ الحَقِّ مَعَ العِلمِ بِهِ ٢٧٠
المسألة الخَامِسَةَ عَشرَةَ بَعدَ المِائَةِ: قَاعِدَةُ الضَّلَالِ وَهِيَ القَولُ عَلَىٰ الله بِلَا عِلمٍ ٢٧٢
المسألة السَّادِسَةَ عَشرَةَ بَعدَ المِائَةِ: التَّنَاقُضُ الوَاضِحُ لَمَّا كَذَّبُوا بِالحَقِّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ ٢٧٤
المسألة السَّابِعَةَ عَشرَةَ بَعدَ المِائَةِ: الإِيمَانُ بِبَعضِ المُنَزَّلِ دُونَ بَعضٍ ٢٧٥
المسألة الثَّامِنَةَ عَشرَةَ بَعدَ المِائَةِ: التَّفرِيقُ بَينَ الرُّسُلِ ٢٧٦
المسألة التَّاسِعَةَ عَشرَةَ بَعدَ المِائَةِ: مُخَاصَمَتُهُم فِيمَا لَيسَ لَهُم بِهِ عِلمٌ ٢٧٨
المسألة العِشرُونَ بَعدَ المِائَةِ: دَعوَاهُمُ اتِّبَاعَ السَّلَفِ مَعَ التَّصرِيحِ بِمُخَالَفَتِهِم.... ٢٧٩
المسألة الحَادِيَةُ وَالعِشرُونَ بَعدَ المِائَةِ: صَدُّهُم عَن سَبِيلِ الله مَن آمَنَ بِهِ ٢٨٠
المسألة الثَّانِيَةُ وَالعِشرُونَ بَعدَ المِائَةِ: مُوَدَّتُهُم الكُفرَ وَالكَافِرِينَ ٢٨١

المسألة الثَّالِثَةُ وَالعِشرُونَ بَعدَ المِائَةِ، وَالرَّابِعَةُ، وَالخَامِسَةُ، وَالسَّادِسَةُ، وَالسَّابِعَةُ، وَالثَّامِنَةُ وَالعِشرُونَ بَعدَ المِائَةِ: العِيَافَةُ، وَالطَّرقُ، وَالطِّيَرَةُ، وَالكِهَانَةُ، وَالتَّحَاكُمُ إِلَىٰ الطَّاغُوتِ، وَكَرَاهَةُ التَّزوِيجِ بَينَ العِيدَينِ ٢٨٣

الفهرس ٢٨٧

* * *